

الحب

بين الفلسفة والعلم

دراسات في النفس والمجتمع

دكتور علي السيد سليمان
جامعة القاهرة
جامعة الملك سعود

٢٠٠٠م

الناشر

مكتبة الصفحات الذهبية

الرياض - العليا شارع التخصصي

ت : ٤٦٥٦٦٣٦ - ٤٦٤٥٣٧٨

ص.ب ٨٢٣٦ الرياض ١١٤٨٢

ح) شركة الصفحات الذهبية ، ١٤٢٠هـ -

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

سليمان ، علي السيد

الحب بين الفلسفة والعلم : دراسات واجتماعية - الرياض .

١٨٨ ص ، ١٧ X ٢٤ سم

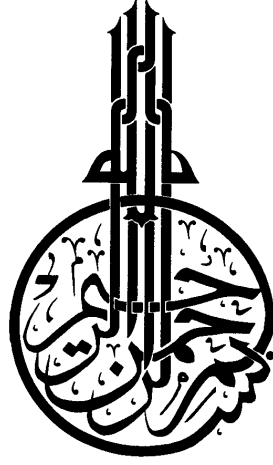
ردمك : ٩٩٦٠-٩١٧٧-٣-٨

١- الحب أ- العنوان

ديوي ١٧٧،٧ ٢٠/٣٩٧٨

رقم الإيداع : ٢٠/٣٩٧٨

ردمك : ٩٩٦٠-٩١٧٧-٣-٨



﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا
يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾

[البقرة: ١٦٥]

الإهداء

إلى كل انسان يبحث عن الحياة
والسعادة .

إلى كل نفس تواققة للحب والحياة
والإبداع .

إلى ابنائي وزهور حياتي
أحببتكم

فأحببت فيكم كل البشر

وأحببت فيكم العالم أجمع

أحببت فيكم الحياة ..

أحببت فيكم نفسي.

الحب هو المخرج من

اللاوجود إلى الوجود

(أفلاطون)

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	الإهداء .
٧	مقدمة
	الباب الأول
	الحب والحياة
١١	الفصل الأول : الحب اسمى العلاقات الانسانية
٢١	الفصل الثاني : الحب ومشكلة الوجود الانساني «نظرية في الحب»
٥٩	الفصل الثالث : الحب ومشكلة العلاقة بين الآباء والأبناء
	الباب الثاني
	أنواع الحب
٦٩	مقدمة
٧١	الفصل الرابع : حب الغير وحب الآخرين
٧٥	الفصل الخامس : حب الأم
٨١	الفصل السادس : الحب الجنسي
٨٧	الفصل السابع : حب الذات (حب النفس)
٩٥	الفصل الثامن : حب الوطن
١٠١	الفصل التاسع : حب الله (الحب الالهي)
١٠٩	الفصل العاشر : الله والمجتمع الغربي
١١٣	الفصل الحادي عشر : حب الله في المجتمع الاسلامي
	الباب الثالث
	الحب بين السواء والمرضى
١٢٣	الفصل الثاني عشر : الحب في المجتمع المعاصر
١٣٥	الفصل الثالث عشر : أمراض الحب
	الباب الرابع
	سيكولوجية تعلم الحب
١٥١	الفصل الرابع عشر : تعلم الحب
١٦٥	الفصل الخامس عشر : الحب المبدع بين الفلسفة والعلم
١٨١	خاتمة
١٨٣	المراجع

مقدمة

يخضع الحب في المجتمع الحديث للشروط العامة التي تخضع لها الحياة في هذا المجتمع . والمتأمل للمجتمعات المعاصرة، وخصوصاً تلك المجتمعات التي نطلق عليها اسم المجتمعات المتقدمة أو المجتمعات الصناعية، يجد أن الإنسان في تلك المجتمعات قد تحول بصورة تدريجية إلى آلة أو ترس في آلة . ولم يكن من السهل أن يمر هذا التحول بسلام وأمان دون مضاعفات، ودون أن يترك بصماته على الإنسان الذي أصبح إنساناً ممزقاً يعاني من الخواء النفسي، ومن الوحدة والقلق، فهو إنسان لم يعد بقادر على الحب، بل لم يعد بقادر على أن يشعر بذاته وبإنسانيته، بعد أن اندرج في مصاف الأجهزة والآلات، وبعد أن راح يستج بحمد هذه الآلات ويتعبد في محرابها .

وفي غيبة الحب انفصل الإنسان عن نفسه وعن ذاته وعن المجتمع الذي يعيش فيه وكانت النتيجة الحتمية لهذا الانفصال الناتج عن عدم القدرة على الحب، هي تفكك الأسرة، وتشرد الأطفال، وانتشار الانحلال الخلقي، والإدمان، سواء إدمان الخمر أو المخدرات . وفي ظل هذا المجتمع أيضا ارتفعت نسبة الانتحار، وارتفعت أيضا نسبة الأمراض العقلية والنفسية في المجتمع .

إن العلاقة بين أبناء المجتمع الحديث لم تعد تزيد عن علاقة تروس الآلات مع بعضها، والمتأمل لهذه العلاقة يجد أن تروس الآلة الواحدة دائماً ما تكون في علاقة وفاق مع بعضها . إن كل ترس في الآلة يساعد الترس الآخر على الحركة والدوران، كما أن التروس تتعامل مع بعضها بمتهى اللطف والرفقة والظرف والأدب، ويقوم كل منها بعمل شيء معين من أجل إشعار الترس الآخر بالراحة . ومع ذلك فإن هذه التروس تظل منفصلة عن بعضها، يدور كل منها في فلكه الخاص، ولن

يصل الحال بها في يوم من الأيام إلى أن تقوم بينها علاقة حب أو اندماج .

ولقد حاولت في هذا الكتاب أن أعرض لمفهوم الحب ، ولأسس النفسية والاجتماعية التي يقوم عليها . ولقد عانيت أيضاً بعرض صور وأنواع مختلفة للحب السوى وللحب المرضى ؛ وحاولت أن أشرح الأسباب التي تكمن خلف أمراض الحب . وفي الباب الأخير عرضت لأسلوب ومنهج علمي للطريقة التي يمكن للإنسان بها أن يتعلم الحب ، وأن ينمي من خلالها قدراته على الحب .

وأخيراً فلأنني أرجو لكل قارئ لهذا الكتاب أن يجد ضالته المنشودة سعياً منا جميعاً نحو تحقيق مجتمع الحب .

ويتكون الكتاب الحالي من أربعة أبواب يشتمل كل منها على فصول صغيرة ، ففي الباب الأول عرضنا لمفهوم الحب من الناحية النظرية والفلسفية والشعبية الفولكلورية ، ثم عرضنا للعلاقة بين الحب والوجود الانساني أو الذات الانسانية والشعور بالوحدة والاعتراب وفي الفصل الثالث عرضنا لموضوع الحب في ضوء العلاقة الانسانية والتربوية بين الآباء والابناء . أما في الباب الثاني فقد عرضنا الحب النفس وحب الآخرين كما عرضنا للأمومة وحب الأم ، وحب الوطن والانتفاء الوطني ثم عرضنا لأعلى درجات الحب متمثلة في حب الله أو الحب الالهي الذي يملأ علينا حياتنا جميعاً ، كما عرضنا لصورة الله في المجتمع الغربي وحب الله في المجتمع الإسلامي .

أما في الباب الثالث فقد عرضنا للوضع الراهن للعلاقة الانسانية ، المتمثلة في الحب في المجتمع الصناعي المعاصر «مجتمع البزنس» ، والاعمال والمصالح ، ثم عرضنا لبعض الآفات والأمراض التي تصيب العلاقات الانسانية في أسمى معانيها كما تتمثل في علاقات الحب ، وفي الباب الرابع عرضنا لبعض التطبيقات العلمية

التي قد تفيد الانسان في تعلم كيفية اقامة العلاقات الانسانية الراقية وهي الحب .
ولعلي بهذا العمل أكون قد اسهمت في تقديم قدر من الفائدة لأبناء مجتمعنا
ولشبابنا لتعلم أسس اقامة العلاقات الانسانية السليمة ، ولعلي اسهمت في لفت
نظر الآباء والامهات والمربين إلى كيفية التعامل مع الابناء في سنوات نموهم
وبلوغهم سن الرشد .
والله سبحانه وتعالى اسأل أن تتحقق الفائدة المرجوة وعلى الله قصد السبيل .

دكتور علي السيد سليمان

جامعة القاهرة / جامعة الملك سعود

الرياض ١٩٩٩/٤/٢٠م

الباب الأول

الحب والحياة

الفصل الأول

الحب أسمى العلاقات الانسانية

يعتقد الكثيرون من أبناء مجتمعتنا أن الحب عبارة عن شعور لذيق بالسعادة يحس به انسان ما في نفسه عندما يقيم علاقة مع شخص آخر، كما أن الحب أيضاً في نظر هذا الجمع من الناس هو ذلك الشعور اللذيذ بالسعادة الذي يمنحه إنسان ما لانسان آخر. هذا الشعور اللذيذ بالسعادة والبهجة هو ما يطلق عليه عامة الناس اسم الحب . والحب بهذا المعنى إن هو إلا وليد المصادفات السعيدة التي تضع في طريق الإنسان شخصا ما يشعر نحوه ومعه بهذا الشعور اللذيذ . وإذا كان الأمر كذلك فإن المشكلة الوحيدة في هذا النوع من الحب هي مشكلة وجود الشخص المناسب والجدير بالحب . ومن هذا المنطلق يعتقد عامة الناس أيضاً أنه ليس في الكون أسهل من الحب ، فما على الانسان إلا أن ينتظر حتى يسوق له القدر من يحب ، أى أن الحب بهذه الطريقة ليس في حاجة إلى قيام الإنسان بأى مجهود .

ويذهب البعض الآخر من أبناء المجتمع مذهباً آخرأ في نظرهم إلى الحب ، فالحب في نظرهم يختلف تماماً عن الحب في رأى الفريق الأول . . انهم ينظرون إلى الحب على أنه علم أو فن مثل غيره من العلوم أو الفنون التي يتعلمها الإنسان وأنه لابد أن تتوفر لدى الإنسان مجموعة من القدرات النفسية والعقلية حتى يتمكن من تعلم هذا العلم أو ذلك الفن واتقانه ، وحتى يتمكن أيضاً من ممارسته ، وهنا يتحتم على الإنسان أيضاً أن يكون مستعداً لبذل الوقت والجهد في سبيل تعلم هذا العلم أو ذلك الفن . ونحن بدورنا نميل الى اعتباره واحداً من العلوم أو الفنون

المختلفة ، يجب أن يبذل الإنسان في سبيله الوقت والجهد إذا أراد أن يحب ، أضاف إلى ذلك أن يكون هذا الإنسان ممتلكا للقدرات النفسية والعقلية التي تمكنه من التعلم .

وإذا كان الكثيرون يعتقدون أن الحب ما هو إلا وليد حسن الطالع والمصادفات السعيدة أو الحظ كما قد يحلو للبعض تسميته ، إلا أنهم يؤمنون إيماناً نفسياً عميقاً بأهمية هذا الحب . انه ليس من قبيل الصدفة أن نجد أن أغاني الحب تحتل مساحة واسعة في خريطة الارسال الاذاعي اليومي المسموع ، والمرئي المسموع وليس غريباً أن يحتفظ هؤلاء الناس بأغاني الحب على شرائط التسجيل بأنواعها المختلفة ، وليس غريباً أن يبحث هؤلاء الناس أيضاً عن الحب ليل نهار ، يذهبون الى السينما أو يجلسون أمام أجهزة التلفزيون وأشرطة الفيديو وأجهزة التسجيل لسماع كلمات الحب التي يتغنى بها المطربون والمطربات لمشاهدة أفلام تحكي قصص الحب الناجح وأفلام أخرى تحكي قصص الحب الفاشل ، ويذهبون إلى المسرح ليشاهدوا أيضاً روايات الحب ، ويتغنون بكلمات الحب وأغانيه في كل وقت وحين . ورغم كل هذا فإن هؤلاء الناس من أبناء مجتمعنا لا يعتقدون بوجود ما يمكن أن يتعلمه الانسان عن الحب .

ان موقف هؤلاء الغالبية من الناس يعتمد على منطق فردي وجماعي يرى أن المشكلة في الحب تكمن أساساً في أن يكون الانسان محبوباً من الآخرين ، ويتناسى أصحاب هذا المنطق أن مشكلة الحب الأساسية هي في أن يمتلك الانسان القدرة على أن يحب .

كيف أكون محبوباً ؟ هذا هو المحور الأول في منطق الغالبية من الناس . فكل فرد من هذه الغالبية يتساءل بينه وبين نفسه : هل يمكن أن أجد من يحبني ؟ وكيف أكون موضع حب الآخرين ؟ وفي سبيل الوصول الى هذا الهدف يسلك هؤلاء الناس طرقاً ومساالك متعددة ، فنجد الرجال يلجئون عادة الى محاولة تحقيق أكبر قدر من النجاح والشهرة ، واطهار علامات الرجولة والقوة أو السيطرة والتحكم في الآخرين ، أو الوصول الى أكبر درجة من الغنى والثروة ، أما النساء فانهن عادة مايسلكن طرقاً أخرى ، ان كل سيدة أو فتاة تحاول اظهار فتنتها وجاذبيتها وأنوثتها

وذلك عن طريق الاهتمام بجسمها وبأناقة ملابسها وباستخدام مواد التجميل المختلفة وتسريحات الشعر المبتكرة ، وكل الحركات والاياءات ، وحتى عن طريق التحكم في الاصوات سواء في اللقاءات المباشرة او عبر الهاتف ، وحتى عبر القنوات الفضائية والاقمار الصناعية . . . الخ .

وهناك من الطرق والأساليب ما يصلح للجنسين على حد السواء مثل محاولة الانسان رجلا كان أو امرأة أن يكون لبقا ولطيفا ومهذبا ، ذا خبرة وثقافة رفيعة ، وأن يكون ذكيا واسع المعرفة ، وأن يكون ذا خلق ، وعلى استعداد لمديد المساعدة . ويمكننا هنا أن نلاحظ بسهولة أن الكثير من هذه الطرق التي يسلكها كل من الرجال والنساء حتى يكونوا محبوبين من غيرهم ، هي نفس الطرق التي يسلكها الانسان لتحقيق النجاح في حياته بصفة عامة ، وليكسب بها الأصدقاء وليؤثر بها في الآخرين وفي آرائهم . وهنا تظهر حقيقة هامة وهي أن ما يفهمه كثير من أبناء مجتمعنا عن الحب ، ماهو في جوهره الا خليط بين بعدين اثنين وهما الحصول على الشهرة والحصول على موضوع جنسي .

كيف أجد من أحب ؟ هذا هو المحور الثاني في منطق الغالبية من الناس الذين يعتقدون بعدم وجود ما يجب أن يتعلمه الانسان عن الحب . فالمشكلة من وجهة النظر هذه هي مشكلة وجود الانسان الذي أحبه ، أو الانسان الذي يستحق الحب ، وليست مشكلة القدرة على الحب ، ويعتقد هؤلاء الغالبية أن الحب هو أسهل وأيسر شيء في الحياة ، ولكن المشكلة الصعبة تكمن في امكانية وجود الانسان الذي يحبني ، وفي وجود الانسان الذي يستحق حبي له . . . ان المشكلة هنا هي مشكلة أن أجد من أحب .

هذا الاعتقاد الخاطئ عن الحب له جذوره العميقة في عملية التطور الاجتماعي . لقد حدث تغير كبير في المجتمع المعاصر ، فلقد أصبح الانسان المعاصر حرا في اختيار الانسان الذي يحبه . منذ سنوات مضت - ولعل هذه الصورة لم تنته بعد في بعض الأوساط الاجتماعية ، وفي بعض القرى النائية - لم تكن

هناك الحرية الكافية في أن تختار الفتاة فتى أحلامها ، ولم تكن هناك الحرية الكافية في أن يختار الفتى فتاة أحلامه التي يجدها ، حيث تؤدي العلاقة بينهما فيما بعد الى الزواج . لقد كان ما يحدث هو العكس تماما . . كان الزواج أولا وذلك بتوثيق العقد ، وكانت العلاقات الأسرية تلعب دورا كبيرا في هذا الزواج ، وإن لم يكن فإن الخاطبة تقوم بالدور الأساسي في عملية الزواج ، وكان الاعتقاد في أن الحب سوف يأتي بعد الزواج . ورغم وجود الحب العذري في المجتمع العربي الذي يحدثنا عنه شعر قيس / ليلي ، وكثير / عزة ، وغيرهم ، إلا أن المجتمع العربي لم يعترف بهذا الحب في يوم من الأيام ، ولا غرابة في ذلك فالمجتمع الأوروبي أيضا لم يكن يعترف بهذا النوع من الحب ، ولكن المجتمع الأوروبي تغير في العهد الحديث تغيرا كبيرا حتى وصل الأمر الى الإباحة التي تمنح الحرية في أن يختار الانسان من يجده ، وأن يقيم معه من الخبرات والتجارب ما يشاء بغض النظر عما اذا كانت هذه العلاقة ستؤدي إلى الزواج أم لا . أن المفهوم الحديث لحرية الحب لا يمكن أن يحتمل أكثر من معنى وهو البحث عن موضوع للحب وليس الاهتمام بالعملية أو الوظيفة الأساسية في الحب .

لقد قلنا أن ما وصل اليه المجتمع لما يسمى بحرية الحب ، أو الحرية في البحث عن موضوع الحب يرتبط بتطور المجتمع الذي نعيش فيه ، وبنوع الحضارة التي تسود في هذا المجتمع . فإذا كان المجتمع يعتمد على تبادل المصالح ، وطغت عليه المادة ، أصبحت العلاقات بين أفراد هذا المجتمع ليست أكثر من علاقات تجارية أو مصلحة ، يعتقد كل طرف فيها بأنه سيعقد صفقة رابحة لاتعوض ، وأن عليه أن يسرع في اتمام هذه الصفقة . لقد أصبحت سعادة الانسان الحديث تكمن فيما يستطيع هذا الانسان أن يحصل عليه من ترف ورفاهية ، يتجول هذا الانسان في الشوارع يشاهد المعروضات من السلع في فترينات المحلات ، يشتري من المعروضات ما يستطيع شراءه سواء بالنقد أو بالتقسيط ، كل حسب ماتسمح به حالته . وهكذا تسري العدوى من نظرة هذا الانسان الى السلع المعروضة الى نظراته

الى غيره من بني الانسان ، فالرجل يبحث عن فتاة فاتنة جذابة ، والمرأة أو الفتاة تبحث عن رجل جذاب . والجاذبية هنا تعني ماتعارف عليه الناس في هذا المجتمع ، وهي مجموعة من الصفات الشخصية المحبوبة والمطلوبة في مجال سوق الشخصية . وما يجعل انساناً ما جذاباً يرتبط أساساً بأساليب وخطوط الموضة سواء في الملابس أو السلوك . ففي فترة من تاريخ مجتمعنا كانت الفتاة التي ظلت ملازمة بيت أبويها فلم يرها انسان هي الفتاة الجذابة التي يرغبها الرجال حتى دون أن يروها ، وجاءت فترة أخرى كانت الفتاة التي خرجت على تقاليد الأسرة والمجتمع سواء في زيها أو في تصرفاتها هي الفتاة العصرية الجذابة في نظر الرجل ، ودار الزمن لتعود الفتاة المحتشمة الخجول هي الفتاة التي يبحث عنها الفتى الراغب في الزواج . . منذ سنوات قليلة كانت الفتاة الممتلئة الجسم هي الفتاة الجذابة في نظر الرجل ، ولذلك كان معظم الفتيات والنساء في المجتمع يبحثن عن مواد السمينة والجمال عند العطار وغيره ، أما الآن وقد أصبحت الفتاة النحيفة الرشيقة هي الفتاة الجذابة فقد اتجه الكثيرون الى البحث عن مواد التخسيس واتباع أنواع معينة من «رجيم» الأكل للمحافظة على الرشاقة التي يعشقها الرجل والتي تعتبر موضوعة العصر الحديث . ومنذ فترة كانت جاذبية الرجل تعني أن يكون الرجل فظاً غليظاً قوياً مفتولاً الشوارب والعضلات ، ولذلك كان الشباب جميعاً يحاولون اكتساب مثل هذه الصفات وأن يكون كلا منهم صاحب أطول شارب «يقف عليه الصقر» ، أما الآن فقد تغير مفهوم جاذبية الرجل ليصبح الانسان الرقيق المذهب الناجح . . وهذا هو ما يحاول كل شاب أن يحققه في نفسه حتى يصبح موضوع حب من فتاة . وإذا تأملنا موضوعة الجاذبية هذه في الرجال والنساء سنجد أنها تعني ببساطة خضوعها للمعيار الذي تخضع له السلع ذات المواصفات الانتاجية المتميزة ، والتي تجعلها تحظى بثقة المستهلك الذي يسعى بدوره الى الحصول على أجود السلع بأرخص الأسعار . ولنتصور معاً الأفكار التي تدور بذهن أحد الشباب وهو يخطط خطواته الأولى على طريق الحب : انني أريد فتاة تتوفر فيها شروط الموضة السائدة في

المجتمع ، ويجب أن تكون لديها رغبة مماثلة في أن أكون أنا موضوع الحب الذي ترغب هي فيه ، لأن هذا يعني أنها مقتنعة بصفاتي الشخصية ، وأنها معجبة بهذه الصفات . والأفكار التي تدور بذهن الشاب تدور أيضا بذهن الفتاة فهي تريد شابا تتوفر فيه آخر خطوط الموضة على أن تكون لديه الرغبة في أن تكون هي موضوع حبه ، أي اقتناعه بصفاتها واعجابه بها . ان بإمكان كل فتى وفتاة أو رجل وامرأة ، أن يحب كلا منهما الآخر اذا وجد لدى كل منهما الشعور بأنه وجد أنسب الموضوعات في سوق العرض ، والذي يمكن الحصول عليه بأسهل الشروط ، أي الحصول على بضاعة جيدة بسعر مناسب . وليس هذا عجيبا ففي مجتمع بدأت تغطي فيه + أو طغت فيه بالفعل - أساليب المعاملة التجارية والمادية ، ليس من المستبعد أن تكون علاقات الحب بين الناس فيه قائمة على نفس الأسلوب التجاري والمادي الذي يسود المجتمع ، حتى أغاني الحب في هذا المجتمع أصبحت صفقات تجارية «يجبك لا ، محتاج لك آه . . بقلبي لا ، بعقلي آه ، مش حتنازل عنك أبداً مهما يكون . . . الخ » .

ما هو الفرق بين الوقوع في الحب وبين الحياة في الحب ؟ ذلك هو المحور الثالث في منطق هؤلاء الغالبية التي تعتقد بعدم وجود مايجب أن يتعلمه الانسان عن الحب ، فهؤلاء الناس لا يستطيعون التمييز بين الخبرات الأولية في الحب وبين الحياة الحقيقية في الحب ، أي التمييز بين قولنا «فلان طيب . وقع » في الحب ، وفلان يعيش في الحب « (Being in Love) & (Falling in Love) . عندما يلتقى شاب وفتاة أو رجل وامرأة لأول مرة دون سابق معرفة أو موعد كما قد يحدث لكثيرين منا مثل هذا الموقف - ويشعر كل منهما بأن الحواجز التي تقف حائلا بينهما قد تحطمت ، ويشعر كل منهما بانجذاب نحو الآخر ، ويحس كل منهما بأنه خلق للآخر . . هذه اللحظة تعتبر على المستوى الشعوري النفسي لحظة توحيد ، انها لحظة من أسعد اللحظات ، انها أكبر حدث في حياة كل منهما . ان معنى هذه اللحظة يقترب من أن يكون معجزة يصعب تصديقها ، وخصوصا بالنسبة للانسان الذي عاش حتى هذه اللحظة وحيدا معزولا محروما من الحب . هذه

اللحظة المعجزة والتي تعطي الانسان شعورا بالأمان والثقة انما تتأثر غالبا بالمشاعر النفسية الطاغية وبالرغبات الجنسية التي تصاحبها وترتبط بها ، أو حتى قد تكون هي المثير الأساسي فيها . هذا النوع من الحب المفاجيء والذي نطلق عليه « الحب من أول نظرة » لن يكتب له الاستمرار والنجاح ، فبمرور الوقت ستزداد معرفة كل من هذين الشخصين بالآخر، وبازدياد هذه المعرفة ، والوصول الى درجة من الاطمئنان والسيطرة على النفس ستخف حدة الدهشة الأولى والإعجاب الشديد المفاجيء بالصفات الشخصية التي بدت للوهلة الأولى فريدة في نوعها ، وبانخفاض حدة الإعجاب والدهشة ستصبح هذه الصفات موضوعا للمناقشة ولن تكون النتيجة غير خيبة للأمل ، واكتشاف أن هذا الشخص لا يختلف عن غيره ، وستكون الصدمة والعناد هي الأثر الباقي نتيجة لهذه الخبرة . . خبرة الحب من أول نظرة .

واذا حاولنا أن نتمعن قليلا في حقيقة مشاعر كل من هذين الشخصين نحو الآخر فاننا سنجد أن كلا منهما في البداية لم يكن على بينة بمشاعره الحقيقية ولا بحقيقة هذه المشاعر ، سنجد أن الدور الذي يقوم به كل منهما تجاه الآخر محاولا التلطف واطهار الحب والشوق الزائد بهدف التدليل على مدى الحب الذي يكنه كل منهما للآخر ، ماهو الا دليل على درجة المعاناة من الوحدة القاتلة والحرمان الذي كان يعيشه أحدهما أو كلاهما .

انه من الصعب على الغالبية من أبناء المجتمع الذي يعتقدون بأن الحب هو أسهل وأيسر شيء في الحياة ، وأنه لا يوجد ما يجب أن يتعلمه الانسان عن الحب ، من الصعب على هؤلاء الغالبية أن يغيروا هذا الاعتقاد الخاطيء حتى ولو ظهر لهم جليا عكس ما يعتقدون . ولننظر مثلا في حياتنا اليومية في المجتمع ، ان الانسان اذا تعثر في اتمام عمل ما ، لا يستريح حتى يبحث عن الأسباب والعلل التي عرقلت عمله وعطلته عن الوصول الى الهدف ، حتى يستطيع أن يتعلم منها في المستقبل وليصلح من الأخطاء التي حدثت . واذا لم يكن الانسان قادرا على مناقشة

سلوكه والأسباب التي عرقلته عن الوصول إلى الهدف فإنه يطوي صفحة الفشل هذه ولا يعود إليها مرة أخرى . إذا أردنا أن نطبق هذا السلوك الانساني على الحب فسنجد أن الحب هو من أهم الأنشطة في حياة كل منا ، يبدأ الانسان بحماس عظيم وهو مملوء بالأمل والرجاء . . وقد تنتهي محاولة الحب هذه إلى الفشل وخيبة الأمل . . ولكن الانسان لا يستطيع أن يطوى صفحة الفشل في حبه الأول ، وأن يصرف النظر عن العودة للمحاولة من جديد ، إذا كان ذلك كذلك فليس أمام الانسان الا أن يبحث عن الأسباب التي أدت إلى الفشل الأول في تجربة حبه السابق ، حتى يتمكن من تفادي هذه الأسباب عند معاودة الكرة من جديد ، وعلى الانسان أيضاً أن يحاول معرفة الحب معرفة صحيحة . والخطوة الأولى على هذا الطريق هي معرفة أن الحب ماهو الا علم أو فن وأن الانسان إذا أراد أن يتعلم علم الحب أو فن الحب فعليه أن يتبع الطريق الذي يتحتم عليه أن يسلكه إذا أراد أن يتعلم علماً أو فناً من الفنون . على هذا الانسان أن يعرف أن الحب ليس احساساً عابراً ، وإنما هو فن معقد مثل الطب أو الجراحة أو العلوم أو التدريس أو الكتابة الأدبية . . ان الحب فن يحتاج إلى المعرفة والجهد والاخلاص . . ان الحب وظيفة انسانية وفن معقد كالحياة سواء بسواء . وإذا ما أراد الانسان أن يتعلم فناً من الفنون أو العلوم التي أشرنا إليها فعليه أن يتبع الأسلوب العلمي للتعلم . ان المدخل إلى تعلم أي فن من الفنون ينقسم إلى شقين كما يوضح لنا ذلك علماء التعلم الانساني وأصحاب نظريات التعلم :

١ - الجانب المعرفي النظري .

٢ - الجانب العلمي التطبيقي والممارسة .

فإذا أراد انسان ما أن يكون طبيباً على سبيل المثال فإن عليه أولاً أن يلم الماما نظرياً بالحقائق الطبية الخاصة بجسم الانسان ، وبأنواع الأمراض المختلفة وبأنواع العقاقير الطبية .

وبهذه المعرفة النظرية وحدها لن يستطيع هذا الانسان أن يكون طبيبا ، أو أن يكون في الوضع الذي يمكنه من ممارسة مهنة الطب والعلاج ، اذن فعلى هذا الانسان أن يدخل الى ميدان الممارسة والتدريب العملي العيادي لفترة من الزمن تسمح له باكتساب الخبرة اللازمة للتمكن من استخدام علمه النظري وخبرته العملية ليكمل كلا منهما الآخر. ولينصهرا سويا فيعطيا له امكانية ممارسة عملية الفحص الطبي والعلاج وما ينطبق على الطبيب ينطبق على المدرس ، فالانسان الذي يود أن يكون مدرسا يلم الماما نظريا ببيكولوجية الطفولة والنمو الجسمي والعقلي والعاطفي والانفعالي ليعرف طبيعة التلاميذ الذين سيقوم بالتدريس لهم ، ثم يلم الماما نظريا بالقدرات العقلية وعلاقتها بعملية التعلم وبالذكاء الانساني وأثره في التعلم ، ثم يلم الماما نظريا أيضا بنظريات التعلم المختلفة . . ثم يذهب بعد ذلك بهذه الحصيلة النظرية الى المدرسة ، أي الى ميدان الممارسة والتدريب العملي تحت اشراف أساتذته ، وبالتالي تذوب وتنصهر الخبرة العملية مع المعرفة النظرية فيعطيا له امكانية ممارسة عملية التدريس ، وتوصيل المادة العلمية الى أذهان التلاميذ بالطريقة التربوية السليمة ، وبالصورة العلمية الصحيحة . . وما ينطبق على الطبيب والمدرس ينطبق على جميع المهن والفنون الأخرى بلا استثناء .

والى جانب هذين العاملين الهامين في تعلم أي فن من الفنون ، هناك عامل ثالث له نفس الدرجة من الأهمية ، بل هو الذي يجعل الانسان خبيرا في الفن أو العلم الذي يتعلمه ، هذا العامل هو عامل الرغبة القوية والاهتمام البالغ نحو تعلم هذا الفن والنبوغ فيه ، وهذا ما نطلق عليه في علم النفس الميل النفسي الى هذا الفن أكثر من الميل والاهتمام بأي شيء آخر ، بدرجة نتصور معها أن هذا الفن قد أصبح هو أهم شيء في حياة هذا الانسان . وهذا ينطبق على الطب وعلى التدريس وعلى الهندسة كما ينطبق على الموسيقى وأيضا على الحب .

ان انسان مجتمعا الحديث لا يحاول أن يتعلم فن الحب أو أن يتعلم الحب كفن الا نادرا رغم أنه غالبا ما يعاني من الفشل في الحب . فرغم الشوق المتغلغل في

النفس البشرية بحثا عن الحب ، فإن انسان المجتمع المعاصر يعتبر الفنون الأخرى والأشياء الأخرى مثل النجاح والمكانة الاجتماعية والثروة والغنى والجاه والقوة والسلطان أهم من الحب .

ان الانسان في مجتمعتنا المعاصر مستعد لبذل المال والعرق والجهد لتعلم الطب أو العلوم أو الرسم أو الهندسة أو التدريس وغيرها من الفنون والعلوم الأخرى ، ولكنه لا يحاول أن يتعلم فن الحب ، والسبب في ذلك أن الفنون والعلوم المختلفة في مجتمعتنا المعاصر لها عائد مادي مجز ، يمكن الانسان من الوصول الى أهدافه المتمثلة في النجاح والجاه والثروة والمكانة الاجتماعية أما الحب فانه لايدر الا عائدا روحيا يغذي النفس والروح ، وليست الروح والنفس في حضارة طغت عليها المادة من الأهمية بمكان مثل الصناعة أو التقدم المادي وتحقيق الرفاهية المادية .

واذا كنا نعتقد أن الحب مثل غيره من الفنون والعلوم وأن تعلم أي فن من الفنون يعتمد على ركيزتين أساسيتين هما المعرفة النظرية ثم التطبيق العملي فاننا سنحاول أيضا في الفصول القادمة أن نعرض لموضوع هذا الكتاب وفق هذا الاطار العلمي .

الفصل الثاني

الحب ومشكلة الوجود الانساني (نظرية في الحب)

ان أي نظرية في الحب لابد أن تبدأ بالانسان ، بنظرية عن الانسان ، وبنظرية عن الوجود الانساني كله . ان أقصى ماتوصل اليه الباحثون في مجال الحب عند الحيوان ، أو في مجال مايعادل ظاهرة الحب الانسانية عند الحيوان ، لم يكن أكثر من الكشف عن الغرائز الفطرية ، والتي يمكن أن نلاحظ آثارها الباقية لدى الانسان . وإذا ركزنا على الوجود الانساني بصفة خاصة سنجد أن الانسان قد تسامى بغرائزه الفطرية عن المستوى الحيواني . في المستوى الحيواني يحاول الحيوان - أي حيوان - أن يقيم قدرا من التكيف أو المواءمة مع البيئة التي يعيش فيها ، أما الانسان فانه يحاول جاهدا أن يسيطر على البيئة وأن يتحكم فيها ، كما لو كان سيعيش فيها أبد الدهر ، وما مظاهر غزو الانسان للفضاء والصحراء وأعماق المحيطات وباطن الأرض الا دليلا واضحا على محاولة الانسان التخلص من الخضوع للطبيعة والبيئة ومحاولة السيطرة عليها .

ورغم كل محاولات الانسان في السيطرة على الطبيعة وغزوها في شتى المجالات الا أننا لانستطيع أن ننكر أن الانسان في حد ذاته ان هو الا جزء من الطبيعة ، جزء من الأرض ، جزء من الكائنات الحية ، ورغم ذلك فهو ليس طبيعة وليس أرضا وليس حيوانا ، وانما هو كائن جديد فيه حنينه الى الأرض التي خلق منها وفيه حنينه الى الجنة التي نشأ فيها ثم طرد منها . وما على الانسان ازاء موقفه الخاص الا أن يستمر في سعيه في الحياة مستخدما حكمة العقل التي منحه الله اياها في محاولة تحقيق عالم انساني متناسق ، بدلا من عالم الملائكة الذي عاش فيه يوم بدأ حياته الأولى في الجنة . واذا كان الانسان يعرف حقيقة ما ، فلا شك أنه حياة تعرف أنها حياة ، انه يعي ذاته ويعي الآخرين ، انه يعي الماضي كما يعي احتمالات المستقبل . يعي الانسان أنه كائن حي وأنه منفصل عن حياة الكون ، وكذلك عن حياة الكائنات الأخرى في الكون . وقدرة الانسان هذه على المعرفة وعلى الادراك والوعي

هي التي تميزه عن غيره من الكائنات الأخرى التي تشاركه الحياة في هذا الكون . ان هذا الانسان يعرف ويعي تماما أن عمره قصير على الأرض بالنسبة للزمن . انه يعرف أنه ولد وجاء الى الحياة بغير ارادته ، وأنه سيموت ويذهب عنها دون رغبة منه أو استئذان . سيموت الانسان تاركا أحباءه ، وأمام أعينهم فلا يستطيعون له شيئا ، ويعرف الانسان أن أحباءه سيموتون أمام عينيه فلا يستطيع لهم شيئا . ان أحباءه سيموتون تاركينه وحيدا يعاني من العزلة والاغتراب ، الذي يبعده عن الآخرين وعن الكون ، ويجعله يقف مكتوف الأيدي أمام قوى الطبيعة القاهرة ، وأمام قوى المجتمع كله . هذه الحقائق كلها ، ومعرفة الانسان لهذه الحقائق وإدراكه إياها تجعله يشعر بالغربة ازاء قوى الطبيعة وازاء المجتمع والدولة ، هذه المعرفة تجعل وجوده سجنًا لا يطاق ، وقد يصاب الانسان بالجنون اذا لم يستطع أن يتحرر من هذا السجن ، ويخرج الى البشر من أبناء المجتمع يرتبط بهم . ان تجربة الغربة والانفصال توقظ القلق في الانسان ، بل انها مصدر كل أنواع القلق الانساني ، فاحساس الانسان بالغربة والانفصال يعني في نفس الوقت الشعور بأنه مقطوع وبأنه غير قادر على ممارسة قدراته كإنسان .

أن يكون الانسان غريبا ومنفصلا ومقطوعا عن الآخرين ، يعني كما قلنا أن يكون هذا الانسان عاجزا غير قادر على الامساك بالعالم ، وغير قادر على الامساك بالأشياء أو بالناس ، وغير قادر على ممارسة نشاطه الانساني ، وهذا يعني من ناحية أخرى مقدار قوة الكون . . . يعني أن العالم يستطيع أن يبتلعه ويغزوه دون أن تكون لدى هذا الانسان القدرة على الدفاع عن نفسه ، وهذا في حد ذاته يؤدي الى الاحساس بالانكسار والعجز . وهذه المشاعر كلها تولد في الانسان الشعور بالذنب والشعور بالخجل والعار . ولقد حدثتنا الكتب السماوية جميعا عن أول خبرة للاحساس بالذنب والعار في حياة الانسان ، وذلك عندما حدثتنا عن قصة آدم أبو البشر عليه السلام ، قصة خلقه وخلق زوجه واسكانها الجنة ثم طردهما بعد أن عصيا ربهما وأكلا من الشجرة المحرمة . فقد وسوس لهما الشيطان وأغواهما بأن يأكلا من الشجرة المحرمة ، فعصى آدم وحواء وأكلا من الشجرة وأحس آدم

بالذنب والندم والخجل أمام ربه ، حيث بدت لهما سوءاتهما فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما أن اهبطا منها .

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) فوسوس لهما الشيطان ليؤدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٢٠) فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢١) قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴿ ٢٤ ﴾ [الأعراف: ١٩ - ٢٤] .

لقد كان عصيان آدم لربه وأكله وزوجه من الشجرة المحرمة نقطة تحول في حياتهما ، فقد هبطا من الجنة ومن عالم الملائكة الى عالم الأرض ، وفقدوا بذلك التناسق الملائكي الذي خبراه في الجنة ، والذي كانا قد توحدوا فيه مع قوى الكون ، ولم يشعرا فيه بالغرابة والعزلة أو الانفصال ، والذي بدأ يحسبانه بعد هبوطهما الى عالم الأرض . ان خروج آدم وحواء من الجنة يعتبر في حد ذاته لحظة ولادة جديدة لهما في عالم البشر ، بدأ يدركان أنها عراة ، فظهر عليهما الشعور بالخجل ، وحاول كل منهما أن يستر نفسه ببعض أوراق أشجار الجنة .

ولقد حاول الكثير من المفسرين في عصرنا الحديث أن يجدوا تفسيراً عصرياً لهذه الواقعة فرأوا أن الخجل الذي اعتري آدم وحواء لم يكن الا نتيجة لأن أعضاءهما التناسلية قد ظهرت مكشوفة أمام كل منهما فخجلا من ذلك . والحقيقة أن مثل هذا التفسير يغفل نقطة هامة نوضحها كما يلي : لقد أدرك آدم أنه رجل وأحس برجولته ، وأدركت حواء أنها أنثى وأحست بأنوثتها وأدرك كل منهما أن متميز عن الآخر ، وبالتالي فهو منفصل عن الآخر ، لقد أدركا أنها من جنسين مختلفين ، وأدركا الصفات المميزة لكل منهما ، هذا الإدراك أدى إلى شعور كل منهما بالغرابة والعزلة ، لقد بقيا غرباء عن بعضهما لأنها لم يكونا قد تعلما بعد أن يجب كل منهما

الأخر حتى يتمكننا من التوحد من جديد ، وهذا ما يوضحه لنا موقف آدم الذي تحكيه الكتب السماوية الأخرى غير القرآن فهي تصور لنا أن آدم قد بدأ يدافع عن نفسه ، ويلقى بالذنب كله على حواء ، وأنها هي التي ألحت عليه بالأكل من الشجرة ، بدلا من أن يدافع عنها هي أيضا . الاحساس بالانفصال والغربة بين أفراد الانسان ، وعدم وجود الحب الذي يعيد التناسق والتوحد من جديد هو مصدر الاحساس بالخجل والاحساس بالذنب والاحساس بالخوف والقلق .

اذن فمن المهم جدا للانسان أن يتمكن من الارتفاع فوق صفاته المميزة ، وأن يستطيع الخروج من قفص عزلته ، واذا فشل الانسان في بلوغ هذا الهدف فانه سيصاب بالجنون . والجنون هو الطريقة التي يهرب بها الانسان من الخوف والرعب من ذلك العالم الذي انفصل عنه والذي فقد رؤيته له . وبالجنون ينسحب الانسان من عالم الواقع الى عالم خيالي مصطنع لا وجود له في الواقع ، ويعيش هذا الانسان في أوهامه بعيدا عن الواقع بلا مخاوف . ان العالم الحقيقي يختفى في نظر الشخص المجنون ، انه يهرب من العالم الذي شعر فيه بالوحدة والعزلة الى عالم من صنع خياله وأوهامه ، أي أنه يهرب من الخوف والهلع الذي يحس به في عالم الواقع .

كيف يستطيع الانسان أن يتغلب على الاحساس بالعزلة والغربة والانفصال والاحساس بأنه مقطوع ؟ كيف يستطيع الانسان أن يتسامى على فرديته ويتوحد مع الآخرين ؟

ان هذا السؤال قديم قدم الانسان فقد ولد مع الانسان ذاته ، وما زال يطرح نفسه حتى يومنا هذا ، وما زال الانسان يحاول جاهدا أن يجد الاجابة الصحيحة على هذا السؤال . هذا السؤال نفسه هو نفس السؤال الذي طرح نفسه منذ القدم على الانسان البدائي من ساكني الأكواخ ، وعلى الرعاة في مجتمعات الرعي وعلى الفلاح المصري القديم والحديث ، وعلى الجندي في الميدان وعلى التاجر وكذلك على الموظف القابع خلف مكتبه ، أو العامل في مصنعه ، كذلك على الانسان المتحضر ، انسان العصر الحديث في المجتمع الصناعي في جميع أنحاء العالم . لقد بقي هذا السؤال هو نفس السؤال عبر الزمن وآلاف السنين ، لأنه سؤال نابع من

منبع واحد ، وهو وضع الانسان وشروط بقائه كائنات " أما الاجابة على هذا السؤال فقد تنوعت واختلفت ، وتعددت صورها وأشكالها . فقد جاءت الاجابة تارة من خلال عبادة الحيوان ، وتارة من خلال عبادة الشمس أو عبادة الأنهار ، وتارة أخرى من خلال الحروب والدمار والقهر والاحتلال والاستعمار ، وتارة عن طريق حياة الترف والرفاهية في القصور ، وتارة عن طريق الزهد في الحياة والبعد عنها سواء بالرهبة أو بالتصوف ، وتارة عن طريق العمل الذي يقوم به الانسان ، أو عن طريق الفن أو عن طريق العمل الجسماني الشاق أو عن طريق الحب الالهى أو حب الناس " . وبالرغم من تعدد صور وأشكال الاجابات على السؤال الذي طرح نفسه منذ القدم ، فان مراجعة دقيقة لهذه الاجابات التي توضح لنا تاريخ الانسان ، توضح أنه ليس من الصعب جمعها وحصرها . الأكثر من ذلك أننا اذا تغاضينا عن بعض الفروق الطفيفة بين تلك الاجابات والتي لاتمس جوهر الاجابة ، فانه سيتأكد لنا أن عدد الاجابات التي أمكن الحصول عليها عن السؤال السابق هي في جوهرها عدد محدود جدا ، وسنجد أيضا أن الاجابات المختلفة التي تصدر عن أفراد مختلفين في مجتمعات مختلفة على نفس السؤال عددا محدودا جداً . وما قصة الأديان في المجتمع الانساني ، وما الفلسفات الانسانية التي ظهرت على مر العصور ، الا سلسلة من الاجابات على نفس السؤال ، وما تكرار الأديان والفلسفات الا دليلاً على أن الاجابات الممكنة على هذا السؤال ان هي الا اجابات محدودة .

في بعض الحالات ترتبط الاجابة على السؤال السابق بدرجة التفرد التي يكون انسان ماقد بلغها في نموه . ففي حالة الطفل مثلاً تكون ذاته الخاصة " الأنأ " كما يطلق عليها في علم النفس غير ناضجة ، فكل طفل يشعر بأنه متوحد مع أمه ولا يوجد لديه أي احساس أو شعور بأنه منفصل عنها ، طالما كانت الأم موجودة معه أو بجواره . ان شعور الطفل بالوحدة والعزلة يضعف أو حتى قد يختفي تماماً أثناء وجود الأم الفيزيقي أو الفعلي مع طفلها ، ومن خلال عملية ارضاعها اياه ، ومن خلال مداعبتها له ، أو من خلال ملامستها لبشرته . ثم تأتي بعد ذلك مرحلة يكون قد نمت لدى الطفل فيها شعور بذاته المتميزة المتفردة ، وفي هذه المرحلة لم يعد يكفي الوجود الفيزيقي للام ليشعر هذا الطفل بأنه متوحد معها ، بل تظهر حاجته

الملحة في أن يتغلب على تفرد بطريقتة أخرى .

وبصورة قريبة الشبه للصورة التي عرضنا فيها لنمو الطفل وتوحده مع أمه ،
شعر الجنس البشري في مرحلة ما من مراحل طفولته البشرية بأنه متوحد مع
الطبيعة ، مع الأرض ، ومع الحيوان ، ومع النبات والتي كانت هي كل عالم
الانسان . وقد حاول الانسان في بدء حياته البشرية أن يتوحد مع الحيوان ، وقد
ظهر ذلك في رؤيته لنفسه على أنه حيوان يرتدي الملابس ، وفي اتخاذه لطوطم من
الحيوانات ، أو عبادته للحيوان . وكلما زاد تحرر الجنس البشري من هذا الارتباط
القديم ، كلما زاد انفصاله عن عالم الطبيعة ، وكلما زادت حاجته الملحة في البحث
عن امكانات جديدة تمكنه من الهرب من احساسه بالانفصال والعزلة والغربة ،
وأحد هذه الامكانات المتاحة للوصول الى هذا الهدف يكمن في أنواع التهويم
والهذات المختلفة في عالم من الخيال البعيد عن الواقع ، وبامكان الانسان
الوصول الى هذه الحالة باستخدام المخدرات والمسكرات التي تجعله يغيب عن وعيه
ويحلّق ويهيم في عالم الوهم والخيال .

ولقد حاولت الأديان البدائية أن تقدم حلاً لمشكلة غربة الانسان وعزلته في
المجتمعات البدائية وذلك عن طريق ممارسة أنواع من الطقوس الدينية التي تؤدي
الى الشعور بالأمن واختفاء كل أنواع الشعور بالانفصال والعزلة عن عالم الطبيعة
وعالم الواقع . ولقد أدت هذه الديانات البدائية عندما كانت منتشرة بين بني البشر
الى تحقيق خبرة التوحد بين أفراد المجموعة الواحدة ، بالدرجة التي جعلت هذا
الدين أو ذاك أكثر قوة بين جماعة معينة من جماعات المجتمع . ان التأثير الذي
انتجته الأديان البدائية في المجتمع البدائي ، غالباً ما ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالطقوس
الدينية التي تؤدي الى التحليق في عالم الوهم والخيال البعيد عن الواقع وهذه كلها
ارتبطت بدورها ارتباطاً وثيقاً بالخبرات الجنسية للفرد .

الأوهام والخيالات الجنسية بامكانها أن تصل بانسان ما الى مرحلة قريبة الشبه
بتلك الحالة التي تحدث للانسان نتيجة تعاطيه للمواد المخدرة والمسكرة ، أو
الحالات التي يغيب فيها الانسان عن وعيه . ان العامل المشترك بين الطقوس

الدينفة البدائفة وبين الأوهام والخيالات الجنسية ، هو أن الانسان يتحرر من المعانة ومن الصراعات الناتجة عن الشعور بالعزلة والانفصال ولفترة محددة من الزمن بعد أن يقوم بممارسة تلك الطقوس الدينية ، أو ممارسة الوهم أو الخيال الجنسي . وبعد فترة من الوقت يبدأ الخوف والتوتر في الظهور تدريجيا من جديد ، حتى يصل الانسان الى درجة يتحتم عليه فيها أن يذهب الى المعبد ليقوم بطقوسه الدينية ، أو يلجأ الى الانسحاب من عالم الواقع ليزوب فترة من الزمن في أوهامه وخيالاته الجنسية ليعيد التوازن الى نفسه من جديد .

ولما كان أداء الطقوس الدينية البدائية يعتبر أيضا فرصة لمناقشة شئون القبلة أو الجماعة الى جانب كونه أسلوبا للتغلب على الصراعات والقلق ، فان هذه المناسبة كانت تعطى كل فرد شعورا بالأمن والطمأنينة ، وتقضى على الخوف والقلق ، ولا تؤدي الى توليد أي شعور بالذنب . ان السلوك الجنسي الذي يقوم به ذلك الانسان المتعبد أثناء أدائه للطقوس الدينية البدائية انها هو سلوك معتاد ومقبول من الجميع ، بل انه يعتبر سلوكا محمودا يدل على الفضيلة ، وذلك لأن جميع أفراد القبلة قد اشتركوا في القيام بمثل هذا السلوك ، كما أن الحكماء ورجال الدين في القبلة قد أباحوا ذلك وسمحوا به ، بل وربما ذهبوا الى أكثر من ذلك وشجعوا على هذا السلوك - سلوك الممارسة الجنسية في المعابد - وطالبوا الأفراد بضرورة القيام به ، ولذلك فلا داعي للشعور بالقلق أو الشعور بالذنب أو الشعور بالخجل من جراء هذا السلوك . ولنا أن نتصور الآن كم سيكون رد فعل المجتمع مختلفا تماما اذا حاول انسان ما في مجتمعنا المعاصر والذي تخطى هذه المرحلة بمراحل عديدة ، أن يحل صراعاته ويتغلب على غربته باستخدام الأساليب البدائية المتمثلة في الطقوس الدينية البدائية أو الممارسات الجنسية المعبدية .

وفي المجتمعات التي تخطط مرحلة الطقوس الدينية البدائية في حل مشكلاتها وصراعاتها لجأ أفراد هذه المجتمعات الى أساليب أخرى مثل تناول المشروبات الكحولية والخمور وغيرها من أنواع المخدرات الأخرى ، ومن هنا بدأت ظاهرة الادمان بصورها المختلفة ، والتي بدأت تعاني منها بعض المجتمعات المتقدمة ،

وأيضاً مجتمعات العالم الثالث . والانسان الذي يخرج عن الطريقة التي يرسمها المجتمع في حل مشكلاته انسان لابد أن يعاني من الشعور بالذنب ومن تأنيب الضمير وبينما نجد أن أفراد المجتمع الذين يهربون من شعورهم بالعزلة والانفصال ويلجئون الى ادمان الخمر أو غيرها من أنواع المخدرات الأخرى ، بينما نجد أن مثل هؤلاء الأفراد قد فقدوا كل شيء حتى ذواتهم ، نجد أن الانسان البدائي الذي كان يمارس الطقوس الدينية البدائية ، كان يصبح أكثر قوة وصلابة بعد ممارسة طقوسه ، انه انسان تزداد معرفته بنفسه وبسماته المميزة ، كما أنه انسان لديه الرغبة في الحصول على المزيد من القوة والصلابة والمعرفة ، وهو يحقق ذلك من خلال تكراره وقيامه بأداء الطقوس الدينية الاجتماعية التي يقرها المجتمع . أما ممارسة السلوك الجنسي داخل المعبد فقد كان يعتبر حلاً جزئياً لمشكلة الغربة والشعور بالوحدة وطبيعياً ، وهذا السلوك الغريزي يعتبر حلاً جزئياً لمشكلة الغربة والشعور بالوحدة والانفصال . وفي تلك المجتمعات كان الأشخاص الذي لا يستطيعون التخلص من قلقهم ومن غريبتهم وعزلتهم عن طريق الطقوس الدينية يتجهون الى الإشباع الغريزي بدرجة تصل الى الادمان الذي نعرفه في ادمان أنواع المخدرات الذي تعاني منه المجتمعات المعاصرة . ان هذا النوع من الادمان قديماً أو حديثاً ، سواء ادمان الخمر أو المخدرات أو ادمان الجنس ، ان هو الا محاولة يائسة للتغلب على الاحساس بالعزلة والغربة والانفصال ، وعلى الخوف والقلق الذي يعاني منه الانسان ، وفي نفس الوقت فان هذا السلوك يؤدي إلى نتيجة عكسية ، انه يؤدي الى احساس متزايد بالوحدة والعزلة ، حيث أنه بغير حب لن يستطيع الاتصال الغريزي بين شخصين أن يؤدي الى التغلب على الهوة القائمة بينهما ، واذا قدر للفعل الجنسي أن يتغلب على الهوة والانفصال بين هذين الشخصين ، فان هذا لن يتم في أحسن الحالات الا لمدة لحظات قليلة تنتهي بانتهاء تلك الممارسة . وتتميز جميع أشكال التوحيد الناتجة عن ممارسة الطقوس الدينية بعلامات ثلاث مميزة هي : - انها قوية - انها مركزة - انها تؤثر على كل أبعاد الشخصية الانسانية ، أي أن تأثيرها يمتد من حيز الجسد الى مجال الروح ، كما أنها تصبح سلوكاً يتكرر بصورة منتظمة ، لأن تأثيرها ينتهي بعد فترة وجيزة من الزمن .

ومن أشكال التوحيد الأخرى التي تقوم على التعاون البشري والتي مارسها الانسان قديما وما زال يمارسها في وقتنا الحاضر بهدف حل المشكلات التي يواجهها ، التوحيدات أو الاتحادات التي تعتمد أساسا على التكيف مع المجموعة التي يعيش الانسان في وسطها ، وكذلك التكيف مع متطلبات هذه المجموعة ومع عاداتها وأفكارها ، وبالتالي فإن هذا النوع من التوافق يؤدي الى اتحاد في الفكر وفي الأهداف وفي المطالب والرغبات . هذا مع العلم بأن التوحيد الذي يقوم أساسا على التكيف لا يتم دون أن يترك بصماته السيئة التي تصيب عملية نمو الفرد في هذا المجتمع .

كان الأساس الذي يتم على أساسه تكوين الجماعة في المجتمع البدائي هو عنصر القرابة والدم ، ولذلك فقد كانت الجماعة عبارة عن جماعة صغيرة تتكون من عدد قليل من الأفراد ، وغالبا ماكانت عبارة عن أسرة واحدة . وبمرور الزمن وظهور حاجات جديدة لأفراد الجماعة ، وتشابك حاجات هذه الجماعة مع حاجات الجماعات الأخرى بدأت تظهر الجماعة الأكبر وتقوم أساسا على علاقات الحوار والمصالح المشتركة . وتدرجيا بدأت تظهر أنواع جديدة من الجماعات حيث ظهرت العشيرة والقبيلة ثم الجماعات التي تقوم على أساس الجنسية والمواطنة في الدولة ثم ظهرت القوميات . لقد كان أفقر أبناء روما يفخر بقوميته حيث كان بإمكانه القول بأن روما وأهل روما هم أهله ووطنه وعالمه . وفي العصر الحاضر نجد أن دول المجتمع الأوروبي ترى أن اتحادها وتجميعها في كتلة واحدة هو السبيل الى التغلب على العزلة والانفصال الذي عانت منه هذه الدول ، ولعل الدول العربية قد بدأت تسلك هذا السبيل بصورة أو بأخرى .

ان الاتحاد الذي ينشأ داخل المجتمع أو بين دولة وأخرى أو مجتمع وآخر، اتحاد يجعل كل فرد من أبناء هذا المجتمع أو أبناء الدول والمجتمعات الأخرى يشعر بالانتماء الى السواد الأعظم من المجتمع الكبير . والهدف من هذا التجمع أو الاتحاد هو لم الشمل ، وهذا بدوره ينمى في الفرد من جديد الشعور بالانتماء الى المجتمع ، فاذا نظر انسان ما أو أي فرد ما في المجتمع الى نفسه وإلى غيره من أفراد المجتمع ووجد أنه مثلهم تماما ، ووجد أن أفكاره ومشاعره تتفق مع أفكار ومشاعر الآخرين ، ووجد أن حاجاته وتصورات ، وحتى الزي الذي يرتديه تتفق مع القدوة التي اختارتها

الجماعة ، فانه يشعر بأنه وصل الى شاطئ النجاة ، وأنه تم انقاذه من المرور بخبرة الغربة والوحدة والانفصال .

تعتمد بعض النظم السياسية على القمع والارهاب في سبيل تحقيق التوحيد المطلوب . في حين تلجأ بعض النظم الأخرى الى تحقيق الوحدة الوطنية عن طريق الدعاية والاعلام . وعلى الرغم من ذلك فانه يوجد اختلاف كبير بين هذه النظم ، ففي بعضها يكون من السهل على أفراد المجتمع اعادة النظر في الوحدة الوطنية القائمة ، أو اعادة تقييمها واعادة صياغة أسسها ، وهذا هو ما يحدث فعلا في هذه المجتمعات بين الحين والآخر . أما في النوع الآخر فان ما يحدث هو على العكس من ذلك ، فلا بد أن يضع أفراد المجتمع في حساباتهم أن مناقشة مثل هذه الأمور ، أي مناقشة قواعد وأسس الوحدة والنظام ، غير مسموح بها ، فالنظام لايسمح بمثل هذه الأمور .

ورغم وجود هذا الاختلاف الواضح الا أننا نلاحظ أيضا أن المجتمعات الغربية دائما ماتكون في خوف وقلق على الوحدة الوطنية القائمة ، فهناك الخوف من تراخي انسان المجتمع الغربي بشكل أو بآخر عن الاستمرار في الدعوة الى الوحدة الوطنية . واذا تراخى انسان ذلك المجتمع في قيامه بواجب الدعوة والمحافظة على الوحدة الوطنية ، فمعنى هذا أن هذا الانسان يمهّد الطريق الى قيام نوع آخر من الوحدة وهي ما يطلق عليها وحدة القطيع ، وهذا الشكل من أشكال الوحدة سيكون هو الشكل الممكن الوحيد ، وهذا النوع من أشكال الوحدة يفتح الباب لقائد القطيع وهو الدكتاتور (هتلر على سبيل المثال) . هذا بالاضافة الى خوف انسان المجتمع الغربي من أن يصبح شيئا آخر في المجتمع اذا انفصلت عرى الوحدة وانفصل عن الجماعة التي ينتمى اليها ، هذا الخوف بامكاننا فهمه فقط اذا استطعنا فهم الأهمية الكبرى لتجنب الانسان الشعور بالغربة والانعزال فيها عميقا . أحيانا مايكون الخوف من أن يصبح الانسان مختلفا عن الآخرين من أبناء

المجتمع خوفاً حقيقياً ، أي خوف من خطر حقيقي على المستوى الفكري ، خطر يهدد الأفراد الذين يخرجون على نظام المجتمع . والحقيقة أن الإنسان بطبعه كائن اجتماعي ، فهو يميل بطبيعته إلى التوحد مع الآخرين دون أن يدفعه أحد إلى هذا التوحد ، ، وهذا ما نلاحظه في كل المجتمعات سواء منها الشرقية أو الغربية المتقدمة أو المتخلفة .

وللحقيقة فإن معظم الناس في المجتمع ليسوا على نفس الدرجة من الوعي بحاجتهم إلى التوحد مع الآخرين من أبناء المجتمع ، انهم يعيشون في وهم أن تصرفاتهم وسلوكهم إنما تنبع من داخلهم هم ، ومن تصوراتهم ومن ميولهم وهذه تجعل كلا منهم متميزاً عن غيره من أبناء مجتمعه ، فلكل منهم أفكاره الخاصة التي تميزه ، ويعتقد كل منهم أن تصوراتهم هي أحسن التصورات وأفضلها والدليل على ذلك أنها تكاد تتفق تماماً مع تصورات وأفكار الغالبية من أبناء المجتمع . وما التطابق الذي يراه أصحاب هذه الآراء في تصوراتهم وأفكارهم إلا دليلاً من وجهة نظرهم على أن تصوراتهم وآرائهم هي التصورات والآراء الصحيحة . ومن ناحية أخرى تبقى هناك حاجة هؤلاء الأفراد - أي أبناء المجتمع - إلى إيجاد مجموعة من المميزات والفروق الفردية والشخصية ، وهنا يأتي إشباع هذه الحاجة عن طريق مجموعة من الأشياء الصغيرة مثل نقش أو طبع الحرف الأول من اسم الشخص على حقيبته أو على جيب قميصه ، أو باستخدام الكروت أو البطاقات أو اللافتات التي تطبع عليها الأسماء ، وكذلك عن طريق الاشتراك في حزب معين أو في أي اتحاد أو رابطة معينة . إن الهدف من هذا كله هو إظهار بعض المميزات الفردية التي يتمتع بها كل إنسان .. ومارغبة أي فرد في أن يكون متميزاً إلى حد ما عن الآخر إلا انعكاساً لوجود حاجة لدى كل فرد في المجتمع إلى التميز والتفرد داخل مجتمع لم يعد به ذلك الإنسان الذي يمكن أن يعيش لنفسه فقط .

إن الاتجاه المتزايد نحو استئصال كل الخلافات الموجودة بين أفراد المجتمع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفاهيم ومعاني المساواة التي ظهرت وانتشرت في العصر الحديث . المساواة في مفهوم الدين تعني أننا جميعاً كبشر متساوون أمام الله فهو الذي خلقنا جميعاً وجعلنا سواسية . الله لا ينظر إلى صورنا وأشكالنا وإنما ينظر إلى

قلوبنا ، والمعيار الذي يعاملنا به الله هو معيار الايمان الذي وقر في قلب كل منا
لافضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى " كلکم لأدم وأدم من تراب " .

ورغم وجود هذه المساواة أمام الله ، الا أن كل انسان منا هو نفس مستقلة ،
بل عالم بذاته ، رغم أننا جميعا خلقنا من نفس واحدة .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ
مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١]

فان لكل انسان منا كيانه الخاص والمستقل ، كل انسان عبارة عن عالم كامل
ومن قتل انسانا أو نفسا واحدة فكأنها قتل الناس جميعا ، ومن أحيائها فكأنها أحياء
الناس جميعا .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي
الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢]

تلك هي فكرة المساواة الدينية ، وتلك هي قيمة الانسان وقيمة النفس
الواحدة والاهتمام بكيانها المستقل من وجهة النظر الدينية . ولقد ناقش الفلاسفة
أيضا فكرة المساواة بين البشر فيقول كانت " . ان الانسان لايمكن أن يكون أداة أو
وسيلة لغرض آخر ، ذلك أن بني الانسان جميعا سواسية ، وأن الانسانية هي هدف
في ذاتها ، ولايمكن أن يكون الانسان أداة أو وسيلة لشيء آخر على الاطلاق " ،
هذا وينهج نفس النهج الفلاسفة الاشتراكيون على اختلاف مذاهبهم ، وذلك عن
طريق محاولة القضاء على استغلال الانسان لأخيه الانسان بهدف تحقيق أكبر قدر
من المصالح الشخصية .

لقد تغير مفهوم المساواة في ظل المجتمع العصري الصناعي وفي ظل سيادة
السيطرة الرأسمالية على المجتمع . لقد أصبح مفهوم المساواة عند الرأسمالي يعني
تساوى الآلات ، أي أن الانسان قد فقد الفروق الفردية ، وهذا يعني أن المميزات
الخاصة والفروق الفردية قد اختفت بين بني الانسان . المساواة تعني في الوقت
الحاضر اقامة التناسق والتماثل بين الناس وليس اقامة الوحدة بينهم . المساواة تعني

التناسق بين الصور المجردة للأفراد الذين سيقومون بنفس العمل أو بالأعمال المتشابهة ، والذين يرغبون في الحصول على نفس الأجر أو العائد من العمل ، والذين يقرءون نفس الصحف ، ولديهم نفس المشاعر والميول ونفس الأفكار . وهنا يجب على الانسان أن ينظر بعين الحذر الى بعض النتائج التي ألفها الناس على أنها علامة مميزة على التقدم الذي حققه هذا النظام ، ولناخذ على سبيل المثال وضع المرأة في المجتمع الغربي الذي يعتمد على مساواة المرأة بالرجل ، ولكن يجب أن نكون على حذر ، وألا نخدعنا المظهر الايجابي الكاذب للاتجاه نحو مساواة المرأة بالرجل لقد أصبحت المرأة مساوية للرجل في المجتمع الحديث لأن الفروق بينها وبين الرجل قد اختفت ، وهنا تم تطبيق المقولة الفلسفية التي تقول بأن " الروح والنفس لاتعرفان الجنس " . بصورة عامة لقد اختفت الفروق بين الجنسين ، ومع اختفاء الفروق بين الذكر والأنثى اختفى الحب بين الرجل والمرأة ، فهذا الحب بينهما يقوم أساسا على الاختلاف بينهما . لقد أصبح الرجال والنساء في المجتمع الحديث شيئا واحدا ، ولم يعد التساوى بينهما يقوم على أنها قطبين مختلفين . ان المجتمع الغربي الحديث يسعى الى تحقيق المساواة المثالية التي تقوم على عدم اظهار الفروق الفردية ، لأن هذا المجتمع يحتاج الى الطاقة الانسانية المحايدة التي لاتفرق بين انسان وآخر ، والتي تدفع أبناء المجتمع كله الى الانتاج دون عقبة أو صعوبة ، والى أن يتبع كل منهم نفس التعليمات ، وأن يجد كل فرد في هذه التعليمات دليلا على أنه يفعل ماتمليه عليه رغباته هو . وكما يحدث بالنسبة للانتاج السلعي عند المطالبة بوضع مواصفات انتاجيه خاصة ، فان المجتمع يطالب بوضع معيار للبشر وهو ما يطلق عليه معيار المساواة .

ان الاتحاد الذي يقوم بين أبناء المجتمع عن طريق التماثل والتناسق ، ليس اتحادا مركزا ولا قويا ، وانما هو هدوء نتج عن صب الانسان في قوالب سبق اعدادها ، مثل صناعة الأواني الفخارية أو غيرها من الصناعات التي أخذ صورا وقوالب معينة ، وتكون النتيجة أن هذا النوع من الاتحاد لا يصلح بل ولا يكفي لمساعدة الانسان على التغلب على الخوف والعزلة والانفصال . وما مظاهر الادمان

على الخمور وغيرها من المخدرات وارتفاع نسبة الانتحار الا دليل على فشل نظام التماثل هذا في المجتمع الأوربي الصناعي ، هذا اذا أخذنا في الاعتبار أيضا أن التوحد عن طريق التماثل لا يتعدى المستوى الفكري والنظري ، فهو لا يمس الجسم والروح والنفس ، ولذلك فغالبا ماتكون له آثار جانبية سلبية اذا ما قارناه بنوع التوحد الذي قام في المجتمعات البدائية عن طريق اقامة الطقوس الدينية .

ان التماثل في المجتمع الأوربي الغربي ، والذي يجمع بين أفراد المجتمع على هيئة قطيع ليس له الا ميزة واحدة وهي ميزة الاستمرار دون تراخ أو توتر ، فالفرد في المجتمع يبدأ عملية التماثل هذه ابتداء من سن الثالثة أو الرابعة ، ومنذ تلك البداية المبكرة لا يفقد الانسان اتصاله المستمر مع القطيع . واذا كانت عملية التماثل هذه هي الطريق المباح في المجتمع الغربي المعاصر للحد من حدة التوتر والقلق والخوف الناتج عن الانفصال والانعزال ، فانه يجب علينا أن نهتم بعامل آخر وهو طبيعة الحياة المعاصرة . يجب علينا أن نهتم بالأسلوب الروتيني للعمل والراحة . ان الانسان في كثير من مجالات الحياة الغربية العصرية الحديثة لم يعد أكثر من رقم ، ولذلك فانه لم يعد في حاجة الى مبادرات جديدة تنبع من ذاته ، حيث أن الادارة تملئ عليه واجباته . وفي وقتنا الحاضر لم يعد الفارق كبيرا بين من يقفون في أعلى درجات السلم الوظيفي وبين من لا يزالون يقفون على الأرض ، فالكل يؤدي واجباته التي يفرضها عليه نظام العمل ، وفقا للطريقة التي سبق تحديدها ووفقا لسرعة الانجاز التي يجب أن يتم العمل بمقتضاها والتي سبق تحديدها أيضا . حتى أن أحاسيس الفرد وانفعالاته أصبحت تصدر عنه بطريقة مرسومة . ابداء السرور والبهجة ، ابداء التسامح والرضا ، وتحمل المسئولية ، والطموح ، والقدرة على مواجهة كل المواقف بلا صعوبات ولا عقبات ، حتى التسلية واللهو قد سبق تحديدها ، سواء بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة . والكتب التي تصدر عن دور النشر ونوادي الكتب والأفلام التي تعرض في دور السينما ، والمسرحيات ، يتم اختيارها بطريقة محددة يتدخل فيها ممولى الدعاية والاعلانات ، كما أن الاهداف الأساسية من برامج التسلية المختلفة - وهي عملية تأثير مستمر مسلطة على جميع أفراد المجتمع - هو الوصول

الى خلق التماثل بينهم ، رحلة بالسيارة في يوم العطلة لمن يمتلك السيارة ، وقضاء الساعات الطوال أمام الشاشة الصغيرة لمشاهدة مباريات كرة القدم ، أو قضاء الساعات بجانب جهاز الراديو لسماع الأغاني والتمثيلات ، أو الجلوس على مقهى لشرب الشاي والتدخين ولعب الطاولة أو الكوتشينة ، أو تبادل الزيارات بين الأسر وبعضها . اننا نلاحظ ببساطة أن حياة الانسان منذ ميلاده حتى موته من أول أيام الأسبوع وحتى اليوم الأخير ، من الصباح حتى المساء ، قد سبق قولبتها وصياغتها . اذن كيف يستطيع انسان ما ، ساقه الحظ الى الوقوع في هذه المصيدة أن يحتفظ في ذاكرته بعد ذلك بأنه انسان ؟ وبأنه فرد متميز بصفاته وطبائعه الخاصة ؟ وبأنه مخلوق حصل على فرصة الحياة بما فيها من آمال وأحلام ، وبما فيها من آلام وأحزان ، وبما فيها من مصاعب ومخاوف ، ومن تشوق الى الحب ؟ .

هناك طريق آخر يمكن أن يسلكه الانسان ليحقق الوحدة والتناسق ، هذا الطريق هو طريق العمل الابداعي ، وقد يكون صاحب هذا العمل فنانا أو عاملا يدويا بسيطاً . ففي كل عمل إبداعي يتوحد الانسان المبدع مع الأدوات التي يستخدمها في عمله المبدع ، سواء كان نجارا يصنع كرسيًا ، أو صائغا يشكل أحد قطع المجوهرات ، أو فلاحا يزرع أرضه ويرعى زرعته ، أو رساما يرسم إحدى لوحاته . في كل أنواع العمل الابداعي الخلاق يتوحد العامل مع العدد والأدوات التي يستخدمها ويتعامل معها ، ويتوحد الانسان مع العالم كله في عملية الابداع للوصول الى الهدف . هذا التوحد ينطبق على العمل الانتاجي فقط ، أي على العمل الذي يخطط له كل انسان بنفسه وينفذه بنفسه ، ويرى ثمار عمله ماثلة أمام عينيه . أما في نظام العمل الحديث في المصانع والشركات ودواوين الحكومة وغيرها من مراكز العمل ، حيث نجد أن العامل والموظف يعملان بطريقة مختلفة تماما ، فعلى العامل أن يضبط حركاته وفقا للسرعة التي تعمل وتدور بها الآلة التي يعمل عليها ، والموظف يرتبط بكمية العمل المطلوب للإدارة أو الهيئة التي يعمل بها ، والمدرس يرتبط بضرورة الانتهاء من تدريس مقرر معين ليس من وضعه ولا دخل له به . . مثل هؤلاء الناس جميعا لا توجد أمامهم أية فرصة ليمرؤا بخبرة التوحد مع

أدوات العمل ومع العالم ، أو حتى مع العمل الذي يقوم به كل منهم . العامل في هذه الحالة ماهو الا جزء من الآلة التي يعمل عليها ، أو جزء في المنظمة البيروقراطية التي يدور في فلكها . ولقد وصل مثل هؤلاء الناس الى مرحلة لم يعد الواحد منهم يشعر بذاته الحقيقية . وفي نهاية المطاف وبعد محاولات لا نهائية للتوافق مع ظروف العمل ، لا يصل هذا الانسان الى التوحد الحقيقي .

ان التوحد الذي ينتج من خلال العمل الابداعي المنتج ، ليس توحدًا بين إنسان وإنسان ، انه توحد بين الإنسان وعدده وأدواته أو بين الإنسان وعمله . والتوحد الذي يحصل عليه الانسان من خلال القيام بالطقوس الدينية ، إن هو الا توحد عابر ينتهي مفعوله بعد فترة قصيرة من الزمن . والتوحد الناتج عن طريق عملية التماثل والتناسق بين أفراد المجتمع ، وعن طريق عملية التوافق والتكيف مع الآخرين ان هو الا توحد مصطنع وغير حقيقي .

وهنا نصل الى الاجابة الحقيقية الكاملة على السؤال الذي طرحناه منذ البداية . ان الانسان يستطيع أن يتغلب على احساسه بالعزلة والغربة عن طريق التوحد الذي يقوم بينه وبين شخص آخر ، ذلك التوحد الذي يكمن في الحب .

أن المطلب الأساسي الذي يسعى الانسان جاهدا في تحقيقه ، هو الوصول الى اقامة الوحدة بين بني الانسان ، وما يجعل العنصر البشري متماسكا هو الرباط الأسري والعائلي . . هو الأسرة وهو المجتمع . وعدم القدرة على تحقيق هذا المطلب يعني أن يصاب الانسان بالجنون ، أو أن يقضى الانسان على نفسه بإبادة ذاته وإبادة الآخرين ، وبدون الحب لن يكون بإمكان البشرية أن تبقى ليوم واحد .

اذا أردنا أن نسمى الوحدة الانسانية بين البشر حبًا ، فاننا سنواجه بصعوبة حقيقية ، فالوحدة يمكن أن تقام بأساليب مختلفة . والفروق بين الطرق والأساليب المختلفة لاقامة الوحدة ليست أقل في أهميتها من أهمية أنواع الحب المختلفة . هل بإمكاننا اذن أن نطلق على كل طرق الوصول الى اقامة الوحدة الانسانية حبًا ؟ أم هل أن كلمة «الحب» لا يمكن اطلاقها الا على نمط خاص من الوحدة قد سبق

التعارف عليه ووضح في الديانات السماوية الكبرى ، وكذلك في الفلسفات التي ظهرت عبر السنين من قديم الزمن سواء كان ذلك في الشرق أو في الغرب ؟

وكما هو الحال في كل الصعوبات السيمانتية «أي مشكلة صعوبة تحديد المعنى» فإن الاجابة على هذا السؤال يمكن أن تكون اجابة اختيارية تخضع لرغبة الانسان . ومن المهم منذ البداية أن نعرف تماماً ماهو نوع الاتحاد الذي نعنيه عندما نتحدث عن الحب ، هل نعني بحديثنا عن الحب ، ذلك الحب الذي يمكن أن يكون اجابة كاملة على مشكلة الوجود كله ؟ أم نعني بالحب تلك الصيغة غير الكاملة وغير الناضجة ، والتي تعني بوضوح صور التعايش البيولوجي المختلفة ، والتي يمكن أن نطلق عليها أيضاً اسم الاتحاد البيولوجي أو الاتحاد العضوي ؟

ان الحب في رأينا هو ذلك الحب الذي يمكن أن يكون اجابة على مشكلة الوجود الانساني وهذا ماسنعرضه بالتفصيل ، ومع ذلك فسنبداً الحديث هنا عن الحب الناقص والارتباط البيولوجي العضوي .

التعايش في صورة اتحاد عضوي له صورته البيولوجية في علاقة الأم الحامل بالجنين الذي تحمله . انها شخصان ، وهما في نفس الوقت شخص واحد ، انها يعيشان معاً ، ويحتاج كل منهما للآخر . الجنين ماهو الا جزء من الأم ، وهو يتلقى منها كل ما يحتاجه في نموه ، أما الأم فيمكن تشبيهها بأنها عالم ذلك الجنين ، أنها تغذي جنينها وتحميه ، والجنين يؤثر في حياتها في نفس الوقت بما يحدث فيها من تغيرات أثناء شهور الحمل .

الشكل السلبي للتعايش والاتحاد البيولوجي العضوي هو شكل الخضوع ، أو هو شكل الماسوشية (المازوخية) (الخضوع والتلذذ بالآلم) اذا استخدمنا المصطلح الاكلينيكي في التحليل النفسي . والانسان المازوخي يهرب من الشعور القاسي بالعزلة والانفصال عن طريق جعل نفسه جزءاً أو عضواً من شخص آخر ، وعلى الشخص الآخر أن يقود زمامه ويوجهه ويحميه . والشخص الآخر يعني للانسان المازوخي الروح والحياة ، وبدونه لا يستطيع هو أن يواصل الحياة .

ان خضوع الشخص المازوخي يزداد تدريجياً ، وفي نفس الوقت تزداد قوة الشخص الذي يتحكم في الشخص المازوخي ، (ويعرف في التحليل النفسي باسم الشخص السادي) لدى هذا الانسان المازوخي نفسه ، كما لو كان هذا الانسان هو السيد أو الإله ، «انه كل شيء ، وأنا بالنسبة له لا شيء» انني فقط جزء منه ، وبالتالي فانني جزء من حجمه وجزء من قوته ، وجزء من شعوره بالأمان « الانسان المازوخي لا يستطيع أن يتخذ قرارا بنفسه ، انه لا يستطيع أن يقوم بمغامرة ، أنه لا يقوى على العزلة ولا على الانفراد ، انه انسان دائم التعلق بانسان آخر ، وليس له استقلال خاص . انه انسان غير ناضج ، انه لم يولد تماما .

واذا كانت الكتب السماوية تطلق اسم الصنم على الموضوع الذي يعبد ويقدس من دون الله ، فان ميكانيزمات تأليه من ليس لها تكمن في علاقات الحب المازوخي ، أي أن الحب المازوخي يقوم على تأليه الأصنام . وقد تختلط المازوخية بالرغبة الجنسية كـرغبة بيولوجية ، وفي هذه الحالة لا يكون خضوع الشخص المازوخي خضوعاً خيالياً فقط ، وانما هو خضوع كامل يشترك فيه الجسم كله على المستوى البيولوجي ، واذا كانت هذه الصورة المازوخية هي السائدة والشائعة تحت هذا الاسم فان هناك أشكالا مازوخية أخرى قد لانتبه الى أنها صورا مازوخية مثل الخضوع لتصرفات القدر ، والخضوع للمرض ، والخضوع لتأثير الاقناعات الموسيقية ، والخضوع لتأثير الطقوس الدينية ، وادمان المخدرات أو الخمر ، وغيرها من حالات التشوق والوجد . وفي كل هذه الحالات يفقد الانسان المازوخي ذاته ويجعل من نفسه أداة الانسان آخر ، أو لشيء آخر ، وما يترتب على ذلك هو أن هذا الانسان يتخلى عن واجبه الأساسي في مواجهه مشكلات حياته بنفسه وفي حل هذه المشكلات في حرية كاملة .

أما الشكل الايجابي للتوحد البيولوجي العضوي ، فهو السيطرة والتحكم في الآخرين ، وهو ما يسمى في علم النفس بالسادية (السادية في مقابل المازوخية) . والانسان السادي يريد التغلب على شعوره بالوحدة والعزلة وذلك عن طريق محاولة جعل الآخرين جزءاً أو عضواً منه أو من ذاته . انه ينفخ ذاته ويزيد من حجم

نفسه عن طريق ضم أو الاستحواز على عدد من الأشخاص الذين يسبحون بحمده . والانسان السادي شخص مرتبط ومتعلق بالشخص المازوخي الذي يقدسه ، بنفس الدرجة التي يرتبط بها الشخص المازوخي بسيدته المقدس أو بصنمه المعبود ، ولايستطيع أحدهما أن يعيش بعيدا عن الآخر أو بغير ذلك الآخر . أما الفرق بين الانسان السادي والانسان المازوخي فيكمن في أن الشخص السادي يصدر الأوامر ويستغل ويؤذي ويتعالى ، أما الشخص المازوخي فانه يتلقى الاوامر ويُستغل ويُؤذي ، ويُتعالى عليه من الشخص السادي . وإذا نظرنا الى الأمور نظرة واقعية سنجد أن الاختلاف بين الشخص السادي والشخص المازوخي ان هو الا اختلاف في درجة الاصابة المرضية لدى كل منهما ، وإذا تفحصنا الفرق بينهما فسنجد أن الاختلاف بينهما ليس اختلافا كبيرا بدرجة تفوق ما يوجد بينهما من تشابه ، فكل منهما يعيش بلا ذات مستقلة . وعندما ندرك هذا فاننا لانفاجأ عندما تصدر استجابة مازوخية عن الانسان السادي في علاقته بانسان ما ، وأن تصدر عن نفس هذا الشخص استجابة سادية في علاقته بشخص آخر ، أي أن يكون نفس الشخص مازوخيا في موقف من المواقف وساديا في موقف آخر مع شخص آخر (انظر مثلا الى السلم الوظيفي الاداري ستجد أن كل رئيس مصلحة يمارس ساديته على مرؤسيه وفي نفس الوقت يمارس مازوخيته مع رؤسائه) .

وفي الطرف المقابل للتعايش والتوحد البيولوجي العضوي يوجد الحب الناضج . والحب الناضج يعنى التوحد تحت شروط المحافظة على ذات الفرد وعلى استقلاله والمحافظة على فرديته . ان هذا النوع من الحب الانساني ان هو الا عبارة عن طاقة نشطة وفعالة تخترق الأسوار والحواجز التي تقف حائلا بين الانسان والانسان ، وهو الطاقة التي تعيد توحد هذا الانسان مع الآخرين . بالحب يتغلب الانسان على شعوره بالعزلة والغربة والانفصال ، ويسمح له بأن يكون انسانا مخلصا وأميناً مع نفسه ومع ذاته ، وفي أن يحتفظ بذاته متميزة مستقلة . بالحب يمكن أن يتحول شخصان الى شخص واحد ، ولكنها يظلان في نفس الوقت شخصان مستقلان .

عندما نقول بأن الحب نشاط فعال فاننا نواجه بصعوبة توضيح معنى النشاط

الفعال . ويعنى النشاط الفعال في اللغة نوع من التعامل يستخدم فيه الانسان طاقته هادفا الى تغيير الموقف الذي يوجد فيه هذا الانسان ، أي أنه نشاط هادف . وبالتالي فبالامكان أن نطلق على انسان ما أنه انسان نشيط أو انسان قادر على التحرك . اذا كان هذا الانسان يمارس أي عمل من الأعمال ، يعمل في المصنع أو في التجارة أو يدرس الطب أو الهندسة أو يزرع حقله ، المهم هذه كلها أنشطة عامة يستطيع الانسان منها أن يصل الى هدف معين ، ويجب أن نلاحظ هنا أننا لم نشر الى مصدر النشاط .

ولنأخذ على سبيل المثال شخصا ما ، كان يعاني من عدم الشعور بالأمن ، وبعدم الثقة بالنفس ، ومن الشعور بالعزلة والانفصال . قد يتحول هذا الشخص الى صاحب عمل ، أو الى انسان طيب متسامح ، أو الى صاحب مال أو تجارة . في مثل هذه الحالات ، قد يكون الانسان عبداً الشهوة من شهواته ، دفعته آلامه ومعاناته الى هذا العمل دفعا ، فلم يكن بإمكانه أن يختار شيئا آخر ، وهنا نجد أن نشاطه ماهو في حقيقته الا سلبية ، لأنه لم يختار هذا النشاط بارادته الكاملة . انه شخص معذب يقع تحت ضغط المعاناة ، ولكنه ليس بتاجر ، لأن عمله فرض عليه فرضا ، انه شخص يعاني ولايتاجر .

ومن ناحية أخرى قد يبدو لنا ذلك الشخص المستغرق في تفكيره وتأمله ، دون أن يقوم بفعل شيء سوى التأمل والتفكير في نفسه وفي توحده مع العالم ، قد يبدو لنا مثل هذا الشخص على أنه شخص سلبي لأنه لايفعل شيئا . ولكن حقيقة الأمر أن هذا الشخص قد وصل بتأمله وفكره الى أعلى درجات النشاط الروحي ، ذلك النشاط الذي لايجد الا اذا توفرت للانسان الحرية النفسية والاستقلال . يعني المفهوم الحديث للنشاط والفعالية ، استخدام الطاقة في الوصول الى أهداف خارجية ظاهرة ، أما المفهوم الآخر للنشاط والفعالية فيعنى استخدام قوى الانسان وطاقة الذاتية الداخلية ، مع عدم الالتزام بضرورة الوصول الى هدف خارجي ظاهر . وقد صاغ «سينوزا» هذا المفهوم بطريقة أكثر وضوحا ، فهو يميز بين الأدوار السلبية وبين الأدوار الايجابية ، كما يميز بين الفعل والميل الى الفعل . فعندما يكون

للإنسان دور إيجابي في علاقته بالآخرين فانه يكون إنسانا حرا ، كما أنه يكون هو سيد الموقف . أما اذا كان دور الإنسان في موقف ما دورا سلبيا ، فانه يكون مدفوعا بدوافع لاشعورية لايعرفها هو نفسه ، فهو انسان مغلوب على أمره .

وهكذا يصل سينوزا الى التأكيد على أن الفضيلة هي أن يكون الإنسان هو سيد نفسه . ان الحسد والغيرة والطموح وكل أنواع الجشع والطمع هي جميعها شهوات الإنسان ، وشهوات الإنسان هذه هي أسباب تعاسته وشقائه . أما الحب فانه على العكس من ذلك فقد تخطى الميل الى حيز الفعل ، الحب هو محاولة لممارسة القدرة والارادة الانسانية والتي لايمكن ممارستها الا اذا كان الإنسان حرا ، ولايمكن أن يكون الحب في وقت مانتيجة لممارسة ضغط أو إجبار . الحب نشاط ايجابي وليس دورا سلبيا ، الحب بالدرجة الأولى هو القدرة على العطاء وليس الرغبة في الأخذ .

ولكن ماهو العطاء ؟ قد تكون الإجابة على هذا السؤال ليست إجابة بسيطة وليست اجابة واضحة ، وهذه هي الحقيقة ، فالذي يؤدي الى عدم البساطة والوضوح هو الفهم الخاطئ للعطاء على أنه القيام بالواجبات المفروضة على الإنسان بهدف الحصول على شيء ما ، كما قد يقصد بالعطاء التضحية بشيء ما . والشخص الذي لم ترتفع به نفسه عن مستوى الأخذ فقط ، والاستغلال والطمع والجشع ، ان هو الا شخص لايستطيع أن يمر بخبرة العطاء الا من خلال نفسه وطمعه . هذا النمط من الشخصية قد يكون مستعدا للعطاء ، ولكن على شرط أن يحصل على المقابل بمعنى آخر انه شخص مستعد لتبادل المنفعة ، أما أن يعطى ولايأخذ فان هذا يعنى بالنسبة له تضليل وخداع . والأشخاص ذوي الشخصيات ذات التركيب الغير فعّال ، لديهم دائما الاحساس بأن شخصا ماسيستولى على ممتلكاتهم الخاصة ، ومثل هؤلاء الأشخاص لن تكون لديهم القدرة على العطاء . والبعض الآخر من الناس يجعل من العطاء فضيلة وذلك في اطار التضحية والبذل . هؤلاء الناس يعتقدون أنه من الواجب على الإنسان أن يعطي ، ولأن العطاء في نظرهم يدخل في مفهوم فضيلة التضحية ، فانهم يرون أن العطاء خير من الأخذ

(اليد العليا خير من اليد السفلى) ، وهذا يعني أيضا بالنسبة لهم بأنه من الأفضل للانسان أن يفرح عندما يعطى بدلا من أن يحزن ويعاني لفقدان ما أعطى .

أما بالنسبة للانسان الناضجة شخصيته فنجد أن للعطاء عنده معنى آخر . العطاء بالنسبة للانسان صاحب الشخصية المنتجة الناضجة يمثل أعلى درجات القوة ، وكأن لسان حاله يقول : « في اطار العطاء فقط أشعر بقوتي ، وبأنني أمتلك شيئا ، وبأنني قادر . هذه الخبرة الحية المثلثة بالنشاط والقوة تملؤ نفسي بالسعادة . في هذا الموقف (موقف العطاء) أشعر بنفسي انسانا مليئا بالنشاط والطاقة والحيوية والسعادة . العطاء يدخل على نفسي السعادة أكثر مما يفعل الأخذ ، ليس لأن العطاء بالنسبة لي يعني تضحية بشيء ما ، ولكن لأنني في داخل اطار العطاء ومفهومه أشعر بأنني قادر على التعبير عن طاقتي وحيويتي كإنسان » .

وليس من الصعب علينا معرفة وإدراك مدى صحة هذا الأساس الذي يقوم عليه العطاء ، اذا طبقنا مفهوم العطاء هذا في مجالات مختلفة . وأبسط مثال للتدليل على ذلك نجده في مجال اشباع الغريزة الجنسية بالفعل الجنسي ، حيث نجد أن أعلى درجات الوظيفة الجنسية عند الرجل تكمن في العطاء ، انه يعطى نفسه ويعطى عضوه التناسلي للمرأة ، وعندما يصل إلى درجة الاشباع فانه يعطيها سائله المنوي ، ولايستطيع الرجل أن يمتنع عن هذا العطاء ، وذلك اذا كان الرجل قادرا جنسيا ، واذا لم يستطع الرجل أن يعطى فان هذا يدل على أنه عاجز جنسيا ، وبالنسبة للمرأة فان هذه العملية لا تختلف كثيرا عن الحال عند الرجل ، الا أنها أكثر تعقيدا ، فهي تعطي نفسها للرجل ، انها تفتح له أبواب أنوثتها لينفذ منها الى داخلها ، أي أن المرأة وهي تأخذ تقوم أيضا بالعطاء . واذا كانت المرأة غير قادرة على العطاء بهذه الصورة ، وعندما تأخذ فقط ولاستطيع العطاء فانها تكون امرأة عاجزة جنسيا ، ومصابة بالبرود الجنسي . وعند المرأة تتكرر أيضا عملية العطاء في وظيفتها كأم ، انها تعطي جنينها الذي ينمو بين أحشائها كل ما يحتاجه من جسمها هي ، وبعد ولادته تغذيه بلبنها ، وتعطيه الدفء من جسمها وهو في أحضانها . ان عدم القدرة على العطاء بالنسبة للمرأة الأم ، يعتبر منكرا وشيئا محزنا يستنكره كل من يسمع به .

وفي مجال المادة يدل العطاء على الغنى ، فليس الغنى أن يمتلك الانسان الكثير ، ولكن الغنى يعنى كثرة العطاء . أما الانسان البخيل الذي يخاف من العطاء ، لأنه يخشى الخسارة التي تلحق به عندما يعطى ، ولذلك يبخل بالعطاء ، ان هو الا انسان فقير ، واذا نظرنا الى هذا الانسان نظرية سيكولوجية فسنجد أنه انسان يعاني من الفقر النفسي والروحي ، مهما كان هذا الشخص يملك من أموال قد تكون طائلة . فقط الانسان القادر على العطاء هو الانسان الغني ، انه يشعر بنفسه ويخبرها ، ويشعر في قرارة نفسه بأنه انسان قادر على أن يعطى الآخرين حتى ولو كان العطاء كلمة طيبة . واذا كان فاقداً الشيء لايعطيه ، فان الانسان الذي لايملك ، أو الانسان الذي لايملك الا ما يقيم به ضرورات حياته ، هو انسان لايقدر على أن يشبع في نفسه الرغبة في العطاء المادي . ولكننا نتعلم من خبراتنا اليومية في الحياة ان المستوى الذي يعتقد شخص ما أنه هو الحد الأدنى لمستوى معيشته وحاجاته الضرورية ، انها يرتبط بنمط شخصية هذا الانسان ذاته ، وكذلك بقدر ما يمتلكه هذا الانسان بالفعل . لقد أصبح من المعروف لنا جميعاً أن الانسان الفقير يتمتع بقدرة أكبر من الانسان الغني على الاستعداد للعطاء ، ومع ذلك فان حدود عطاء الانسان الفقير قد تضيق وتضيق حتى يصبح العطاء المادي مستحيلاً بالنسبة لهذا الانسان ، واستحالة العطاء هذه تجعل مثل هذا الانسان يشعر بالنقص ، لاسبب المعاناة التي يزرع تحتها هذا الانسان في حياته ، ولكن بالدرجة الأولى لأن الفقر يسلبه الاحساس بنعمة العطاء والسعادة التي يشعر بها عندما يعطى ، ويحث الدين الاسلامي على العطاء ، يقول الرسول ﷺ " داووا مرضكم بالصدقة " تصدقوا ولو بشق تمر " " الكلمة الطيبة صدقة " وفي القرآن الكريم ، ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣] ويربط الدين الاسلام بين العطاء والايان في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣] .

ان أهم مجالات العطاء لاتكمن فقط في الجانب المادي من الحياة ، ولكنها تكمن بالدرجة الأولى ، وبصفة خاصة في المجال الانساني . ماذا يستطيع أن

يعطي انسان ما انساني آخر ؟ انه يعطى من نفسه هو ، يعطى من أعلى ما يملك لأنه يعطى من حياته ومن نفسه . وهذا لا يعنى بالضرورة أن يضحي الانسان بحياته من أجل الآخرين ، ولكن يعنى إنه يعطى من حياته ومن وقته ومن كل ما هو حي فيه . إنه يعطى من سعادته ، ومن اهتمامه ، ومن فهمه وتفهمه ومن علمه ومعرفته ومن شرفه ومن أخلاقه حتى ومن حزنه ، وباختصار انه يعطى من كل ما يملك ، ومن كل نبض الحياة فيه . ولأنه يعطى الآخرين من حياته ومن نفسه ، فانه يشري الآخرين ، ويرفع فيهم نسبة الاحساس بالحياة ، ومن خلال هذا العطاء يرفع نسبة الاحساس بالحياة في نفسه هو أيضا . عندما يعطى مثل هذا الانسان فانه لا ينتظر الحصول على المقابل ، ولكنه لا يستطيع أن يتجنب أن يعود عليه ثمار العطاء ، ان العطاء لا يعنى أن يمتنع الانسان عن أن يأخذ ما يرد اليه مقابل العطاء ، لا يعنى حرمان الآخرين أيضا من فرصة العطاء ، انه يترك للجميع الفرصة لكي يشعروا بالسعادة التي يولدها العطاء ، وهذه السعادة تمثل دفعة جديدة للحياة ، ففي فعل العطاء تولد الحياة من جديد ، حيث يشعر كلا الشخصين الذي أعطى والذي أخذ بالامتنان والشكر لميلاد الحياة في كل منهما .

اذا عدنا بهذه الفلسفة الى ميدان الحب فسنجد أن العجز في هذا الميدان انما يعنى عدم القدرة على الحب . اذا كان القانون الالهى للحياة الانسانية يقضى بأن العين بالعين والسن بالسن ، فان الانسان لا يستطيع الا أن يعطى حبا في مقابل الحب ، أي أن الحب بالحب ، والثقة مقابل الثقة ، أي أن الثقة بالثقة الخ . اذا أردت أن تتذوق الفن فعليك ان لم تكن فنانا أن تكون على علم بمبادئ الفن ، واذا أردت أن تؤثر في الآخرين ، عليك أن تكون إنسانا جذابا ومثيرا قادرا فعلا على التأثير في الآخرين . يجب أن تكون علاقتك بالأفراد الآخرين في المجتمع ، وبالطبيعة والكون ، نابعة من ذاتك ومعبرة عن نفسك وعن رغباتك الحقيقية ، وأن تكون معبرة عن شخصيتك المتفردة المتميزة . ولا شك أنك عندما تحب دون أن تكون النتيجة حبا بحب أي دون الحصول على حب في مقابل حبك ، وعندما لا يستطيع حبك لانسان ما أن يجعل هذا الانسان أيضا يحبك ، وعندما لا يستطيع

في علاقاتك بالآخرين وتعاملك معهم أن تجعل من نفسك انسانا محبوبا من خلال تعبيراتك الانسانية الحية ، فان هذا يعنى بلاشك أن حبك حب بلا قوة وبلا تأثير، انه ليس حبا ولكنه وصمة وخذلان . فالحب لاي معنى كما سبق القول القدرة على العطاء فقط ، ولكنه يعنى أيضا القدرة على الأخذ ، هذا القانون ليس قانونا خاصا بالحب وحده ، ولكنه قانون ينطبق على جميع مجالات الحياة . فالمدرس يتعلم من تلاميذه وهو يدرس لهم ، والممثل يحصل على حماس مشاهديه له أثناء التمثيل وعلى تشجيعهم له ، ولاعب كرة القدم يحصل من جمهوره على الحماس الذي يرفع روحه المعنوية ، وكذلك المعالج النفسي يكتسب الصحة من علاجه لمرضاه ، ذلك أن القانون الذي يحكم تصرفات الانسان يقوم على أن الانسان لا يقيم علاقاته مع الآخرين بوصفهم موضوعات أو أشياء ، ولكن على أنهم بشر مثله يقوم بينهم التأثير والتأثر والتفاعل المشترك ، وبالتالي تكون العلاقات بينه وبين الآخرين علاقات حقيقية وخلاقة .

ترتبط قدرة الانسان على الحب باعتباره قدرة على العطاء ارتباطا وثيقا بدرجة نمو شخصيته ، اذ تتطلب القدرة على الحب درجة من النضج حتى يتمكن الانسان من تأصيل انتاجه ، وهنا على الانسان أن يكون قد تخطى مرحلة النرجسية والأنانية والرغبة في استغلال الآخرين ، وأن يكون قد اهتدى الى منبع قوته الانسانية الحقيقية في ذاته هو ، وكذلك يكون قد اهتدى الى وجود الرغبة الانسانية الأصيلة في الوصول الى أهدافه معتمدا على نفسه وعلى قوته الذاتية . واذا لم تتوفر هذه الصفات والشروط فان الانسان يقع ضحية للخوف وعدم الثقة حتى في نفسه وهذا بدوره يؤدي الى الخوف من الحب .

يتميز الحب الايجابي النشاط بالعطاء كما قلنا ، كما أنه يشتمل على عناصر أساسية توجد بصفة عامة في كل أشكال الحب وهذه العناصر هي : الاهتمام والرعاية والرحمة والقدرة على تحمل المسؤولية ، والاحترام ، والمعرفة .

اذا نظرنا الى الاهتمام والرعاية والرحمة كعنصر من عناصر الحب ، فاننا سنجد بها بوضوح صورة لها في حالة الأم التي تحب طفلها . اذا أهملت الأم في رعاية

طفلها فامتنت مثلاً عن أرضاعه أو تنظيفه ، والاهتمام براحته ، فانه لا يمكن القول بأن هذه الأم تحب طفلها . على النقيض من ذلك نجد الأم التي تهتم بطفلها وتسهر على راحته ، أما محبة لطفلها . ولا يختلف الحب عن ذلك في حالة حب الحيوان أو النبات أو الزهور . اذا حكى لنا سيدة ما أنها تحب الزهور ، ثم تبين لنا بعد ذلك أنها تنسى أن تروى زهورها وترعاها ، فاننا سوف لانعتقد بعد ذلك في قولها بأنها تحب الزهور . الحب هنا ان هو الرعاية نشطة وفعالة لحياة من نحب والاهتمام به والعمل على تنميته . واذا لم توجد الرعاية النشطة ، فان كل مايبذل لنا من انفعال وعاطفة على أنه حب ، لن يكون حبا حقيقيا . وجوهر الحب الحقيقي يعتمد على العمل والرعاية لمن نحب ، وأن الحب والعمل لايفصلان عن بعضهما ، فالانسان يحب الهدف الذي يعمل من أجله وفي نفس الوقت نجد أن الانسان يعمل من أجل مايجب ومن أجل من يحب .

يوضح لنا الدين الاسلامي هذا العنصر من عناصر الحب توضيحا جليلا في قصة النبي محمد ﷺ مع قومه ، لقد حاربوه وأخرجوه وعذبوه ولكنه لم يحنق عليهم ولم يغضب ، بل كان يدعو الله لهم بالهداية فكان يقول : «اللهم اهد قومي فانهم لايعلمون» لقد كان يحب قومه ويهتم بهم ويخاف عليهم من العذاب ولذلك فانه لم يتخل عن الرسالة وعن الدعوة ، وحين دخل مكة فاتحا منتصرا ، ووقف القوم ينتظرون ماذا سيفعل محمد بهم ، اذا به يناديهم : "يامعشر قريش ، ماذا تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال أقول لكم كما قال أخي يوسف لاختوته ، لاثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء " ويؤكد القرآن الكريم ذلك حين يقول ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

ان الحديث عن الاهتمام والرعاية والرحمة كعنصر من عناصر الحب يقودنا الى بعد جديد أو عنصر جديد وهو القدرة على تحمل المسؤولية . ولكن ماذا نفهم اليوم تحت مفهوم تحمل المسؤولية ؟ ان الكثيرين يفهمون تحت هذا المفهوم أداء الواجب المفروض عليهم ، والذي سيسألون عنه أمام من يهمله هذا العمل . ولكن هذا فهم

خاطيء للمسئولية ، فالمسئولية في معناها الحقيقي تعنى حرية الانسان الكاملة في التعامل مع الآخرين ، واحساس الانسان بالمسئولية هو الذي يحدد نوع رغباته الظاهرة والباطنة . أن يكون الانسان مسئولاً يعنى أن يكون هذا الانسان قادراً على الاجابة ومستعداً لها ، لقد كان الرسول ﷺ يشعر بأنه مسئول عن قومه ، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتخلى عنهم وعن مسئوليته تجاههم ، ويلجأ الى استمطار لعنة السماء عليهم كما فعل نوح مع قومه . الانسان الذي يحب أخاه يشعر بأنه مسئول عن حياة هذا الأخ ، فحياة أخيه لا تهم أخاه فقط ولكنها تهمه أيضاً ، انه يشعر بأنه مسئول عنه كإنسان بنفس الدرجة التي يشعر بها أنه مسئول عن نفسه . هذا الاحساس بالمسئولية نجده أيضاً في رعاية الأم لطفلها ، والتي تنصب على اهتمام الأم بجسم الطفل واشباع حاجاته ، أما في حالة الحب بين الكبار الناضجين ، فان الاهتمام ينصب بالدرجة الأولى على اشباع الحاجات النفسية لكل منهما .

قد يكون من السهل تعلم فن الاحساس بالمسئولية واتقانه اذا قلنا بعدم وجود العنصر الثالث في الحب وهو عنصر الاحترام . والاحترام لاي معنى القلق أو الخوف من الآخرين ، وانما يعنى القدرة على رؤية الانسان وتقبله كما هو ، أي بالصورة التي هو عليها ، والاعتراف بفرديته وبتميزه وبقدراته . ويعنى الاحترام أيضاً العمل المتواصل على مساعدة الآخرين على النماء ، ومساعدتهم على الاندماج بسهولة في المجتمع . وفي نفس الوقت فان الاحترام لاي معنى استغلال الآخرين بأي حال من الاحوال . فاذا كنت أحب انساناً ما ، فانه يهمني بالدرجة الأولى أن يهتم هذا الانسان بمصالحه وبواجباته ، وبالعامل الدائب على تنمية شخصيته ، وعلى الاندماج في المجتمع ، بدلا من أن يهتم بمصالحه أنا والعمل على خدمتي . انني عندما أحب انساناً فأنني أشعر بأنني متوحد معه بصورته التي هو عليها فعلاً ، وليس بالصورة التي ينبغي أن يكون عليها ، أي بصورته الحقيقية ، وليس بصورته الخيالية أو المثالية . ومن الواضح أن الاحترام سيكون ممكناً بيننا فقط عندما يتمتع كل منا بحريته وباستقلاله عن الآخرين ، وعندما يكون كل منا قادراً على تصريف أموره دون حاجة إلى مساندة ومساعدة الآخرين له ، أي دون أن نكون كالنا أو أيا منا تحت ضغط من أحد أو تحت رحمة انسان آخر قد يسعى لاستغلالنا .

وخلاصة القول أنه لا يمكن أن يكون هناك احترام متبادل بين الناس إلا إذا تمتعوا جميعاً بالحرية ، ويقول المثل الفرنسي ان الحب هو طفل الحرية ، وليس ابناً للعبودية والاستغلال بأية حالة من الأحوال .

انه من الممكن فقط أن يحترم انسان ما انساناً آخر عندما يعرف كل منهما الآخر ، فالرعاية والاهتمام بشخص ما والاحساس بالمسئولية نحوه ، تكون عملية عمياء اذا لم يكن العلم والمعرفة رائدها ، أي معرفة ذلك الانسان موضع الرعاية والاهتمام . ومن ناحية أخرى فان العلم والمعرفة يصبح فراغاً بلا معنى أو هدف اذا لم يعضده الاهتمام والرعاية .

واذا تحدثنا هنا عن العلم والمعرفة فيجب ألا يغيب عن أذهاننا أن هناك مستويات مختلفة من المعرفة والعلم ، فما هو نوع المعرفة التي نعتبرها أحد عناصر الحب ؟ انها تلك المعرفة التي تخترق جميع القشور والطبقات المحيطة باللب والجوهر ، لتصل الى معرفة ذلك اللب والجوهر . هذا النوع من المعرفة لا يتأتى للانسان الا اذا تجرد ذلك الانسان من حصر نفسه في دائرة اهتماماته ومصالحه الخاصة ، ومن رؤيته للناس من خلال تلك الاهتمامات والمصالح الخاصة ، وتمكن من رؤية الآخرين بعيونهم هم . انني أستطيع على سبيل المثال أن أعرف أن انساناً ما يعاني من الحزن والهموم ، حتى ولو حاول هذا الانسان اخفاء مشاعره وهمومه ، ولم يظهر ذلك بوضوح ، انني أستطيع أن أعرف معرفة دقيقة وأستطيع أن أعرف أيضاً أنه خائف وحزين ، لانه انسان وحيد يطغى عليه الشعور بالذنب ، وبالتالي فانه بإمكانني أن أعرف أن أحزانه ، ان هي الا تعبير عما يخفيه في أعماقه . ان خوفه وقلقه وعدم قدرته على التركيز مظاهر تدل على أنه انسان يقع تحت وطأة ضغط المعاناة ، وليس انساناً يهدف الى مضايقة الآخرين .

ترتبط المعرفة ارتباطاً وثيقاً بالحب ، حيث أن الحاجة الى التوحد مع انسان آخر بهدف الخروج من سجن العزلة والوحدة ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بوجود هذا الانسان الآخر الذي يستطيع أن يفضي اليه الانسان بهذه الرغبة الانسانية ، وأن يدعه يتعرف على أسرارهِ وخفاياه . واذا كانت الحياة في بعدها البيولوجي العضوي

عبارة عن سر معجز بدأ الانسان في سبر أغواره والكشف عنه ، بل واكتشف منه الكثير ، فان الانسان في بعده الانساني ان هو الا سر لم يكتشف بعد . واذا كنا ندعى بأننا نعرف أنفسنا ، فاننا في الحقيقة نجهد أنفسنا ، ورغم كل عنائنا وتعبننا في محاولة المعرفة ، فاننا في حقيقة الأمر لا نتعرف على أنفسنا . اننا نعرف غيرنا من أهلنا ومن أبناء مجتمعتنا ، ولكننا في نفس الوقت لا نعرفهم ، وذلك لسبب بسيط وهو أن نفوسنا ونفوس غيرنا من البشر ليست شيئا ماديا يمكن فحصه ومعرفته . وكلما تعمقنا في وجودنا وفي وجود غيرنا ، كلما زادت المسافة بيننا وبين الهدف الذي نشد الوصول اليه من معرفتنا ، ومع ذلك فاننا لانستطيع أن نمنع أو نعطل رغبتنا في المعرفة وفي التعمق في خفايا النفس الانسانية ، وفي جوهرها العميق .

هناك احتمال واحد لمعرفة النفس البشرية وهو التحكم الكامل في انسان آخر ، واخضاعه اخضاعا يجعله ينفذ كل ماأريد ، ويجعله يشعر بما أريده أن يشعر به ، ويجعله يفكر بالطريقة التي أريدها ، أو يفكر فيما أريده أن يفكر فيه ، اخضاعا يجعله يتحول من انسان الى شيء آخر أمثلكه أنا . هذه المرحلة قد تتضح لنا في الحالات السادية المتطرفة ، وهي تتميز بالقدرة على تعذيب الكائن الانساني والضغط عليه وارغامه تحت صنوف التعذيب المختلفة على الكشف عن أسراه . هذا الاسلوب من الضغط والتعذيب والتحكم بهدف الوصول الى معرفة أسرار الآخرين ، يعتمد أساسا على دافع التخريب والتدمير والتعطيم والقسوة اللاانسانية في اختراق أعماق الانسان والنفوذ الى أسراه والاعتداء عليه .

هذه الطريقة اللا انسانية تظهر لنا بجلاء اذا تأملنا ما يحدث في المعتقلات وسجون التعذيب والارهاب وما يحدث في حالات المذابح البشرية التي تنصب بهدف الانتقام ، وأيضا ما يحدث في الثورات الانتقامية ، حيث يمثل الثوري المنتصر بجثة غريمة بعد قتله ، وكأن لسان حاله يقول ، ان رصاصة واحدة قد خلصتنا من هذا الوغد الشرير ، ولكن هذه الرصاصة لم توصلنا الى روحه الى حيث يكمن السر فيه ، ولذلك فلا بد من التمثيل به حتى نزيل عنه أسراه وروحه وانسانيته .

إذا انتقلنا بهذا التصور الانتقامي اللاإنساني الذي يمارسه الإنسان ضد الإنسان إلى مجال الطفولة البريئة فلن نجد فرقاً كبيراً . إن طريق الطفل إلى معرفة شيء ما من لعبه التي يلعب ويتسلل بها لا يتعدى تحطيم هذه اللعبة وتخريبها بهدف معرفة السر الذي يوجد بداخلها . قد يصطاد الطفل فراشة ثم تطفئ عليه الرغبة في معرفة السر وراء هذه الفراشة ، ولماذا تطير وغير ذلك من الحركات التي تقوم بها تلك الفراشة المسكينة ، وبدافع المعرفة هذا يبدأ الطفل في انتزاع أجنتها الرقيقة بقوة وقسوة ، ثم قد يقوم بفصل رأسها عن جسمها حتى يتمكن من معرفتها جيداً ، وليرغمها على أن تبوح بخفائها وأسرارها . أي أن العنف والقسوة هنا ماهي إلا مظهر لدافع عميق وهو الرغبة في معرفة خفايا وأسرار شيء معين ، أو معرفة خفايا الحياة وأسرارها .

الطريق الآخر الأكثر احتمالاً لمعرفة سر الحياة هو الحب . والحب هو الطريق الإيجابي الذي يجعل إنساناً ما يبوح بأسراره لإنسان آخر ، وذلك إذا تم توحد هذا بذلك . في عملية التوحد هذه أحاول أنا شخصياً أن أعرف ذاتي ونفسي ، وأحاول أن أعرف كل شيء ، ولكنني لا أعرف كل شيء . أنني فقط أعرف أنه لكي يستطيع إنسان ما أن يوصل أفكاره للآخرين ويوضحها فانه يتحتم عليه أن يمر بخبرة التوحد من خلال الحب . أما الإنسان السادي الذي يلجأ مباشرة لأسلوب الضغط والعنف والتعذيب بهدف الحصول على المعرفة ، فانه يظل إنساناً جاهلاً كما هو ، أنه يعتدى على غيره ويعذبه ويمزقه قطعاً ، ولكنه لا يصل في النهاية إلا إلى تلك التنف الصغيرة من ذلك الجسد الممزق . ولذلك فإن الحب هو الطريق الوحيد الممكن لتوصيل الإنسان إلى المعرفة ، لأنه هو الذي يحقق عملية التوحد الإنساني ، إن الإنسان يجد نفسه في الحب وفي العطاء وفي النفاذ إلى الآخرين ، ويستطيع أن يكتشف ذاته ويعرف نفسه ونفس من يحب ، بالحب يستطيع الإنسان أن يكتشف الإنسان ويعرفه .

تقول إحدى الحكم القديمة " اعرف نفسك " هذه الحكمة تعبر عن الرغبة الملحة في معرفة أنفسنا وفي معرفة غيرنا من البشر ، وهذه هي أيضاً بداية كل علم

للنفس . حيث أن هذه الرغبة في المعرفة تهدف الى معرفة الناس جميعا بكل خفاياهم الداخلية وبكل أسرارهم ، فان هذه الرغبة ذاتها لايمكن أن تتحقق بالطرق المألوفة للمعرفة ، أي عن طريق المعرفة التي تعتمد على أعمال العقل وحده ، وحتى لو زادت معرفتنا بمقدار آلاف المرات عما نعرف الآن فاننا لن نستطيع الوصول الى معرفة كاملة ، وسيبقى الانسان دائما لغزا محيرا .

الطريق الوحيد لمعرفة كاملة بالانسان يكمن في عملية الحب ، انه يتعدى جميع الأفكار ويتخطى جميع الكلمات ، انه وثبه شجاعة في المرور بخبرة التوحد . ان المعرفة العقلية التي يتوصل اليها علم النفس تعتبر شرطا للمعرفة الكاملة في عملية الحب ، يجب على أن أعرف نفسي وأن أعرف الآخرين معرفة موضوعية ، حتى أصبح في حالة تسمح لي بالرؤية الحقيقية ، وحتى أتمكن من التغلب على الصور الخيالية اللاعقلية المشوهة التي كانت عالققة بذهني قبل ذلك . والمعرفة الموضوعية لانسان ماهي وحدها المعرفة التي تجعلني أتعرف على هذا الانسان جيدا عندما يجمعنا ويوحدنا الحب .

اذا انتقلنا من مجال معرفة الانسان للانسان الى مجال آخر وهو معرفة الله فاننا سنجد أن مشكلة التعرف على الانسان قد جاءت موازية لمشكلة التعرف على الله . لقد حاول الغرب المسيحي أن يعرف الله عن طريق العقل ، وأن يكون تصورات عقلية معينة عنه ، فابتعدوا بذلك عن المعرفة الحقيقية لله لأن العقل وحده لا يستطيع أن يوصل الى أبعد من معرفة الماديات . أما المؤمنون بالله والمتصوفون فقد تركوا فكرة البحث عن الله بحثا عقليا وحاولوا أن يعرفوه من خلال الحب ، انهم يذوبون حبا في الله ، ويعيشون خبرة التوحد من خلال الحب الالهى ، ولم يعد عندهم معرفة أي شيء بعد ذلك . العبادة عندهم هي قمة الحب ، والمحبة هي قمة المعرفة .

واذا كان البعض يعتقد أو يتصور أن خبرة التوحد هذه سواء مع انسان آخر أو مع الله ، خبرة لاعقلية فانه لاشك خاطيء في تصوره واعتقاده لأن هذه الخبرة في حقيقة أمرها ان هي الا أكثر النتائج التي توصل اليها الانسان جرأة في تاريخه

الفكري ، انها خبرة مبنية على معرفة حقيقية للحدود الأساسية للعقل الانساني وللمعرفة العقلية ، انها ليست وليدة المصادفات ، فهي تعني أننا نعرف أننا لن نستطيع في يوم من الأيام أن نحيط بكل أسرار الانسان وخفاياه باستخدام ذلك العقل الانساني القاصر ، وتعني أننا لن نستطيع أن نحيط بالوجود الالهي باستخدام ذلك العقل ، ومع ذلك فاننا فقط نستطيع من خلال الحب أن نعرف ماخفي علينا . وعلم النفس كعلم له حدوده ، وكعلم يعتبر امتداداً منطقياً بالنسبة للدين ، لبحث في النفس الانسانية وأسرارها ، لا بد أن تكون النتيجة المنطقية له أي لعلم النفس ظهور ميدان بحث جديد وهو سيكولوجية الحب .

ترتبط الرعاية والاهتمام والاحساس بالمسئولية والاحترام والمعرفة ببعضها البعض ، لتصبح نغماً متناسق الاتجاه لدى الانسان الناضج ، أي لدى الانسان الذي عمل على تنمية قدراته الخاصة بطريقة ابداعية ، ذلك الانسان الذي لا يريد الا الحصول على الشيء الذي بذل فيه الجهد والعرق ، الانسان الذي نبذ نرجسيته وأنايته وحبه للجهل والسلطان ، وحبه في أن يكون أعلم الناس وأحسنهم ، وتعلم التواضع ، انطلاقاً من قوته الداخلية التي تمكنه من أن ينجز بمفرده عملاً حقيقياً خلافاً ،

تواضع تكن كالنجم تراءى على صفحة الماء وهو رفيع

ولا تكن كال دخان تطاول في السماء وهو وضع

لقد تحدثت حتى الآن عن الحب باعتباره الطريق الى الخلاص من الوحدة والعزلة والانفصال والغربة الانسانية ، وعلى أنه الطريق الذي يعيد اقامة التوحد الانساني .

نأتي بعد ذلك الى الحديث عن مبدأ عام وهام في حياتنا جميعاً ، وهو الرغبة في الاتحاد البيولوجي العضوي بين الرجل والمرأة . ولقد عبرت الديانات السماوية منذ بداية الخلق عن فكرة قطبي الأنوثة / الذكورة أوضح تعبير .

فقد كان الرجل والمرأة في بداية الخلق شيئاً واحداً ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾

[النساء : ١]

فمن آدم خلق الله حواء ، ومنذ ذلك الحين والرجل في بحث دائم عن حوائه المفقودة ، أو كما نقول في لغتنا الشعبية أنه يبحث عن النصف الآخر ، حتى يتمكن من اقامة الاتحاد من جديد . ولقد قادت قصة هذين القطبين المتقابلين أي الذكورة / الانوثة ، قادت الانسان الى الرغبة الملحة في محاولة اعادة العلاقة والتوحد مرة أخرى بشكل خاص ان كلا من عناصر الذكورة والانوثة توجد بداخل كل رجل وامرأة ، فلقد أثبتت الأبحاث الفسيولوجية أن الهرمونات الأنثوية والهرمونات الذكورية توجد في كل من المرأة والرجل ، والذي يحدث هو أن تغطي الهرمونات الأنثوية في المرأة على الهرمونات الذكورية ، وكذلك تغطي الهرمونات الذكورية لدى الرجل على الهرمونات الأنثوية ، ولكن طغيان أحد هذه الهرمونات على الأخرى لايعني أنه يمحىها تماما . يجد الرجل نفسه وذاته فقط عندما يتحد مع المرأة وتجذب المرأة نفسها وذاتها في اتحادها مع الرجل ، وهذه القطبية هي المسئولة عن قيام هذا الاتحاد ، والجاذبية المتبادلة بين الرجل والمرأة هي الأساس الذي يعتمد عليه قيام أي فعل جاد وحقيقي .

وعندما نقول بأن قطبي الانوثة / الذكورة هما المسئولان عن العمل الانساني المنتج ، فليس هذا من قبيل اللغو أو الحديث النظري . ان هذه حقيقة يثبتها البحث البيولوجي ، اذ أن اتحاد افرازات الرجل المنوية بالبويضة الأنثوية هو أساس تكوين الجنين في رحم الأم وهو أساس انجاب طفل جديد في هذا العالم . وإذا تحدثنا بلغة علم النفس ، فأننا نرى أن نشأة الحب بين رجل وامرأة ، ان هو الا بمثابة ميلاد جديد لكل منهما . واذا أردنا أن نجد تفسيراً يلقي الضوء على الانحراف الجنسي فأننا سنجد أن مايسمى بالجنسية المثلية ، أي ممارسة الجنس مع نفس النوع ، تعنى عدم القدرة على بلوغ الانسان الى مستوى قطبية الذكورة / الانوثة والتي تؤدي بدورها الى الرغبة في التوحد مع القطب المقابل أي انجذاب الرجل الى المرأة وانجذاب المرأة الى الرجل . وبناء على هذا فان الانسان المنحرف جنسياً أو المصاب بالجنسية المثلية ، انسان يعاني دائما من عذاب العزلة والانفصال التي لايسطيع منها فككاكا ، هذه المعاناة هي نفسها المعاناة التي يزرع تحتها أيضا الاسوياء من بني الانسان الذين لايقدرّون على الحب .

ان قطبية الذكورة / الأنوثة ليست وقفاً على الانسان وحده ، بل انها قانون الطبيعة والكون ، نجدها في الحيوان وفي النبات ، ونجدها في أمور الحياة المختلفة في قطبية الأخذ / والعطاء ، وقطبية الأرض والمطر ، وفي قطبية البحر / النهر ، وقطبية الليل / والنهار ، وقطبية النور / والظلام ، وفي قطبية المادة / والروح .

تقودنا مشكلة قطبية الذكورة / الأنوثة الى مناقشة متواصلة عن الحب والجنس . رأي فرويد أن الحب هو تسام بالغريزة الجنسية ، وتجاهل أن الرغبة الجنسية ، ان هي الا تعبير عن الرغبة في الحب واعادة الاتحاد . لقد اتفق فرويد مع علماء الفسيولوجيا في أن الغريزة الجنسية تنتج عن التوتر الكيميائي الذي يحدث في الجسم ، وهذا التوتر هو الذي يحرك رغبة الانسان في التوصل الى حل لهذا التوتر الجنسي . والهدف الذي يسعى اليه الانسان هنا هو التخلص من مصدر التوتر الجنسي . ان هذا التصور للغريزة الجنسية وللتوتر الجنسي يشبه وجود حالة من الأكلان في مكان ما من جسم الانسان ، وهذه الحالة توجد الرغبة الشديدة في التخلص من ذلك الأكلان وذلك عن طريق حك جلد الجسم في هذا المكان . اذا عدنا بهذا التصور الى حالة التوتر الجنسي ، فاننا نجد أن التخلص من هذا التوتر يشبه تماماً التخلص من حالة الأكلان في الجلد ، وبالتالي فان الحل الأفضل لهذا التوتر الجنسي سيكون هو الاستمئاء أو الاشباع الذاتي سواء بالنسبة للرجل أو بالنسبة للمرأة ، وليس هناك أي داع لقيام العلاقة بينهما بهدف اشباع رغبة مشتركة .

ان ما أغفل فرويد رؤيته في تفسيره الأول للغريزة الجنسية هو المظهر النفسي البيولوجي للرغبة الجنسية ، والذي هو جوهر شوق الرجل الى المرأة وشوق المرأة الى الرجل عن طريق اتحاد الرجل والمرأة معا . ولعل السبب في ذلك هو أن فرويد انطلق في تصوره من عالم الرجل في المجتمع الأبوي الذي يفترض دائماً أن الغريزة الجنسية هي غريزة الرجل ، ولا يعترف بغريزة المرأة . يقول فرويد في كتابه ثلاث مقالات في نظرية الجنسية بأن الدافع الجنسي له صفة مذكرة دائماً بغض النظر عما اذا كان هذا الدافع الجنسي دافع رجل أو دافع امرأة . ويعبر عن هذا الرأي بوضوح

أكثر في فكرته عن الطفل الصغير الذي ينظر الى المرأة على أنها رجل تم خصاؤه ، وأن المرأة تحاول بشتى الطرق أن تعوض العضو التناسلي الذكري الذي فقدته . ولكن الحقيقة هي أن المرأة ليست رجلا تم خصاؤه ، انها امرأة وما غريزتها الجنسية ورغبتها الجنسية الا غريزة ورغبة أنثوية وليست من نمط غريزة الرجل . والتجاذب الجنسي بين الرجل والمرأة يعتبر في جانب منه نتيجة لحالة من التوتر الفسيولوجي أما الأصل في الجاذبية الجنسية فهو مطلب الاتحاد مع الجنس الآخر ، فاننا نعرف جميعا أن الحب والعشق بين الرجل والمرأة لا يقتصر على الجاذبية الجنسية والاتصال الجنسي .

ان علامات الأنوثة والذكورة توجد في مجال الوظيفة الجنسية كما توجد في مجال الشخصية . في مجال الشخصية يمكن أن نحدد سمات الذكورة بالقول بأن الرجل يجب أن تكون لديه سمات المثابرة والقدرة على النفاذ والقيادة والايجابية والنظام والرغبة في المغامرة . كما يمكننا أن نحدد سمات الأنوثة بالقول بأن المرأة تحب أن تكون لديها سمات الاستعداد للتلقي الايجابي والمنتج ، والحماية والواقعية والقدرة على التحمل وحنان الأمومة . ويجب ألا يغيب عنا - وقد سبقت الاشارة الى ذلك من قبل - أن السمات الشخصية المميزة لكل من الرجل والمرأة توجد في كل فرد انساني بغض النظر عن جنسه والفارق الوحيد هو أن صفات الذكورة تكون أكثر غلبة ووضوحا لدى الذكور ، وبالعكس فان صفات الأنوثة تكون أكثر غلبة ووضوحا لدى النساء . واذا ضعفت صفات الذكورة لدى أحد الرجال بدرجة تجعل منه طفلا في عاطفته ووجدانه فانه سيحاول أن يعوض هذا النقص بمحاولة اظهار دوره الرجولي الذكري في العلاقات الجنسية . والنتيجة هي «دون جوان» الذي يهتم بالبرهنة على رجولته من خلال مغامراته الجنسية الخيالية ، ذلك لأنه يشعر في قرارة نفسه بعدم الثقة في رجولته . فاذا زادت حدة الشلل في ذكورة انسان ما بدرجة شاذة ، فستكون النتيجة ظهور النزعة السادية في بعض الحالات ، والنزعة المازوخية في حالات أخرى ، أي لجوء هذا الشخص الى استخدام أساليب القوة والعنف لتعويض النقص في صفات الرجولة ، ولتغطية هذا النقص تظهر رغبته القوية في التحول الى شخص من الجنس الآخر ، وهذا ما نشهده في الكثير

من الحالات التي يتحول فيها الرجل إلى أنثى ، وتحول فيها الأنثى إلى ذكر . وفي نفس الوقت إذا اضعفت صفات الأنوثة أو أصابها الشذوذ فانها تتخذ شكلا مازوخيا ، أو تأخذ صفات الرجولة وتأخذ شكلاً سادياً .

لقد كانت نظرية فرويد عن الجنسية ثورة في عصرها-تتحدى أنماط الفكر السائدة في سنة ١٩١٠ ، ولكن ماكان ثوريا في ذلك الوقت لن يظل ثوريا بعد مضي ما يزيد على ثمانين عاما عليه . لقد تغيرت معايير الجنس في الوقت الحاضر تغيرا كبيرا ، ولم تعد مفاهيم هذه النظرية لتهز أسرة المستوى الشعبي في المجتمع الأوربي ، ولا أعتقد انها ستكون لها نفس التأثير الثوري في مجتمعا المصري والعربي المعاصر . لقد فشل فرويد في تفسيره الأول في فهم الجنسية فهما حقيقيا يتفق مع الشروط الفلسفية بدلا من اللجوء الى الفسيولوجيا وحدها ، ولذلك كان من الضروري أن يعيد فرويد تعميق كشفه الفسيولوجي عن الجنسية ، فتوصل بعد ذلك الى اكتشاف غريزتي الحياة والموت . وغريزة الحياة هي غريزة الحب ، وهذا المفهوم الجديد لغريزة الحب يختلف تماما عن مفهومه لغريزة الجنس التي قال بها في تفسيره الأول . لقد أصبح مفهوم الجنسية في التحليل النفسي مرادفا لمفهوم الحب بأوسع معانيه ، فهو يتضمن الحب الجنسي ومايهدف اليه من اتحاد جنسي ، أو اتصال جنسي بفرد من الجنس الآخر ، كما يتضمن حب الذات وحب الوالدين والأولاد والصدقة وحب الانسانية جمعاء ، وكذلك يتضمن العلاقة بالموضوعات المادية وبالأفكار المجردة . هذه الميول جميعا يمكن ردها الى غريزة واحدة هي غريزة الحياة . أثناء العلاقة بين شخصين من الجنسين ، تتجه هذه الدوافع صوب الاتحاد الجنسي ، ولكنها في ظروف أخرى تتحول عن هذا الهدف أو تمنع من الوصول اليه ، حتى ولو ظلت دائما تحتفظ بقدر من طبيعتها الأصلية يكفي للتعرف على وحدتها جميعا .

ومما يدل على صحة هذا القول أن الانسان عندما يصاب بالمرض النفسي الذي يقوم بتخريب كل هذه الميول ، تصاب بالتحلل وتعود الى مصدرها الجنسي الطفلي . ويتضح ذلك بجلاء في حالة مرض البارانونيا حيث تندهور حالة الصداقة

وتتحول الى شعور بالاضطهاد والهديان من نوع الجنسية المثلية . المرض النفسي لا يقتصر على قطع صلة المريض بموضوعات الحب النفسي ، وانما يؤدي أيضاً الى انحسار اهتمامات الانسان وارتباطاته بالموضوعات المادية وبالأفكار المجردة ، وفي مراحل المرض المتقدمة ترتد هذه الطاقة على الذات . أن جوهر المرض النفسي هو تصدع العلاقات الانسانية بدرجة قد تعود بالانسان الى نرجسيته الأولى ، فيصيبه الموت النفسي من خلال موته الاجتماعي ، أي بفناء انسانية المريض الذي تسيطر عليه حالات الكراهية والبغض ونزعات التدمير . وهنا تواجهنا عبارة أفلاطون التي تقول بأن الحب هو المخرج من اللاوجود الى الوجود » .

الفصل الثالث

الحب ومشكلة العلاقة بين الآباء والأبناء

تعتبر لحظة الولادة بالنسبة لكل طفل وليد من أخطر لحظات حياة هذا الانسان القادم الى ذلك العالم الجديد . ولولا كف القدر الرحيم وعناية الله بهذا الكائن الضعيف لعانى كل طفل وليد من الخوف والقلق الخانق ، ولكن العناية الالهية تسلب هذا الطفل وعيه بثلك اللحظة ، لحظة الانفصال الحقيقي عن الأم ، لحظة الانتزاع من ذلك المكان الدافئ الامين ، من بيته الهادىء الذي عاش ونما فيه حتى الآن ، من رحم الأم . وفي الحقيقة فان كل طفل وليد يفقد الوعي لفترة من الوقت فلا يستطيع التمييز بين حالته قبل الولادة وبين حالته بعد الولادة ، انه لا يستطيع التعرف على الأشياء المحيطة به ، ولا يستطيع أن يدرك الفرق بين ذاته وبين الأشياء الأخرى في ذلك العالم الجديد الذي خرج اليه بعد الولادة . ان كل مايشعر به هذا الوليد الجديد هو الرغبة في الدفء وفي الغذاء ، وهو في هذه المرحلة لا يستطيع التمييز بين الدفء والغذاء وبين ذلك الصدر الحنون الذي يعطيه الدفء والغذاء ، وهو صدر الأم . تعتبر الأم بالنسبة لوليدها هي الدفء وهي الغذاء وذلك في المرحلة الأولى من حياة الطفل ، انها بالنسبة له تعتبر كل شيء فهي مصدر الاشباع وهي مصدر الأمان . ومن وجهة نظر التحليل النفسي تعتبر هذه المرحلة مرحلة من النرجسية ، وهذا يعنى أن كل مايوجد في محيط الطفل لن يكون له معنى الا من خلال مدى ارتباطه بالاشباع أو بالاحباط اللذان يشعر بهما الطفل من خلال خبرته الجسدية . وفي الحقيقة فان مايشعر به الطفل داخليا هو واقعه الطفلي وعالمه ، أما العالم الخارجي كله بما فيه من مثيرات مختلفة ، فانه لا يكون واقعا الا بمقدار أهميته لدى الطفل ، وليس بمقدار وجوده كواقع مستقل عن الطفل .

وعندما ينمو الطفل ، ويتقدم به العمر تنمو لديه القدرة على ملاحظة الأشياء كما هي ، كما أن احساسه بالاشباع ، ورغبته في الحصول على الغذاء تبدأ في الانفصال التدريجي عن الأم وعن الارتباط بثديها . وفي مرحلة لاحقة يعرف الطفل

أن العطش واللبن والشدي والأم ، ان هي الا أشياء منفصلة عن بعضها البعض ، وليست شيئاً واحداً كما يبدو له ذلك في حياته المبكرة .

يتعلم الطفل أيضاً أن هناك أشياء أخرى تملكها الأم وحدها ، وأن وجود هذه الأشياء ليس مرتبطاً بوجوده هو ، بل ان لهذه الأشياء وجودها المستقل عنه تماماً . وفي هذه المرحلة يتعلم الطفل أيضاً أسماء الأشياء المختلفة ، ويتعلم كذلك طريقة التعامل مع أشياء العالم المحيط به ، وكيفية استخدام بعض الأشياء الأخرى ، فيتعلم الطفل أن النار تحرق وتؤلم ، وأن الخشب جسم صلب وثقيل وأن الورق ضعيف وقابل للتمزيق . يتعلم الطفل أيضاً كيفية التعامل مع الناس فيعرف أن الأم تفرح وتضحك له وتداعبه عندما يأكل ، وأنها تحتضنه وتحمله بين ذراعيها عندما يبكي ، وأنها تثني عليه وتمدحه عندما يأتي بعمل ترغبه مثل محاولة التحكم في تصرفه فضلاته . ومع مرور الزمن تنصل هذه الخبرات وتلتحم مع بعضها ليكمل بعضها بعضاً في تكوين خبرة واحدة في عقل الطفل الصغير مؤادها انني طفل محبوب لأنني لي أما ، ان أُمي ستحبني لأنني طفل عاجز ، انها ستحبني لأنني طفل جميل وظريف ، هكذا تقول أُمي عني ويقول ذلك الآخرون ، أي أن الطفل في هذه المرحلة يدرك أنه سيحب من أمه ومن الآخرين بسبب الصفات التي يتمتع بها ، وأنه سيحب من أمه بصفة خاصة من أجل ذاته ووجوده هو ، هذه الخبرة المبكرة بالحب ، والتي يحصل عليها الطفل من أمه ، تعتبر خبرة سلبية ، فالطفل يعرف أنه كطفل ليس في حاجة الى القيام بعمل أي شيء ليحصل على حب أمه له ، فحب الأم لطفلها ليس له شروط . ليس الطفل بحاجة أكثر من أن يكون موجوداً ، وأن يكون طفلاً لأم فتجبه هذه الأم . ان حب الأم لطفلها يعتبر بالنسبة لهذا الطفل سعادة دائمة ، وسلاماً بكل معاني السلام ، فالأم لا تبغى بحبها هذا لطفلها الحصول على أي كسب أو على أي مقابل ، وحتى لو أرادت الأم الحصول على مقابل ، فانها لن تستطيع الحصول على هذا المقابل بالفعل . ان وجود الأم بجوار طفلها يعني بالنسبة له كل شيء ، انها سعادته وخيره والبركة التي تحل به ، فاذا ما فقدتها ، أصبحت حياته جرداء عارية من كل معنى ، ويشعر الطفل بعجزه عن

القيام بعمل أي شيء حتى يتمكن من استرداد أمه المفقودة من جديد .

في مجال دراسة الطفل أثبتت البحوث العلمية أن معظم الأطفال ما بين سن الثامنة والعاشر يواجهون مشكلة واحدة تقريبا وهي مشكلة محاولة الفوز بحب الآخرين لهم من أجل ذات كل منهم . أما الأطفال الذين لم يصلوا سن الثامنة بعد فانهم لم يكونوا قد تعلموا الحب بعد ، انهم فقط يظهرون مشاعر البهجة والسرور والعرفان والشكر على الحب الذي يحصل عليه كل منهم . أما في مرحلة ما بعد سن الثامنة فيظهر عامل جديد وهو الشعور النفسي بإمكانية الحصول على الحب عن طريق ما يقوم به هذا الطفل من نشاط . ولأول مرة في حياة هذا المخلوق يفكر الطفل في أن يعطى شيئا لأمه أو لأبيه ، أو لكل منهما ، يفكر في أن يعطى أي شيء حتى ولو كان قصاصة من ورق ، رسم عليها الطفل شيئا أو لونها أو كتب عليها . او قصصا من إحدى المجلات . في هذه المرحلة يحاول الطفل تقديم أي شيء يستطيع الحصول عليه إلى الأب أو إلى الأم . لأول مرة في حياة هذا الطفل يتحول تصوره للحب من أن يكون هو موضوع الحب من الآخرين بلا مقابل . إلى تصور جديد للحب ، أي حبه هو للآخرين . هذه النقطة الجديدة لا تتم دفعة واحدة وإنما تستمر لعدة سنوات ، حتى يمكن أن نسميها حبا ناضجا . وعندما يصل الطفل إلى هذه المرحلة ، فإنه لم يعد طفلا ، وإنما يكون قد وصل إلى مرحلة الشباب أو مرحلة المراهقة ، وهنا يكون قد تغلب على مرحلة النرجسية والأنانية والتمركز على الذات ، ولم يعد الأشخاص الآخرين بالنسبة له مجرد وسيلة لتحقيق الإشباع الذي يريده كما كان يحدث وهو طفل . لقد أصبحت حاجات الشخص الآخر وضروراته لها نفس أهمية حاجاته وضروراته هو ، وربما كانت حاجات الشخص الآخر أكثر أهمية من حاجاته الشخصية . وهنا تصبح سعادة الإنسان في العطاء لا في الأخذ ، كما أن حبه للآخرين يصبح أكثر أهمية عنده من أن يكون هو موضوع الحب من الآخرين . ومن خلال حب الطفل للآخرين يكون بإمكانه الخروج من عزلته التي عاش فيها عندما كان أنانيا متمركزا على ذاته فقط . وفي هذه الحالة يستطيع الطفل أن يمر بخبرة الشعور بمشاركة الآخرين وبالتحاده معهم . بل الأكثر من هذا هو

أنه يشعر بقدرته على الحصول على حب الآخرين له من خلال حبه لهم ، (الحب بالحب) ، وليس عن طريق ارتباطه وتعلقه بهم ، أو عن طريق الحصول على الحب لأنه طفل صغير عاجز ، أو مريض ، أو لأنه ظريف ومهذب . ان قانون الحب عند الطفل هو " أنا أحب غيري لأنني أرغب في أن أكون محبوبا " أما قانون الحب عند الانسان الناضج فهو على العكس من ذلك اذ أنه " سيجبني الآخرون لأنني قادر على حبهم " قاعدة الحب الطفلي هي : أنا أحبك لأنني في حاجة اليك " أما قاعدة الحب الناضج فهي " أنا في حاجة اليك لأنني أحبك " فالانسان غير الناضج انسان مضطرب لحب غيره تحت ضغط الحاجة ، ولولا حاجته التي يريدها منهم ما أحبهم ، أما حب الانسان الناضج فهو حب بين انسان وانسان وهو يتجلى في حاجة انسان ما لانسان آخر لا لشيء الا لأنه يحبه .

ان نمو القدرة على الحب وتطورها يرتبط أساسا بنمو وتطور موضوعات الحب ارتباطا وثيقا . فالشهور والسنوات الأولى في حياة الطفل تتميز بارتباط الطفل فيها ارتباطا وثيقا بأمه . وللحقيقة فان هذا الارتباط بين الطفل والأم يكون قد بدأ بالفعل قبل ولادة الطفل ، عندما كانت الأم والطفل شيئا واحدا ، ولكنها اثنان في نفس الوقت . ومن الملاحظ أن عملية الولادة لم تغير كثيرا من هذا الوضع كما قد يبدو ذلك ظاهريا ، فالطفل الذي كان بداخل رحم الأم ، قد أصبح الآن خارجه ، ولكنه مازال مرتبطا بأمه ومعتمدا عليها اعتمادا كليا . وفي فترة لاحقة يتعلم الطفل المشي ثم يتعلم الكلام واللغة ، ويبدأ في ادراك العالم بنفسه ، وهنا فقط تفقد العلاقة بين الطفل وأمه جزءا منها ، وهنا تبدأ علاقة الطفل بالأب في أخذ أهمية خاصة ، وتتطور هذه العلاقة لتصبح أكثر أهمية من علاقة الطفل بالأم .

ولفهم هذا التحول من الأم الى الأب يتحتم علينا أولا أن نتأمل الفرق الجوهرى بين كل من حب الأم وحب الأب للطفل . لقد تحدثنا حتى الآن عن حب الأم لطفلها ، وهو كما قلنا يقوم في جوهره على أنه حب بلا شروط وبلا مقابل . . ان الأم تحب وليدها لا لشيء الا لأنه طفلها ، وليس بسبب تمتع الطفل بمواصفات وشروط معينة تحقق للأم ماتصبو اليه . ولذلك فان هذا النوع من الحب يظل حلما

يراود بني الانسان جميعا وليس الأطفال فقط . ان هذا النوع من الحب يعطى الانسان شعورا من الثقة والأمان في أنه جدير بالحب . أما اذا تصور الانسان أنه لن يستطيع الحصول على حب انسان ما إلا اذا تمكن من ادخال البهجة والسعادة على نفس ذلك الانسان ، فانه سيطل في حيرة من أمره ، لأنه لا يستطيع أن يعرف ما اذا كان سيقدر على ذلك أم لا ، وربما فشل الانسان في دوره فأدى ذلك الى القضاء على الحب المنشود ، لأنه لم يثبت جدارته بهذا الحب . أي أن الحب في هذا التصور ما هو الا عملية تجارية تتوقف على مدى الفائدة التي تعود على الشخص الذي يخاطب الانسان وده وحب . ولذلك فانه لاغربة في أننا جميعا نتمسك بنمط حب الأم ونشتاق اليه دائما ، لأنه حب بلا شروط . وبالنسبة للأطفال فانهم لحسن حظهم يحصلون على هذا النوع من الحب سواء من الأم الحقيقة أو ممن يقوم مكانها ، ولكن هذا الحلم يصعب تحقيقه بالنسبة للكبار ويمكننا أن نلاحظ أنه في بعض الحالات المرضية أن حب الأم يظل باقيا في الإنسان ويحدث خلط بينه وبين الحب العشقي ، وغالبا ما يجد هذا الحب في حالة المرض طريقا للتعبير عن نفسه في مظاهر التدين العصابي .

علاقة الطفل بالأب :

تختلف علاقة الطفل بالأب عن علاقته بالأم تماما . الأم هي الوطن الذي أتى منه الطفل ، انها الطبيعة ، الأرض والبحر . أما الأب فهو على العكس من ذلك لأن جسمه لا يرمز الى شيء من الطبيعة أو الوطن مثل الأم . في السنوات الأولى من عمر الطفل لا يكاد يكون للأب علاقة قوية بالطفل ، بل ربما كانت هذه العلاقة غير موجودة ، وفي هذه المرحلة لا يمكن أن نقارن دور الأب في حياة الطفل بدور الأم ولا أن نقارن معنى الأب بمعنى الأم بالنسبة لأي طفل . واذا كان وضع الأب بالنسبة لطفله لا يسمح له بأن يكون رمزا لأي شيء في عالم الطبيعة فانه يحتل مكانه أخرى على الطرف الآخر ، وهو طرف الوجود الانساني ، فهو يمثل بالنسبة للطفل عالم العقل ، يمثل المبتكرات والمخترعات الانسانية ، ويمثل القانون والتخطيط والنظام . ان الأب يضطلع بدور المعلم المربي ، فهو يعمل جاهدا على أن يرى

الطفل الطريق الذي يجب عليه أن يشقه في الحياة . ومن ناحية أخرى فان هناك وظيفة أخرى ترتبط بوظيفة الأب ارتباطا وثيقا وهي وظيفة التنمية الاجتماعية والاقتصادية للطفل . فعندما عرف الانسان الملكية الخاصة عبر تاريخه الطويل وبدأ يستخدم نظام التوريث ، أي توريث الأبناء ممتلكات الآباء المادية ، كان الأب يهتم بالابن الذي سيخلفه في وراثة ما يملك بعد موته .

والابن الذي سيسعده الحظ بأن يكون خليفة الأب في ممتلكاته ، يجب أن يكون أكثر الأبناء قدرة على احتلال مكانة الأب ، وقد يكون هذا الطفل هو أكثر الأبناء شبيها بالأب من حيث الشكل ، كما أنه هو الابن الذي يجب أباه بدرجة أكبر من حب اخوته الآخرين للأب .

حب الأب لابنه اذن حب مشروط ، أي أنه لابد أن يكون له مقابل . والأساس الذي يقوم عليه هذا الحب هو : « انني أحبك يا بني طالما أنك تحقق لي آمالي فيك ، وطالما أنك تؤدي واجباتك بأحسن ما يكون وأيضا لأنك تشبهني » وإذا كان حب الأم غير المشروط لطفلها له جوانب سلبية وجوانب ايجابية ، فان حب الأب المشروط له أيضا جوانب سلبية وجوانب ايجابية . يكمن الجانب السلبي في حب الأب في حقيقة أنه لا يحصل على حب الأب الا من يستحقه ومن هو جدير به ، وهذا يعني أنه من الممكن أن يفقد الابن هذا الحب مرة أخرى اذا لم يلتزم بأداء ما عليه من واجبات . إن طبيعة حب الأب تقوم في جوهرها على الامتثال لما تمليه الفضيلة ، والابتعاد عن كل ما هو رذيلة أو معصية ، لأنه سترتب عليها العقاب والحرمان من حب ذلك الأب . أما الجانب الايجابي في حب الأب فهو على درجة كبيرة من الأهمية ، اذ أن كون هذا الحب مشروطاً ، يجعل من غير الممكن أن يحصل عليه الا القادر والا من هو جدير بهذا الحب ، وهذا ما يستثير امكانيات وقدرات الانسان ، والذي يستطيع أن يفعل هو الذي يستطيع أن يحصل على هذا الحب ، وبالتالي فان هذا الحب يغذي في النفس القدرة على التحكم الذاتي وعلى الاختيار الصعب بين الاحتمالات الممكنة ، وهذا على العكس تماما من حب الأم .

يعتبر موقف كل من الأب والأم نحو الطفل موقفا متناسبا مع حاجات الطفل

المختلفة خلال نموه . فالطفل الرضيع يحتاج الى أنواع من الحب غير المشروط ، كما يحتاج الى الأم التي ترعاه من الناحية الجسمية ومن الناحية النفسية . وعندما يصل الطفل الى عامه السادس من العمر ، تبدأ حاجته الى سلطة الأب وإلى حكمته وتوجيهه . تقوم الأم بمهمة توفير الأمن والأمان لطفلها ، وعلى الأب أن يتولى مهمة أخرى وهي مهمة تعليم الطفل وتوجيهه ، ومناقشة المشكلات التي يواجهها ومساعدته في حل هذه المشكلات . والأم الجيدة المحبة لطفلها لا تحاول أن تبقى عليه صغيراً فتحول بينه وبين النمو الطبيعي السوي ، فهي لا تكافئ الطفل دائماً على عجزه وعدم قدرته ، في فترة من فترات حياته حين تدرك الأم في تلك الفترة أن طفلها في حاجة الى الاعتماد على نفسه وعلى قدراته الذاتية . تدرك هذه الأم أن عليها أن تثق في الحياة ، وألا تكون قلقة منزعة على طفلها ، وأن عليها ألا تبذر بذور القلق في نفسه . يجب أن يكون لدى هذه الأم الرغبة في أن يتعلم طفلها الاعتماد على النفس ، وأن يتعلم الاستقلال ، وألا يظل عالة عليها فلا يفكر في الانفصال عنها ليعتمد على نفسه ويستقل بذاته .

أما حب الأب لطفله فيجب أن يكون حبا قياديا مرشدا وموجها للطفل وموضحا له السبل والأهداف . يجب أن يكون حب الأب لطفله متميزا بالصبر والتسامح وألا يكون حبا من النوع المخيف المهدد أو الحب المتسلط المتحكم يجب على الأب أن يتعهد طفله بالرعاية أثناء نموه المستمر ، وعليه أن يبصره وأن يشعره باستمرار بأنه (أي الطفل) يمتلك قوة ذاتية ويمتلك أيضا امكانيات وقدرات خاصة . وعلى الأب أن يسمح لطفله في مشاركته مشاركة ايجابية في عملية التخطيط والتوجيه ، حتى يتمكن الطفل أخيرا من الوصول الى درجة من النضج الذي يمكنه من الاستقلال الفعلي .

الانسان الناضج فعلا هو الذي يصل به نضجه في النهاية الى درجة يحس معها أنه قد أصبح أما لنفسه وأبا لنفسه . أي أنه قد استوعب كل معايير الأم والأب بداخله هو بدلا من أن تظل هذه المعايير موجودة خارجه متمثلة في شخصي كل من الأب والأم ، أنهما في هذه الحالة يصبحان ضميرا خلقيا يكمن في داخله .

يقول له ضمير الأم الذي أصبح بداخله : لانتخف فليس هناك خطيئة أو جريمة أو معصية يمكن أن تحول بين حبي لك ، وبين أمنياتي القلبية الدائمة لك بالحظ والسعادة والتوفيق في حياتك ، أما معيار ضمير الأب الكامن في داخله فيقول له : « إذا أخطأت فعليك أن تتحمل العواقب المترتبة على خطئك هذا ، ويجب أن تعلم بأنه عليك قبل كل شيء بأن تغير ما في نفسك إذا كنت تريد الحصول على حبي لك » .

وهكذا نرى أن الانسان الناضج قد تحرر بالفعل من السلطة الخارجية لكل من الأب والأم ، ولكنها تحولت الى سلطة داخلية تكمن في نفسه وفي ضميره . يرى فرويد أن الأنا الأعلى « أو مايسميه البعض بالذات العليا » عند الانسان الناضج ماهو الا نتيجة لتكوين ضمير للأم بداخل ذلك الانسان استنادا على قدرته هو الخاصة على الحب ، ولتكوين ضمير داخله للأب على أساس حكمته وقدرته الخاصة على التمييز والفصل ، وأن هذا الضمير لم يكن إلا نتيجة استدماجه للأم وللأب بداخله وضمهما الى نفسه . والحقيقة أن الانسان الناضج يحمل في داخله ضمير الأب والأم رغم تناقض هذين الضميرين واختلافهما . فاذا ازداد نمو الضمير الأبوي على حساب الضمير الأمومي فان هذا الشخص يصبح انسانا متزمتا وغير انساني في معاملته مع الآخرين . أما اذا استبقى الشخص الناضج بداخله ضمير الأم فقط ونهاه على حساب الضمير الأبوي فان هذا الشخص سيواجه بخطر فقدانه للقدرة على اتخاذ القرار ، وعدم القدرة المستمرة على تنمية نفسه .

وتعتبر عملية التطور من الارتباط بالأم الى الارتباط بالأب ومايرتب عليها ، عملية ذات أهمية خاصة ، ففي هذه العملية تكمن أسس الصحة النفسية كما تكمن امكانية الوصول الى مرحلة النضج بسلام . فاذا تعطلت عملية النمو والتطور هذه أو حدث مايعوقها فان هذا يعنى عدم امكانية الوصول الى النضج ، وهنا يجب أن نبحث عن الأسباب الأصلية للمرض النفسي . وفي الحدود التي يسمح لنا بها موضوع هذا الكتاب سنحاول الإشارة الى بعض الملاحظات التي توضح هذه الفكرة :

تكمن أحد أسباب المرض النفسي عند الذكور في حقيقة هامة ، وهي أن

تاريخ المرض النفسي يوضح لنا أن من يصابون به من الذكور كانوا أبناء لأمهات شديدة الحنان فياضة الحب ومبالغة في تدليلها إياهم ، وعلى الطرف الآخر كان الأب ضعيف الشخصية وليس لديه أي اهتمام بالطفل . يترتب على هذه الحالة أن يظل الولد مرتبطا بأمه ارتباطا وثيقا ويظل متعلقا بها ، ولا يستطيع أن يفصل عنها حتى في الوقت الذي يجب عليه فيه أن ينمي نفسه ويستقل بشخصيته .

وعندما يصل هذا الولد الى مرحلة النضج يكون انسانا بلا شخصية مستقلة ، انه يظل متعلقا دائما بأمه ، يظل يشعر بالعجز وبعدم القدرة ، وانه في حاجة الى انسان آخر يعتمد عليه ، انه في حاجة دائمة الى انسان يعطف عليه ويرعاه ويحميه ويوجهه . ان ما ينقص هذا الانسان في هذه الحالة ، هو أن الأب أو من كان يقوم مكانه لم يعط هذا الابن صفات الأبوة ، وأهمها صفات النظام والتخطيط والاعتماد على النفس والاستقلال في ادارة أموره بنفسه . ان مثل هذا الابن الذي فقد الأب متمثلا في صفاته التي كان يجب عليه أن يكتسبها ، سيظل يبحث بين كل الناس وفي كل الناس عن الأم ، يرى في النساء صورة الأم ، وقد يرى صورة الأم أيضا في الرجال ، هذا ومن الملاحظ أن كلا من الرجال والنساء الذي يرى فيهم هذا الشخص صورة الأم ، هم ممن يتمتعون بالقوة والسلطة وممن يتحكمون فيه ، وهذا هو ما يريد الوصول اليه .

أما اذا كانت الأم من النوع الذي لا يحب الأطفال ، فلم يشعر الطفل بحبها وحنانها له ، واذا كانت الأم قاسية ظالمة ، فمن المتوقع أن تتحول رغبة هذا الطفل من الحصول على حب الأم الى الأب ، ويترتب على ذلك أن ينمو الطفل ولديه ضمير أحادي فقط بسبب افتقاد الأم وحبها . هذا النوع من النمو سيؤدي الى تنمية أسس القانون والنظام والسلطة بدرجة كبيرة ومتضخمة ، مع نقصان القدرة على أن يحب بلا شروط ، أو حتى القدرة على أن يتوقع أنه سيحصل على الحب أو سيجد من يحبه . مع ملاحظة أن هذا النوع من النمو سيصبح أكثر حدة عندما يكون الأب متسلطا وملتصقا بالطفل . ولقد وضحت الأبحاث النفسية العلمية أن بعض أشكال المرض النفسي (العصاب) مثل الحواذ أو العصاب القهري يقوم أساسا على

الارتباط الأحادي بالأب أكثر من الارتباط بالأم ، بينما ترتبط أمراض أخرى مثل
المستيريا والادمان ، وعدم القدرة على مواجهة الواقع والاكتئاب النفسي ارتباطا
أساسيا بحالات الارتباط الأحادي بالأم فقط وانعدام دور الأب .

الباب الثاني أنواع الحب

مقدمة :

لا يعتبر الحب بالدرجة الأولى ارتباطا بشخص معين ، فالحب عبارة عن اتجاه نفسي يحدد سمات شخصية الانسان ، وهو بدوره يحدد علاقة الانسان بالعالم كله وليس بشخص واحد معين يمكن أن نطلق عليه الشخص المحبوب ، أو الشخص موضوع الحب . فاذا أحب شخص ما شخصا آخر فقط ولم يهتم بالآخرين ، ولم ينظر لهم بعين الاعتبار ، فان حبه في هذه الحالة لن يكون حبا وانما هو ارتباط عضوي أو بيولوجي ، أو قل انه نوع من الأنانية وحُب الذات . ورغم ذلك فان غالبية الناس يعتقدون أن الحب مشروط بوجود المحبوب أي الشخص موضوع الحب ، وليس مشروطا بقدرة الانسان على الحب . ويحاول غالبية الناس أن يقيمون الدليل على صحة ما يعتقدون من خلال اقتصار حبه على شخص واحد هو الشخص المحبوب وعدم حب أي انسان آخر . وما ذلك الا نوع من المنطق الصوري والاستدلال الكاذب الذي يبدأ من مقدمات خاطئة تؤدي بالضرورة الى نتائج خاطئة ولكنها تتفق مع تلك المقدمات . هذا وقد سبق أن أشرنا الى ذلك . ولأن الانسان لا ينظر الى الحب على أنه نشاط وسلوك ايجابي ، ولا ينظر اليه على أنه نشاط الروح وطاقتها ، فانه يعتقد أن كل المطلوب هو أن يوجد الشخص المناسب فقط ، وعندما يوجد هذا الشخص فان كل شيء سيتم من تلقاء نفسه دون بذل أي جهد . ان هذا التصور للحب يشبه تماما تصور شخص يريد أن يرسم صورة فنية ، فبدلا من أن يتجه الى تعلم الرسم وأصوله ليتمكن من رسم الصورة المطلوبة ، يصر على أن أهم شيء له هو أن يجد الشخص المناسب أو الموضوع المناسب الذي سيقوم برسمه أولا ، وأنه عندما يجد هذا الشخص المناسب أو ذلك الموضوع المناسب ، فان فرشاته ستجرى على لوحة الرسم بلا عناء وبلا تعب لتنتج الصورة المطلوبة . اذا أحببت شخصا ما فهذا يعني أنني أحب البشر جميعا ، أحب العالم أجمع ،

وأحب الحياة . اذا كان بإمكانني أن أقول لشخص معين «أنا أحبك» فيجب أن يكون بإمكانني أيضا أن أقول «انني أحب فيك كل البشر» انني أحب فيك كل العالم ، انني أحب فيك نفسي » .

اننا عندما نقول بأن الحب عبارة عن اتجاه نفسي ، فإن هذا لا يعني أنه مجرد اتجاه نحو شخص معين ، وإنما هو اتجاه نحو العالم كله ، ونحو كل البشر ، كما أننا لانعني أنه ليس هناك أنواعا مختلفة من الحب ، ذلك أن هناك بالفعل عدة أنواع مختلفة ، ويوجد بينها العديد من الاختلافات والفروق ، ويرجع هذا الاختلاف إلى موضوعات الحب المختلفة .

وفي الصفحات التالية سنحاول عرض عدة موضوعات من موضوعات الحب لنرى فيها أنواع الحب .

الفصل الرابع

١ - حب الغير وحب الآخرين

تقوم كل أنواع الحب أساساً على أساس واحد وهو حب الغير أو حب الآخرين . هذا يعنى الاحساس المتبادل بالمسئولية نحو الآخرين ، وكذلك الاهتمام المتبادل بالآخرين ورعايتهم ، وكذلك أيضاً الاحترام المتبادل والمعرفة المتبادلة بين أبناء البشر جميعاً . وهذا يعنى أيضاً وجود الرغبة المتبادلة في مساعدة الآخرين ومد يد العون اليهم . هذا النوع من الحب هو ما حثت عليه الأديان السماوية جميعاً ، ففي الانجيل نجد القول « حب لغيرك كما تحب لنفسك » ويقول حديث الرسول ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث آخر : « من كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ، ومن كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا يظهر له . . . » . وهنا نجد أن حب الآخرين يعنى حب جميع البشر بلا شروط ، وبلا مواصفات مسبقة . عندما يتمتع الانسان بالقدرة النفسية على الحب فانه لا يستطيع أن يمتنع عن حب الآخرين أو أن يتجنب هذا الحب ، ففي حب الآخرين توجد خبرة الحية الانسان الحية والمباشرة بالتوحد مع كل البشر ، كما توجد الخبرة الحية بالتضامن البشري والوحدة الانسانية . ويقوم حب الغير أو حب الآخرين أساساً على معرفتنا بأننا جميعاً من نفس واحدة « كلكم لآدم وآدم من تراب » ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١]

أما الاختلافات التي توجد بين البشر من حيث الذكاء والمعرفة والمواهب فانها ليست بذات أهمية كبيرة إذا ما قارناها بجوهر الوجود الانساني كله ، جوهر النفس والروح ، وهذا يعنى أننا جميعاً متشابهون تماماً . وإذا أراد الانسان أن يمر بهذه الخبرة الحية للتوحد البشري الانساني فعليه أن يعبر من الهامش الى الجوهر والمركز الذي يتحد فيه جميع البشر . اذا ظل الانسان مرتبطاً بالهامش الانساني ولا يرى غيره فانه لن يرى سوى الفروق الفردية والاختلافات القائمة والتي تميز كل منا عن الآخر ،

وتفريق بيننا . أما اذا تخطى الانسان حدود الهامش ووصل الى الجوهر فانه سيتعرف على جوهر الانسان وحقيقته ، ويعرف معنى وحدة الوجود الانساني كله ، ويعرف حقيقة الأخوة البشرية . «مثل المؤمنون في توادهم وتراحهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» . ان العلاقة بين جوهر وجوهر تختلف بطبيعة الحال عن العلاقة بين هامش وهامش ، فالعلاقة بين جوهر وجوهر هي مركز العلاقات الانسانية ومحورها . «أحبك» كلمة يقولها الرجل للمرأة وتقولها المرأة للرجل نفس الكلمة قد تكون كلمة عادية ومألوفة ورتيبة مملّة ، وقد تكون كلمة مختلفة عن غيرها من الكلمات ، وذلك وفقا للطريقة التي تنطق بها هذه الكلمة . ان طريقة نطق هذه الكلمة ذات الأربعة حروف ، لايمكن فصلها عن المنبع الذي صدرت منه ، المنبع النفسي الأصيل الذي يبعد عن التمثيل وعن التحكم الارادي . فاذا كان الرجل يعنى مايقول ، وكانت المرأة تعنى ماتقول بهذه الكلمة ، أي اذا خرجت كلمة الحب من الأعماق حقاً ، وكانت مليئة بالحرارة والدفء ، ومطابقة للشعور الحقيقي لكل من الرجل والمرأة ، فانها لاشك ستلمس في نفس الرجل وكذلك في نفس المرأة المشاعر والأحاسيس ، واذا كانت الزوجة أو الحبيبة تتمتع بحاسة القدرة على التمييز بين المشاعر الصادقة والمشاعر المزيفة فانها ستستطيع في هذه الحالة أن تعرف قيمة كلمة الحب .

يقوم حب الآخرين على افتراض التساوى بين البشر ، ولكن الواقع هو أننا كبشر لسنا متساوين دائماً ، اننا كبشر في حاجة مستمرة الى العون والمساعدة . فسنة الحياة «يوم لك ويوم عليك» واحساس الانسان بحاجته الى مساعدة الآخرين لايعنى أنه انسان عاجز في حين أن الآخرين يملكون مصدر القوة . ان الحاجة أو العجز عبارة عن حدث طارئ فقط ، أما القدرة على الاعتماد على النفس فهي الحالة الدائمة والسوية .

ان حبنا للعاجزين والمحتاجين والفقراء والغرباء هو أساس حبنا للآخرين . انه ليس حدثاً غريباً أن يحب الانسان لحمه ودمه ، فكل حيوان يحب صغاره ويرعاهم . والانسان العاجز يحب سيده لأن حياته مرتبطة به ومتوقفة عليه ،

والطفل يحب والديه لأنه في حاجة اليهما . فقط عندما يبدأ الانسان حبا غير مرتبط بأغراض وأهداف مادية أو غيرها ، حبا لا يخدم مصلحة ولا مادة ، في هذه الحالة يوجد الحب الحقيقي . ان الأديان السماوية كلها أديان سماحة وحب ، تحت الانسان في كل مراحل تاريخه على المسارعة الى فعل الخيرات . في الدين المسيحي نجد القول : « حبوا أعداءكم » ، وفي القرآن يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ ﴾ [الإنسان: ٨]

وهنا نجد بالإضافة الى المسكين واليتيم ، الأسير ، وهذا الأسير لابد أن يكون من الأعداء ، فهو يحننا حتى على حب الأعداء عندما يقعون في الأسر . وفي القرآن الكريم نجد الله سبحانه وتعالى في خطابه لنبيه محمد ﷺ يوضح حالته الأولى ويوصيه بالناس يقول : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۖ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾ [الضحى: ٦ - ١١]

ذلك هو الحب الذي يوضح حب المحتاج ، والمشاركة الوجدانية والفعالية للآخرين . ان حب الآخرين يبدأ بالاهتمام بالمحتاجين والعاجزين ومساعدتهم ، كما أن حب الانسان لنفسه يعنى حب كل انسان يحتاج الى مساعدة . ومشاركة الآخرين تحمل في داخلها عامل المعرفة والتعرف ، وهذا ما يجده قول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم محمد ﷺ ، لقد كنت يتيما وحيدا فأواك الله اليه ، وكنت ضالا عن الطريق فهداك الله اليه ، وكنت عائلا فمن عليك وأغناك فيما أنعم الله عليك ، لا تقهر اليتيم ، ولا تنهر المسكين ، واذكر نعمة الله عليك .

الفصل الخامس

٢ - حب الأم

لقد تحدثنا قبل ذلك عن حب الأم ، ووضحنا الفرق بين حب الأم وحب الأب . وكما سبق أن قلنا فإن حب الأم هو حب بلا شروط . . حب بلا مقابل ، يحفظ على الطفل حياته ويرعاه . وهنا يجب أن نضيف شيئاً هاماً وهو أن الاقرار بحياة الطفل الوليد والاعتراف بها له مظهران :

المظهر الأول هو كل أنواع الرعاية والاهتمام الضروريين للمحافظة على حياة الطفل الوليد .

والمظهر الثاني ينصب على التربية الجيدة ، وهذا يعنى الاتجاه النفسي نحو جعل الطفل يحب الحياة ، ونحو اعطاء الطفل الشعور بأن حياته مهمة وأنه يجب أن يعيش ، وكذلك اشعار الطفل بأن الطفولة شيء جميل سواء كان الطفل ذكراً أم أنثى .

هذين المظهرين للحب نراهما بوضوح في قصة الخلق التي نعرفها من خلال الدين . فقد خلق الله سبحانه وتعالى الكون كله قبل خلق آدم وسخر له كل شيء . . وفر له كل شيء ليحفظ عليه حياته ، وخلق في أحسن تقويم ، في أي صورة ماشاء ركه ليكرمه على سائر المخلوقات ، ليقوم بدور خليفة الله في الأرض ، وليشعره بقيمته وبأهميته وبأهمية حياته . هذه الأهمية التي أعطاها الله للإنسان قريبة الشبه بتلك الأهمية التي تعطيها الأم لوليدها ، واشعارها له بسعادتها بولادته وبمقدمه ، وهذا يعطى الطفل شعوراً بالرغبة في الحياة وبحبها ، وليس فقط مجرد الرغبة في البقاء حياً .

وإذا كنا نرمز دائماً للأم بالأرض أو الوطن ، فإن هناك في بعض القصص الديني ما يشير إلى أرض اللبن والعسل . واللبن هو الرمز الأساسي لأول مظاهر الحب والرعاية والاعتراف بالحياة . أما العسل فإنه يرمز إلى حلاوة الحياة وجمالها ، وإلى حب الحياة ، وإلى السعادة التي ينتظرها الإنسان في الحياة . انه

بامكان كل الأمهات تقريبا أن يعطين اللبن أطفالهن حديثي الولادة ، أي أنه بامكان معظم الأمهات أن يقمن بإرضاع أطفالهن ، ولكن القليل من الأمهات هن القادرات على إعطاء العسل . وحتى تتمكن الأم من أن تعطى العسل ، فانه لا يكفي فقط أن تكون أمًا جيدة ، وانما يجب أن تكون الى جانب جودتها أما وانساعة سعيدة ، وهذا الهدف لا يستطيع الوصول اليه كثير من الأمهات . اننا لانبالغ هنا في تقدير تأثير الأم على وليدها ، فان حب الأم للحياة ينتقل من الأم الى الطفل بالعدوى ، كما تنتقل اليه أيضا مخاوفها وقلقها من الحياة . ان كلا من حب الأم وتفاؤلها بالحياة من ناحية ، وخوفها من الحياة وقلقها من ناحية أخرى ، يؤثران على الطفل تأثيرا كبيرا ، ويؤثران على تكوين شخصيته في المستقبل . وفي الواقع فان الانسان يستطيع أن يميز في الأطفال بين الأطفال الذين شربوا اللبن فقط وبين الأطفال الذين شربوا اللبن والعسل .

ان حب الأم لطفلها يختلف عن حب الآخرين وعن الحب الجنسي الذي يقوم على المساواة فالعلاقة بين الأم ووليدها تختلف عن ذلك تماما ، لأنها علاقة تقوم بين شخصين أحدهما عاجز تماما يريد الحصول على كل شيء ، والثاني عليه أن يقدم كل شيء ، ولا ينتظر الحصول على جزء في مقابل مايقوم به . وعلى أساس أن هذا النوع من الحب فريد في نوعه لأنه بغير عائد ، فان حب الأم يعتبر هو أعلى أنواع الحب وأرفعها درجة ومكانا ، كما أنه يعتبر من أكثر أنواع الارتباط العاطفية قداسة . . انه ارتباط عاطفي مقدس .

وتبدو قمة الاعجاز في حب الأم ليس في حبها لوليدها الرضيع ولكن في حبها لطفلها المستمر في النمو . فالحقيقة أن معظم الأمهات يحبين أطفالهن طالما كان الأطفال صغارا عاجزين وفي حاجة الى رعاية الأم وعنايتها . ان معظم النساء يرغبن في الحصول على أطفال ، كما أنهن يسعدن بمولود الطفل (الحادث السعيد) ولا يستطيعون الانتظار حتى يتمكن الطفل من الاعتماد على نفسه ، رغم أنهن لا ينتظرن بل لا يتوقعن أن يحصلن من الطفل على أي مقابل ، اللهم الا نظرة رضاء وسعادة ، أو ضحكة ترسم على وجه الطفل تعبيرا عن ابتهاجه وسعاده . قد

يقال أن غريزة الأمومة لدى الانسان هي نفسها غريزة الأمومة عند الحيوان ولكننا في هذه الحالة سوف نهمل العوامل الانسانية والنفسية ، وهي العوامل المسئولة عن حب الأم . وفي حب الأم نجد عنصر النرجسية النفسية ، أي عنصر حب الذات ، فلأن الأم قد عايشَت الطفل جزء منها وهو بداخلها ، فان حبها لطفلها ولهفتها عليه قد تكون اشباعا لنرجسيتها النفسية . وقد تكمن أحد جذور حب الأم أيضا في رغبتها في الحصول على السلطة والملكية . فالطفل العاجز تماما عن رعاية نفسه ، والذي يخضع لرغبات الأم هو الموضوع الطبيعي الذي تمارس فيه الأم - اذا كانت أما ظالمة مستبدة - احساسها بالسلطة وبالتملك . وبمقدار تكرار هذه الدوافع يكون احتمال نقصان أهميتها عن تلك التي تتميز بالسعي المتواصل والجهد نحو تخطي كل الحدود المادية . وهذا المطلب هو أحد الحاجات الأساسية للانسان لأنه يعتمد على وعي الانسان بذاته ، وعلى أن الانسان لا يقتنع بدوره في الحياة كمخلوق خرج الى الحياة كما تخرج زهرة لعب الطاولة من بين أصابع اللاعب ، أي أن الانسان لا يقتنع بأن يكون وليد الصدفة والحظ ، لا يملك لنفسه شيئا . يريد الانسان أن يشعر بكيانه الخاص ويريد أن يشعر أيضا بأنه قادر على الابداع والصنع ، وبأنه كائن استطاع أن يتخطى حدود ضعفه وسلبيته . وهناك عديد من الاحتمالات التي يتمكن الانسان عن طريقها من تحقيق رغباته واشباع حاجاته ، وأكثر هذه الاحتمالات وضوحا وتحديدا ، وأكثرها ارتباطا بطبيعة الانسان هي حب الأم ورعايتها لوليدها الذي أنجبته الى الحياة . ففي الطفل ترتفع الأم فوق ذاتها ، لأن حبها لطفلها يعطى حياتها معنى وقيمة .

ولكن الطفل يجب أن ينمو ، ويجب أن ينفصل عن الأم . انه يخرج من الأم بالولادة ثم ينفطم بعد ذلك عن الرضاعة ، اذ عليه أن يصبح كائنا بشريا مستقلا معتمدا على ذاته . وهنا يكمن حب الأم في رعايتها المستمرة لطفلها المستمر في النمو ، وهذا يعنى أيضا العمل على مساعدة الطفل على الانفصال عنها ليستقل بذاته . وهنا أيضا يكمن الفرق الأساسي بين حب الأم وبين الحب الجنسي .

ففي حالة الحب الجنسي يقوم شخصان كانا منفصلان عن بعضهما حتى هذه

اللحظة بالاتحاد متمثلا في الفعل الجنسي . أما في حب الأم فيحدث العكس ، اذ كان الشخصان في البداية شيئا واحدا (جنين في داخل أحشاء الأم) ثم بدأ ينفصلان . على حب الأم أن يتحمل ليس فقط معاناة انفصال الطفل عن أمه التي تحب أن تحتفظ به ، وانما يجب أن تكون الرغبة في الانفصال كامنة فيه ، بل الأكثر من ذلك أن تساعد الطفل على النمو والانفصال . وفي هذه المرحلة يدخل حب الأم في وضع تكون التبعات الملقاة عليه شاقة وصعبة ، ذلك أنها مرحلة تتطلب انكارا للذات ، وقدرة على إعطاء كل شيء بلا مقابل . وكل ماتطمع فيه الأم بعد ذلك هو أن تتمنى لطفلها الحبيب حظا سعيدا وتوفيقا في الحياة .

في تلك المرحلة الصعبة ، وفي لحظة الانفصال بالذات بين الأم وطفلها ، تعجز الكثير من الأمهات عن اتمام دورهن . فالمرأة النرجسية ، المحبة لذاتها فقط ، وكذلك المرأة الظالمة المستبدة بإمكانها أن تكون أما فياضة بالحب لطفلها طالما كان الطفل صغيرا عاجزا ، فاذا ماكبر الطفل وأراد الانفصال عنها كانت الكارثة الكبرى . (قد يظهر ذلك بوضوح في مشكلة الحماية التي تشعر بأن ابنها قد انفصل عنها ، وأن امرأة أخرى قد أخذته منها) ان المرأة التي تحب بحق ، هي المرأة التي يسعدها العطاء أكثر مما يسعدها الأخذ ، وهي المرأة التي لا تنسحب بوجودها هي فقط وبسعادتها هي فقط ، هذه المرأة يمكن أن تكون هي الأم التي تحب طفلها بعمق ، وتحبه أيضا بنفس الدرجة حتى وهو في مرحلة انفصاله عنها .

ان حب الأم لطفلها النامي ، ذلك الحب الذي لا يبغي تحقيق مصلحة خاصة للأم ، أو للمحب ، قد يكون هو أصعب وأشق صورة من صور الحب على الإطلاق ذلك لأنه حب بلا عناء ، فالأم تحب طفلها بلا معاناة وبلا تصنع « ومن ناحية أخرى فان هذا الحب لا يعطى مقابلا ، ولذلك فان هذا النوع من الحب يخيب رجاء من يحب بغرض الوصول الى هدف معين أو الحصول على مقابل . انه حب لذاته ، حب منزّه عن كل الأغراض ولذلك فانه من أشق وأصعب أنواع الحب على الانسان . وبسبب صعوبة هذا النوع من الحب فان المرأة لا يمكنها أن تكون أما جيدة محبة لطفلها الا عندما يكون بإمكانها أن تحب بصفة عامة ، وعندما

تكون قادرة على حب زوجها وعلى حب الأطفال الآخرين ، وعلى حب كل الناس . . كل البشر . وكل امرأة غير قادرة على الحب بهذا المعنى ، لن تتعدى أن تكون أما تحافظ على وليدها في صغره وترعاه ، ولكنها لن تكون بأي حال من الأحوال أما محبة لهذا الطفل ، والدليل الواضح على ذلك هو مدى استعداد الأم النفسي والعقلي ليس فقط لتحمل صدمة انفصال الطفل عنها ، ولكن أيضا قدرتها على حب طفلها بعد انفصاله عنها .

الفصل السادس

٣ - الحب الجنسي

يقوم حب الآخرين أو حب الغير بين أشخاص على نفس الدرجة ، أي أشخاص متساوون ، أما حب الأم فهو حب القادر للعاجز والمحتاج . وبالرغم من وجود اختلاف بين هذين النوعين من الحب إلا أن هناك صفة مشتركة تجمع هذين النوعين من الحب معا . هذه الصفة هي أنهما حب لا يتوقف ولا يقتصر على شخص محدد بعينه ، فعندما أحب الآخرين فإن هذا يعني أنني أحب كل البشر ، وعندما أحب طفلي فإن هذا يعني أنني أحب كل أطفالى وكذلك أحب فى أطفالى كل الأطفال ، فهم جميعا فى حاجة إلى المساعدة .

وعلى النقيض من هذين النوعين من الحب نجد الحب الجنسى . والحب الجنسى يعنى الرغبة فى التوحد الكامل ، والرغبة فى الذوبان مع وفى الشخص المحبوب ، فى هذه الحالة تنتج طاقة الحب إلى شخص واحد بعينه ، ولا تشمل ماعداه . وقد يكون هذا النوع من الحب هو أكثر أشكال الحب غموضا .

وقبل كل شىء يجب مراعاة أن مفهوم هذا النوع من الحب غالبا ما يختلط بمفهوم الخبرات العاطفية التى تكون وليدة الصدفة ، والتى تتميز بالذوبان والانهياء المفاجئ لكل الحدود والحوافز التى كانت تفصل - حتى هذه اللحظة - بين شخصين (رجل وامرأة) لم تكن توجد بينهما قبل ذلك أية علاقة . وكما سبق القول فإن هذه الخبرة السريعة المفاجئة للعلاقة الحميمة بينهما يتم تكوينها فى وقت قصير ، فقد تتم بعد لحظات قليلة من الالتقاء بين رجل وامرأة وبعد أن يصبح الرجل الذى كان غريبا منذ لحظات ذا علاقة حميمة بالمرأة التى التقى بها وتزوجها ، تختفى الحدود التى كانت تفصل بينهما ، والتى كان يتحتم عليهما أن يتغلبا عليها ويتخطياها ، فلم يعودا بحاجة إلى بذل أى جهد يهدف لمعرفة كل منهما للآخر معرفة أكثر وأعمق ، أو ليقتربا من بعضهما أكثر من ذلك ، لقد ظل كل منهما يمثل بالنسبة للآخر موضوعا جنسيا فقط . إذا أدت هذه الخبرة بأحدهما إلى أن

يتعمق في معرفة الآخر ، فان هذا التعمق في حد ذاته سيوضح له أنه يجهله تماما ، ولا يعرف عنه شيئا . . . وشيئا فشيئا تهدأ اندفاعه الحب العشقي الغريزي المفاجيء ، ويظهر لكل منهما بوضوح أن المعجزة التي جعلتهما يتخطيان الحدود ويلتقيان في علاقتهما الشبقية الحميمة لم تكن إلا رد فعل للحرمان والعزلة التي كانا يعيشان فيها .

قد يتوهم الكثيرون أنهم على درجة تمكنهم من معرفة أنفسهم ومن معرفة الطرف الآخر (موضوع الحب) ، وذلك مرجعه الحقيقي هو أنهم يكتفون بالقشور الخارجية وبالمظهر ولا يحاولون التعمق في المعرفة . ان العلاقة العشقية الجسدية والجنسية تأتي بالنسبة لهؤلاء الناس في المكان الأول ، وهي تبدأ عادة بالاعجاب بالجسم . ان هذا كله يعنى أن ذلك الرجل وتلك المرأة يحسان الانفصال انفصالا جسديا ماديا بالدرجة الأولى ، ولذلك ينجى الاتحاد الجسدي بموضوع الحب بالنسبة لهما على أنه دليل على تمكنهما من التغلب على العزلة والانفصال .

هناك أيضا مجموعة من الطرق والوسائل التي يستخدمها الانسان للتخلص من عزلته وانفصاله عن الآخرين ، مثل أسلوب الحديث عن الذات وعن الحياة الخاصة ، وكذلك الحديث عن الآمال والأحلام ، أو عن المخاوف والقلق ، وكذلك الحديث عن سنوات الطفولة وخبراتها وأحلامها ، وهناك أسلوب آخر هو محاولة اظهار قدر من الاهتمام والمشاركة في مواجهة المشكلات وحلها . أضف الى ذلك أن أسلوب اظهار الغضب أو التعبير عنه ، وكذلك التعبير عن الكراهية ، أو اظهار شعور الكراهية لشخص ما ، وأيضا حالات نقص الحياء أو انعدام الشعور بالخجل ، يمكن اعتبارها مظهرا من مظاهر الانفصال الجسدي في مقابل العلاقة الجسدية الحميمة . وهذا يوضح لنا أن الجاذبية غير العادية التي تشعر بها الزوجة نحو زوجها ويشعر بها الزوج نحو زوجته لاتعبر عن نفسها بوضوح وعمق الا في حالة الالتقاء الجسدي والاتحاد الحميم ، حيث يتخلص كل منهما من عناصر الكراهية والخجل تجاه الآخر .

ولكن علينا ألا ننسى أن الحب العشقي الجسدي القائم على الاتحاد الجنسي حب يتسم بالوهن والضعف ، انه يختفى شيئا فشيئا ، وتكون النتيجة أن يبدأ

الانسان من جديد في البحث عن حب جديد مع انسان آخر . ومرة أخرى تعيد الكرة نفسها حيث يتحول انسان ما كان غريبا الى انسان آخر ذا علاقة شبقية حميمة مع موضوع الحب الجديد ، وتعود الفرحة والسعادة الى هذا الانسان مرة أخرى ، ومع الزمن تبدأ هذه العلاقة في الفتور والضعف حتى تنتهي ، وبذلك تعاود الدورة بدايتها الأولى في البحث من جديد عن حبيب آخر ، وفي كل مرة يعمل الخيال على تصوير الحب الجديد بأنه سيكون شكلا آخر غير تلك الأشكال التي خبرها حتى الآن ، وهذا الخيال والوهم في حد ذاته ماهو الا نتيجة لسمة الخداع في العلاقة الجنسية .

لايمكن القول بأن هدف العلاقة الحميمة هو مجرد الاشباع البيولوجي والتخلص من التوتر البدني الذي يعاني منه الانسان نتيجة للحرمان . وفي الحقيقة فان الخوف من الوحدة والعزلة يؤدي الى زيادة الاحساس بالرغبة الجنسية ، وكذلك فان رغبة انسان ما في امتلاك انسان آخر ، أو رغبة ذلك الانسان في منح نفسه لانسان آخر تعتبر مسئولة أيضا عن استثارة الرغبة الجنسية . وقد يكون غرور الانسان وتعاليه ، أو رغبته في ايلام الآخرين وتدميرهم سببا لاثارة الرغبة الجنسية . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى قد يكون الحب هو المسئول الأول عن اثارة الرغبة في اقامة العلاقة الجنسية مع موضوع الحب .

من الواضح أن الرغبة الجنسية ، وازدياد حدة التوتر الجنسي يرتبطان ارتباطا كبيرا بكل أنواع المشاعر النفسية العميقة والمركزة من جانب ، ومن جانب آخر فان الرغبة الجنسية ترتبط ارتباطا كبيرا بالحب ، كما أن الحب يقوي هذه الرغبة وينميها . وحيث أن الرغبة الجنسية ترتبط في أذهان الكثيرين بالحب فقط ، فان غالبية الناس يعتقدون خطأ أن الرغبة في اقامة علاقة جنسية مع شخص ما ، ان هي الا دليل على الحب لهذا الشخص .

حقيقة ان الحب قد يكون هو المسئول وهو المحرك الأول لاستثارة الرغبة الجنسية في موضوع الحب . اذا كان الأمر كذلك ، أي اذا كانت الرغبة الجنسية هي

وليدة الحب فعلا ، فان هذه العلاقة الحميمة لن تقوم على أساس التخلص من التوترات البيولوجية ، ولن تكون العلاقة الحميمة نتيجة لرغبة في تملك شخص آخر ، وانما ستكون أساساً للحصول على مزيد من الحب ، وللحصول على مزيد من الحنان ، من الشخص موضوع الحب ، في مقابل الحب والحنان الذي يمنحهما الشخص المحب . أما اذا كانت الرغبة الجنسية ماهي الا وليدة التوتر البيولوجي فقط ، مع انعدام الحب ، واذا كان الحب العشقي الجنسي لموضوع الحب لايقوم على أساس من حب الآخرين فانه لن يؤدي الا الى اتحاد عابر يتمثل في اشباع شهوة جنسية عابرة .

تقوم الجاذبية الحميمة بين شخصين توهم كل منهما في لحظة خاطفة بأنه تغلب على الانفصال وانتقل الى حالة من الاتحاد . ولكن الاتصال الشبقي بغير حب حقيقي ستكون نتيجته هي العودة الى الانفصال من جديد بعد انتهاء الفعل الشبقي . . . سيشعر كل منهما بنفس درجة الانفصال التي كان يشعر بها قبل حدوث الالتقاء الشبقي . سيشعران أنها غرباء يحجل كل منهما من الآخر ، وقد يكره كل منهما الآخر بعد انتهاء اللقاء بينهما والشعور من جديد بالانفصال القاسي . . . وربما كان هذا الشعور بالانفصال أكثر حدة من ذي قبل ، بعد أن زال الوهم الكاذب بأنهما متحدان .

ليس الحنان كما تصوره بعض النظريات النفسية ماهو الا اعلاء للغريزة الجنسية ، انه في معناه الصحيح هو التعبير المباشر عن حب الآخرين ، ويمكن أن نجده في أشكال الحب الجسدي الجنسي وكذلك في أشكال الحب الروحي .

ويتميز حب الجنس الآخر بسمة خاصة لا توجد في حب الآخرين ، ولا توجد أيضا في حب الأم . هذه السمة الخاصة بالحب الجنسي هي سمة الرغبة في ملاحظة الشخص موضوع الحب ومعرفته عن قرب . وغالبا ماتفهم هذه السمة على أنها رغبة في الارتباط التملكي للشخص الآخر والسيطرة عليه . وغالبا مانجد رجلا وامرأة يحب كل منهما الآخر ، ويقتصران بالحب على نفسيهما فقط فلا يجبان أحداً آخر . إن حبهما ماهو في الحقيقة الا أنانية مشتركة وحباً للذات . وهناك أشخاص

يندمج كل منهم في شخصية شريك أو شريكة حياته ، وبهذا يحلون مشكلة الانفصال بجعل نفسيهما شخصا واحدا ينقسم الى شخصين ، ثم يعتقدان أنها قد تخلصا بذلك من الوحدة . فلأنهما قد انفصلا عن باقي العالم سيظلان هما أيضا منفصلان عن بعضهما ، وسيشعر كل منهما تجاه الآخر بالغربة . ان خبرة التوحد لمثل هؤلاء الأشخاص ماهي الا وهم . الحب الجنسي الحقيقي هو حب شامل ، فالمحب يحب في محبوبه كل الناس وكل الكائنات الحية . الحب الجنسي يتميز بإمكانية ذوبان الشخص المحب في موضوع الحب ، وباحساس المحب بذاته الكاملة وبوجوده في حضرة المحبوب فقط .

ان اقتصار الحب الجنسي على موضوع الحب فقط لايعنى عدم حب الآخرين ، وانما هو اقتصار فقط فيما يختص بالاتحاد الجنسي بين المحب وموضوع الحب ، وذلك بهدف الوصول الى الاخلاص الكامل للحب في جميع مظاهر الحياة ، ولكن ليس بهدف تعميق حب الآخرين على حساب موضوع الحب .

يعتمد قيام الحب الجنسي في حقيقته على أساس محدد وهو : ان حبي ينبع من وجودي ، كما أن معاشتي للآخرين وخبرتي بهم تتم من خلال وجودهم . والوجود الانساني للآخرين يعني أنهم جميعا متساوون . . اننا جميعا أجزاء من نفس واحدة ، اننا جميعا هذه النفس الواحدة . ولأن الأمر كذلك فمن الواجب أن تكون هناك مساواة وعدالة في الحب . وفي الحقيقة فان الحب يجب أن يكون نشاطا للارادة ، انه اختيار وتقرير أن أعطى حياتي كاملة لموضوع حبي الذي اخترته ، وهذه هي الفكرة التي تقف خلف التصور المسيحي لحياة زوجية ليس فيها طلاق ، ولايفرق الارتباط فيها الا الموت ، ونفس الفكرة في الزواج الاسلامي الذي يجعل الطلاق ابغض الحلال الى الله (إن أبغض الحلال الى الله هو الطلاق) .

يعتقد الكثيرون أن الحب ماهو الا نتيجة لرد فعل الشعور والاحساس القوي الطبيعي الذي يجعل انسانا ماينتقل فجأة من حالة الهدوء الى حالة من الشعور القوي نحو شخص معين . ونلاحظ أن وجهة النظر التي تكمن في هذا الاعتقاد تأخذ في الاعتبار فقط الخصائص المميزة لكل من هذين الشخصين فقط ، وتهمل

حقيقة أن كل الرجال ان هم الا جزء من آدم أبو البشر ، وأن كل النساء ماهن الا جزء من حواء أم البشر . لا يريد الانسان أن يعترف بعامل هام في الحب الجنسي وهو عامل الارادة . ان حب انسان لانسان مجرد شعور جارف نحو هذا الشخص موضوع الحب وانما هو اتخاذ قرار ، انه اصدار حكم واعطاء وعد . فاذا لم يكن الحب سوى الشعور كما يتصور البعض ، فان هذا يعنى أنه لا توجد أسس لوعد يقطعه انسان على نفسه بأن يحب شخصا معينا مدى الحياة . ان المشاعر والأحاسيس متقلبة متغيرة ، انها تأتي ثم تختفي ، وقد تظهر من جديد مرة أخرى فكيف يستطيع انسان ما أن يقرر أن شعوره بالحب هذا سيبطل قائما مدى الحياة أم لا ، اذا لم يكن حبه بمثابة اصدار حكم أو اتخاذ قرار ؟

من هذا المنطلق يستطيع الانسان أن يتوصل عن طريق المنطق الخاطيء الى أنه يوجد بالحب عامل الارادة والتفاني والاخلاص بدرجة تجعل من غير المهم معرفة من هم الشخصان الذان يجب كل منهما الآخر . وفي حالة الزواج سواء كان الزواج قد تم عن طريق الاختيار المباشر لشريك الحياة أو عن طريق الوساطة وتدخل الآخرين ، فان على الارادة أن تقوم بتأمين الحب الذي قد يكون قائما وذلك بمجرد اتمام عقد الزواج أي أنه لا داعي لأن ينشأ الحب قبل الزواج . قد تبدو هذه النظرة لدى الشخصية المترددة غير قادرة على فهم الطبيعة الانسانية ، وغير قادرة على فهم الحب الجنسي ، اننا جميعا نفس واحدة ، ومع ذلك فان كلا منا يعتبر فريدا في ذاته ، وأنه كائن لا يتكرر وجوده مرة أخرى . وبالدرجة التي نصل فيها الى الشعور بأننا نفس واحدة ، سيستطيع كل منا أن يحب غيره ، وبمقدار شعورنا بالتفرد والاختلاف ، بمقدار ما يتطلب الحب الجنسي عناصر محددة وفريدة تميز صاحبها ، وهذه العناصر قد توجد لدى بعض الناس ، ولكنها بالتأكيد لن تكون متوفرة لدى كل الناس .

الفصل السابع

٤ - حب الذات (حب النفس)

بينما نجد أن مفهوم حب الغير أو حب الآخرين مفهوما عاديا ومقبولا ، وبينما نجد أن الاعتقاد في أن حب الآخرين فضيلة ، فإننا نجد على الجانب الآخر اعتقاداً بأن حب الذات رذيلة . هذا الاعتقاد الذي لا يقر حب الذات يرى أن الشخص عندما يحب نفسه ، فلن يمكنه أن يحب الآخرين . أي أن حب الذات أو النفس يعتبر نوعاً من الأنانية لدى الشخص يعطله ويعوقه عن حب الآخرين . ويمكن تتبع هذا الاعتقاد في ثقافة الغرب ، كما يمكن رؤيته بوضوح في ثقافة الشرق . فنجد أن " كالفن Calvin, ch. " ترى أن حب الذات يشبه الطاعون ، ونجد " فرويد Freud, s. " يتحدث عن حب الذات ويربطه بالمرض النفسي ، ثم يتوصل في النهاية إلى ما توصلت إليه " كالفن . يرى " فرويد أن حب النفس أو حب الذات ان هو الا نوع من النرجسية النفسية ، التي تتحول فيها طاقة الليبدو النفسي إلى ذات الانسان نفسه ، بدلا من أن تتجه إلى الآخرين ، أي أن الانسان هنا ينسحب من عالم الآخرين ، ويتمركز على نفسه فقط فتتقطع العلاقات بينه وبين الآخرين ، ليصل الانسان في أعلى درجات المرض النفسي إلى الانفصام الكامل عن العالم الذي يحيط به . وهنا يعيش هذا الانسان في عالم خيالي بعيدا عن الواقع . والنرجسية هي أول مراحل النمو الانساني على الإطلاق ، والانسان الذي يرتد إلى هذه المرحلة بعد وصوله إلى مرحلة النضج يكون من الصعب عليه أن يحب ، انه يصبح انسانا مريضا .

يفترض " فرويد " أن الحب هو مظهر للنضج الجنسي ، وأن طاقة الليبدو النفسية اما أن تتجه إلى الآخرين في صورة الحب ، واما أن تتجه إلى الذات متمثلة في حب الذات .

ان الحب وحب الذات يقفان هنا متعارضين وجها لوجه ، كما لو كان كل منهما يتم على حساب الآخر . فاذا ازدادت درجة حب الذات نقصت درجة حب

الانسان للآخرين . كما أن حب الآخرين يكون دائما على حساب حب الذات .
وإذا كان حب الذات عيبا أو رذيلة فإن النتيجة الحتمية هي أن تتمثل الفضيلة في
حب الآخرين .

إذا عدنا بهذا المفهوم لحب الذات الى مجتمعا الشرقي سنواجه بالمثل الشعبي
القائل " من أحب نفسه كرهه رفاقه " وسنجد أيضا أن حب الذات يرتبط في
أذهاننا دائما بمفهوم الأنانية ، والانسان الأناني لا يستطيع أن يحب أحدا غير نفسه
هو والأنانية في حد ذاتها رذيلة وتقابلها في مفهومنا فضيلة حب الآخرين وإيثارهم
على النفس " ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]

ان الاجماع في كل الثقافات على اعتبار حب الذات رذيلة يقابلها فضيلة حب
الآخرين يجعلنا نطرح الأسئلة التالية : - هل أثبتت الملاحظة العلمية في مجال علم
النفس أن هناك تعارضا بين حب الذات وحب الآخرين ؟ - وهل يمكن
أن نعتبر حب الذات هو والأنانية شيئا واحدا أم أن هناك اختلافا بينهما ؟ - وهل
يمكن أن نعتبر أنانية الانسان المعاصر ، ماهي في حقيقتها الا حبا للذات بكل
المعايير العقلية والفكرية والانفعالية ؟ - وهل الأنانية هي نفسها حب الذات أم
أنها نتيجة لنقص في حب الذات ؟

قبل أن نتعرض لوجهة نظر علم النفس في الأنانية وحب الذات ، علينا أن
نشير أولاً الى ذلك الاستدلال الخاطيء الذي يرى أن حب الآخرين وحب الذات
لا يجتمعان " وعلينا ألا ننسى أنه اذا كانت هناك فضيلة تتمثل في حب الآخرين
ككائنات حية وكائنات انسانية ، فلا بد أن تكون هناك أيضا فضيلة أخرى هي
فضيلة حبي لذاتي بصفتي كائنا انسانيا مثل الكائنات الأخرى التي يعتبر حبي لها
فضيلة ، ولماذا لا يكون حبي لنفسي كائن انسان أيضا فضيلة ؟ لا أعرف أنه يوجد مفهوم
للانسان يمنعني من أن أكون انسانا مثل غيري من البشر ، وعلى ذلك فإنه من
البديهي أن يظهر التعارض والخلاف عندما يسلم الانسان بحبي للآخرين ،
ولا يسلم بحبي لذاتي ، مع أنني مثل الآخرين كائن انساني سواء بسواء .

ان الحث على حب الآخرين الذي نجده مسطورا في الكتاب المقدس " حب
للآخرين ماتحبه لنفسك " والذي نجده في حديث الرسول محمد ﷺ « لا يؤمن
أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » يعني أن الاعتزاز بالنفس والشعور بالتفرد
لا يمكن أن يفصل عن حب الذات وفهمها ، كما لا يمكن أن يفضل حبي وفهمي
للآخرين عن حبي لذاتي وفهمي لنفسي . ان حبي لذاتي يرتبط ارتباطا وثيقا بحبي
لأي انسان آخر . وبهذا نصل الى الأصول والى القواعد النفسية التي نقيم عليها
موقفنا .

ولنتأمل المجموعة التالية من الشروط :

اننا يجب أن نتعامل مع أنفسنا ومع الآخرين كموضوعات . . ان مشاعرنا
وأحاسيسنا واتجاهاتنا نحو أنفسنا ونحو الآخرين لا تتعارض مع بعضها ، وانما
تسير في خطوط متوازية .

إذا طبقنا ذلك على المشكلة التي نتناولها الآن فسنجد أن حبنا لأنفسنا لا يمكن
أن يكون بديلا عن حبنا للآخرين ، كما أن حبنا للآخرين لا يمكن أن يكون بديلا
عن حبنا لأنفسنا ، بل على العكس من ذلك فان حب الذات لا يوجد الا لدى من
لديه القدرة على حب الآخرين . ان الحب لا يقبل التجزئة النسبية طالما أنه يتعلق
بحبنا لأنفسنا كموضوعات ، وبحبنا للآخرين أيضا كموضوعات . والحب
الحقيقي هو تعبير عن القدرة الانتاجية للنفس ، وهي قدرة تتضح في الرعاية وفي
الاحترام وفي الاهتمام وفي المعرفة . ليس الحب مجرد انفعال عاطفي بالمعنى السلبي
للفعل اللاإرادي ، وانما هو نشاط ايجابي فعال يهدف الى تحقيق الذات والى تحقيق
سعادة الانسان ، والى السعي نحو الشخص موضوع الحب . هذا النشاط الفعال
يعتمد أساسا على وجود القدرة لدى الانسان على الحب .

هناك حقيقة تكمن خلف حب انسان لانسان آخر ، وهي الرغبة في تحويل
الطاقة الانسانية والقدرة على الحب المطلق الى حقيقة واقعة . وتنصب القواعد
الأساسية المقبولة في الحب أساساً على الشخص موضوع الحب في صورة اندماج

عضوي جسدي وكذلك في صورة التقاء في الصفات الانسانية . ان حب انسان مايعنى حب كل البشر . أما الحب القائم على نظام التخصص وتقسيم العمل ، الذي يتخصص الانسان فيه في حب انسان ما أو عائلة معينة ، ولايجب ماعداها من البشر ولايشعر نحوهم بأي حب ، ان هو الا علامة على عدم قدرة هذا الشخص أساسا على الحب . كما أن حب الغير أو الآخرين بصفة عامة ليس كما يفهم غالبا على أنه تجريد معنوي للاقتصار على حب شخص معين بذاته (الحب الجنسي) ولكنه حب يقوم أساسا بين البشر بغض النظر عن وجود شخص محدد يكون هو محور كل الحب فقط .

ومن هنا نصل إلى أن ذاتي أنا يجب أن تكون موضوع حبي لنفسي كما لو كانت أي شخص آخر ، أو ذاتا أخرى . كما أن رغبتني في حياة خاصة بي وفي تحقيق سعادتني الخاصة ورغبتني في تحقيق ذاتي وكذلك رغبتني في الحصول على حريتي تعتمد أساسا على قدرتي على الحب ، أي القدرة على الرعاية والاحترام والاهتمام والمعرفة . وإذا كان الانسان في وضع يمكنه من الحب الايجابي المبدع ، فانه سيحب نفسه وذاته أيضا ، وإذا لم يكن بإمكانه سوى أن يحب الآخرين فقط ، فانه في هذه الحالة يفتقد القدرة الحقيقية على الحب متمثلة في الرعاية والاهتمام والاحترام والمعرفة .

وإذا سلمنا بأن حب الذات وحب الآخرين يسيران في خطين متوازيين فكيف نستطيع أن نفرس معنى الأنانية التي تجعل الانسان يهتم بنفسه فقط ويهمل الآخرين ، أو بمعنى أصح يهتم بنفسه على حساب الآخرين ؟ ان الانسان الأناني شخص يتركز كل اهتمامه حول ذاته فقط ، انه يريد ان يحصل على كل شيء لنفسه هو ، ولايستطيع أن يعطى لأنه لايجد أي سعادة في العطاء ، وانما توجد سعاداته كلها في الأخذ وفي الاستيلاء . انه انسان لايهتم بها حوله من عالم خارجي الا بمقدار مايستطيع أن يحصل عليه من هذا العالم ، انه ليس لديه أي اهتمام بأي انسان آخر ، ونفس الشيء ينطبق على عنصر التقدير والاحترام المتبادل للآخرين . الانسان الأناني انسان لايرى الا نفسه فقط ، ولا تصدر تصرفاته وأحكامه الا على أساس

المنفعة التي ستعود عليه ، كما أنه انسان غير قادر أساسا على الحب . ألا يدل هذا التأكيد على أن اهتمام مثل هذا الشخص بنفسه لابد أن يكون بديلا على أي حال من الأحوال لاهتمامه بالآخرين ؟ كان من الممكن أن يكون هذا الفرض صحيحا في حالة ما اذا لو كان حب الذات والأنانية شيئا واحدا . وهذا الخلط بين مفهوم الأنانية ومفهوم حب الذات هو الذي أدى الى الاعتقاد الخاطئ الذي سبق أن عرضناه في أول الحديث عن حب الذات .

ان الأنانية شيء منفصل تماما عن حب الذات ، ولا يمكن أن يكونا شيئا واحدا بأي حال من الأحوال . . انها على النقيض من بعضهما تماما . فالانسان الأناني لا يحب نفسه كثيرا . . ان حبه لنفسه حب فقير جدا ، ونقص قدرته على حبه لذاته ونقص قدرته على رعايته لنفسه ما هو الا تعبير عن النقص الداخلي في قدرته الانتاجية ، وهذا النقص يجعله يشعر بالخواء النفسي وبالفراغ ويصيبه بالحيرة وخيبة الأمل .

الانسان الأناني لابد أن يكون انسانا محروما مهموما وتعبسا في حياته ، ولذلك فهو انسان جشع يريد أن يحصل على كل شيء حتى ولو كان ذلك على حساب تحطيم العالم . قد يبدو أن الانسان الأناني انسان يهتم بنفسه كثيرا ، ولكنه في الحقيقة انسان يقوم بمحاولات فاشلة يحاول بها تغطية ضعفه وفشله وقدرته على تحقيق ذاته . والانسان الأناني في نظر التحليل النفسي هو انسان نرجسي ، أي أنه انسان سحب حبه عن الآخرين ، ووجهه الى ذاته فقط . حقيقة أن الانسان الأناني انسان لم يعد بقادر على حب الآخرين لأنه فقد هذه القدرة ، وهو في نفس الوقت انسان فقد القدرة أيضا على حب ذاته .

هذه النظرية عن الأنانية تتفق مع خبرة التحليل النفسي للعصابيين ، حيث وجد أن أهم أعراض العصاب النفسي هو عدم الاهتمام بالذات ، وهذا العرض يمكن ملاحظته لدى عدد غير قليل من المصابين بالعصاب ، ولكن المرضى أنفسهم لا يعانون من هذا العرض عادة ، ولكنهم يعانون من وجود عرض آخر له ارتباط بالمرض مثل حالات الاكتئاب والشعور بالتعب والارهاق النفسي ، وعدم

القدرة على العمل ، والفشل في علاقات الحب وما الى ذلك . بالطبع لم يكن واضحاً أن عدم الاهتمام بالذات هو العرض الرئيسي في المرض النفسي ، حيث أنه غالباً ما ينظر المرضى النفسيون الى هذا العرض بفخر واعتزاز على أنه السمة الوحيدة التي تحقق لهم السعادة . فالإنسان الذي لا يهتم بذاته ولا بنفسه ، لا يريد الحصول على شيء خاص لنفسه ، انه يضحى بنفسه ويعيش من أجل الآخرين ، وهو فخور بأنه لا يعتبر نفسه شيئاً مهماً . انه يشعر بالدهشة عندما يتأكد له أنه إنسان محروم من السعادة رغم عدم اهتمامه بنفسه ، وأن سلوكه نحو الآخرين أو معهم لا يحقق له السعادة المنشودة . يبين لنا التحليل النفسي أن عدم اهتمام مثل هؤلاء الأشخاص بأنفسهم ، إن هو إلا عرض من أعراض العصاب (المرض النفسي) ، وغالباً ما يكون هذا العرض هو أهم أعراض المرض جميعاً ، فهو الذي يجعل من مثل هؤلاء الناس ، أناساً عاجزين عن السعادة رغم قدرتهم على الحب ، انهم يشعرون بعدم الرغبة في الحياة فهم لا يحبونها ، انهم ملأى بالكراهية والعداوة ضد الحياة ، وانهم وجدوا قناعاً يحتمون به ، وهذا القناع يتمثل في البذل وعدم الاهتمام بالذات ، حتى ولو كان ذلك نوعاً من التمرکز اللا شعوري على الذات . مثل هؤلاء المرضى النفسيين أو العصائين يمكن للمعالج النفسي أن يعود بهم الى حالتهم الطبيعية ، أي يمكنه أن يساعدهم على الشفاء ، وذلك اذا نظر المعالج النفسي الى حالة عدم اهتمام المريض بنفسه على أنها عرض مثل باقي الأعراض المرضية الأخرى التي تعوق القدرة الانتاجية لهذا الإنسان ، وبالتالي يمكن ازالة جذور المرض النفسي العصابي المتمثلة في إهمال النفس أو الذات والتضحية بالنفس ، وكذلك إزالة كل الأسباب الأخرى للمرض .

ويبدو وجود عرض إهمال الذات وعدم الاهتمام بها واضحاً من خلال تأثيره على الآخرين ، فغالبا ما نجد تأثيره في الأم التي تضحي بنفسها ، ولا تهتم بذاتها وذلك من أجل أطفالها . انها تعتقد أن أطفالها من خلال تضحياتها بنفسها وعدم اهتمامها بذاتها ، سيتمكنون من معرفة معنى حبهم لها ، ومن معرفة معنى أن يكون الإنسان محبوباً ، كما تعتقد مثل هذه الأم أن أطفالها سيدركون كذلك ومن خلال

هذا النمط من العلاقة مفهوم ومعنى الحب . ان تأثير تضحية مثل هذه الأم وإهمالها لنفسها لا يتفق بأية حال من الأحوال مع ما تنتظره هي من أطفالها . ان أطفال مثل هذه الأم لن يكونوا سعداء بحب أمهم لهم لأنهم يدركون أن حب أمهم لهم ليس حبا بلا مقابل . . هؤلاء الأطفال يشعرون دائما بالخوف والتوتر ، ولا يثقون فيما اذا كانوا سيستطيعون تحقيق ما تنتظره الأم منهم أم لا . كما أنه من الطبيعي جدا أن تصيب العدوى هؤلاء الأطفال - التي تنتقل اليهم من أمهم - ، فيكرهون الحياة ويضيقون بها ، وتسيطر عليهم مشاعر كراهية الحياة بطريقة لاشعورية . وعلى أية حال فان تأثير الأم المهملة لذاتها لا يمكن تمييزه عن تأثير الانسان الأناني ، بل غالبا مايكون تأثير مثل هذه الأم تأثيرا أسوأ ، وذلك لأن إهمال الأم لذاتها يمنع الأطفال (أطفالها) من أن يتقنوها ، انهم يعيشون دائما تحت ضغط الخوف من عدم القدرة على تحقيق ما تريده الأم ، والرغبة في ألا يخيبوا أملها فيهم . أنهم مثل أمهم يتعلمون كيف يواجهون الحياة مثقلين بالضغوط النفسية التي يطلقون عليها اسم الفضيلة .

واذا اتاحت الفرصة لانسان ما في أن يلاحظ أما تحب أطفالها حبا حقيقيا ، فان بإمكان هذا الانسان أن يتأكد جيدا من أن أهم شيء في حياة الطفل يُعلمه ماهو الحب ، وما هي السعادة ، ليس الا شعور هذا الطفل ذاته بأنه محبوب من أمه التي تحب نفسها في نفس الوقت .

أخيرا يمكن تلخيص فكرة حب الذات كما يلي :

اذا كنت تحب نفسك فعليك أن تحب جميع البشر بنفس الدرجة التي تحب بها نفسك ، فاذا أحببت انسانا واحدا بدرجة أقل من حبك لنفسك فانك ستخسر جزءا من حبك لنفسك . ان حبك لنفسك وحبك لكل الناس يمكن أن يجتمع في حبك لوطنك الذي تنتمي اليه وفي حبك لله كرمز نحب فيه أنفسنا ونحب فيه أوطاننا ونحب فيه كل البشر .

الفصل الثامن

٥ - حب الوطن

سبق أن قلنا بأننا لانعتبر الحب ارتباطا بشخص معين بقدر ما هو اتجاه نفسي عام يتضح في سمات شخصية الانسان ويحدد علاقة هذا الانسان بالعالم كله وليس فقط بشخص واحد محدد . وفي اطار هذا التصور عرضنا لأنواع مختلفة من الحب . حب الآخرين وحب الأم والحب الجنسي وحب الذات .

ترى ما هو موقع حب الوطن من أنواع الحب المختلفة التي عرضنا لها قبل ذلك اعتقد أنه في المناقشات السابقة قد اتضح لنا بجلاء أن حب الذات شرط ضروري لاقامة أي نوع من أنواع الحب الأخرى بطريقة سوية . وقلنا أيضا ان حب النفس وحب الآخرين يجتمع كله في حب الانسان لوطنه الذي ينتمي اليه ، فما الآخرون هنا الا أبناء المجتمع الذي يعيش فيه الانسان «كمواطن» .

إننا جميعا كأبناء مجتمع أو وطن واحد على استعداد كامل للتضحية بالنفس ذودا ودفاعا عن الوطن وعن أرض الوطن ضد غيره من الأعداء ، ومع ذلك فإنه لا يكاد يحس بحنينه الى الوطن بنفس الصورة التي يشعر بها طفل انتزع من أحضان أمه أو انتزعت أمه منه فشعر بالوحدة والغربة والانفصال ، لا يكاد يحس بهذا الشعور بقوة وحدة الا من عاش بعيدا عن وطنه فترة من الزمن . . فهو يتحرق الى وطنه شوقا ولوعة . ولا يستطيع أن يحدد أي الناس في وطنه يخصهم بكل مشاعره الفياضة ، كل ما يعرفه أنه بعيد عن وطنه ويريد العودة اليه ، وكأن الوطن هو الجنة التي أخرج منها الانسان ، وهو يعاوده الحنين دائما للرجوع الى جنته المفقودة . ولأعجب أن يعتقد كل انسان أن بلاده هي جنة الله على الأرض . . "بلادتي جنة الدنيا وروض ربيعها الأخضر " وحتى قد يعتقد البعض بأنها أجمل من الجنة وأفضل منها : يقول شوقي :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي
(ولا غرابة اننا في مصر نعتقد أن مصر هي أم الدنيا ، وليست مجرد أم المصريين فقط . . انها في نظرنا أم الدنيا كلها . . منتهى الحب .)

إذا تأملنا هذا التصور الشعبي للوطن ، فلن يكون غريبا علينا أن نشبه الوطن الذي أتينا منه بالأم التي انجبنا ، فالأم هي الطبيعة بكل ما فيها من بحر وأرض وسماء وهواء . وهنا يمكن أن يتضح لنا الشوق الجارف إلى الوطن أو إلى أرض الوطن ، انه شوق إلى الأم الحنون وإلى حبها المتدفق . . أجل فقانون الحب هو الحب بالحب ، والانسان يحب من يمنحه الحب ، والأم هي أول من يمنح الحب ويجزل في العطاء ، وهكذا الوطن أيضا . ولقد رأينا في حب الأم أنه يكفي أن يكون الانسان ابنا أو طفلا لهذه الأم حتى يحصل على حبها بلا حدود وذلك اذا كانت هذه الأم أماحنونا فاضلة . ولا أعتقد أن ذلك يختلف كثيرا في حالة الوطن ، اذ يكفي أن يكون الانسان مواطنا في وطن معين ليحصل الانسان على حب هذا الوطن بلا حدود ، اذا كان وطننا يرعى أبناءه ويعترف بقيمتهم في حياته وفي مستقبله ، أليسوا هم جنوده وحماة اذا لزم الأمر وهم أيضا جنوده وحماة حماه في السلم ؟

وللحقيقة يجب علينا هنا أن نبادر أيضا بالقول بأنه اذا كنا نعتبر أن الأم هي الوطن لأنها ترمز إلى الأرض وإلى الطبيعة ، فاننا لانستطيع أن نقصر تصورنا للوطن على أنه هو الأم فقط . ان الوطن بعبارة أدق هو الأم وهو الأب ، فالأم تمنح بلا حدود وبلا مقابل ، والأب لا يمنح الا من يستحق وهكذا الوطن يمنح الحب والرعاية ، ولكنه يفاضل بين أبنائه وفقا لما يقوم به كل منهم . الوطن اذن مزيج من الأم والأب ، فيظل الوطن أما للانسان طوال مراحل حياته يمنحه الحب دائما ، ولكنه في نفس الوقت يقوم بدور الأب المعلم المربي والموجه في مرحلة معينة من عمر الانسان ، وهي المرحلة التي يتحتم عليه فيها أن يدرك أسس التعامل مع الآخرين ، وقوانين المجتمع والحياة الاجتماعية .

اذا كانت الأم الفاضلة التي تحب أبناءها بحق هي تلك الأم التي تحب أطفالها في صغرهم بالسهر على رعايتهم ضعافا عاجزين ، وهي التي تعمل على تنميتهم ليصبحون كبارا يعتمدون على أنفسهم ، وان كانت تحزن لفراقهم لها وانفصالهم عنها ، الا أنها لاتعطل ولا تعرقل هذا الفراق والانفصال ، لأنها تعلم تماما أنه مرحلة من مراحل النمو التي لا بد منها ، بعد أن مهدت لهم الطريق ، وهيات لهم

أسباب الحياة . . . انها تحبهم حتى وهم بعيدون عنها ، فان الأم الظالمة المستبدة تحب ذاتها فقط في أطفالها . . انها لا تراهم ولا تسعد بهم الا وهم صغارا عاجزين ، ، انها تريد أن تتوقف بهم الحياة عند مرحلة لا يبلغون معها حد الفطام ، تريد لهم دائما عاجزين محتاجين اليها ، ولا ترضى لهم بالافتراق أو الانفصال عنها اعترافا بطبيعة النمو وبطبيعة الحياة . . ان أنانيتها أقوى من حبها سواء لذاتها أو لأطفالها ، فهي تطالبهم دائما برد الجزاء ، وبتحقيق آمالها هي لا آمالهم هم ، ويعيش أبناؤها دائما في خوف وفزع ، من أن تخونهم قواهم ، ولا يستطيعون تحقيق آمال أمهم ، والتي قد لا يكون لها بالنسبة لهم أي معنى . . فهؤلاء الأطفال أو الأبناء قد أصابتهم العدوى من أمهم . خضعوا لإرادتها ورضوا بالذل والهوان ، وتصوروا أن هذا هو قمة الفضيلة .

ترى هل يمكن أن يتفق هذا التصور مع تصورنا للوطن؟

قد يكون الوطن بالفعل أما طيبة ، محبا لأبنائه مع أننا لا نستطيع أن نتصور أن الوطن سيعطي أبنائه حبا بلا مقابل مثل حب الأم ، فالوطن يعتز بمن يعمل على تحقيق أهدافه ، ولكننا في نهاية المطاف سنجد أن أهداف الوطن إذا كانت قيادته وطنية وحكيمة ، ما هي إلا أهداف الأفراد الذين يعيشون على أرضه ، وإذا كان الأمر كذلك فإن الأفراد عندما يحققون أهداف وطنهم ، فانما يحققون أهدافهم هم . إذا كان الوطن بالفعل أما طيبة ، فانه سيقدم لأبنائه جميعا ، وبنفس الدرجة ، كل ما يحتاجه هؤلاء الأبناء في نموهم المبكر ، ليصبحون رجاله في المستقبل . . سيهيء لهم جميع فرص التعليم ، والرعاية الصحية والاجتماعية والسياسية في جميع مراحل حياتهم . وإذا كان الوطن بالفعل أما طيبة فانه سيتولى توجيه أبنائه وارشادهم في حب وبلا تهديد بالعقاب ، انه سيعمل على أن يوضح لكل منهم عوامل القوة في نفسه ، ليشعر بالثقة في نفسه وفي الآخرين ، وفي نفس الوقت سيقوم ذلك الأب بوضع أسس التعامل وقواعده ، وعلى الأبناء أن يحترموا هذه الأسس ، وعلى كل منهم أن يثبت أنه جدير بثقة الأب وبحبه . ذلك النوع من الحب الهادئ العاقل ، يمنح كل انسان الثقة والاحساس بالأمن وعدم الخوف ، وهذا بدوره سيدفع الأبناء

- أبناء الوطن - جميعا نحو تحقيق أهدافهم وأحلامهم والتي لن نخرج كما قلنا قبل ذلك عن أن تكون هي أهداف وآمال وطنهم .

أما الوطن الذي يتخذ صورة الأم الظالمة المستبدة والأب القاسى ، فهو ذلك المجتمع أو الوطن الذي يطالب بأكثر مما يقدم . أن المواطن في هذا الوطن لا يشعر بالأمن ولا بالأمان ، لا يشعر بالحب ولا بالعدل ولا بالمساواة ، انه يشعر دائما بالظلم وبأنه عليه أن يقدم ويقدم ، ولن يجد من يهتم برعايته ، ولا من يهتم برغباته وبآماله ، وما يريد أن يحققه في حياته . عليه فقط أن يعمل حتى يصبح العمل مللا ، وتصبح الحياة جحيماً لا يطاق ، والنتيجة الحتمية في مثل هذه الأوطان هي إما أن يتحول الإنسان إلى انسان ثائر ، يحاول التغيير عن طريق العنف والثورة ، واما أن يرمى هذا الانسان الذي فقد كل شىء في أحضان أم حنون وأب رحيم . . وعند ذلك سيتحول كسله وملله وسأمه للحياة ، الى جد واجتهاد وعمل ، سيصبح انسانا منتجاً مرة أخرى ، لأنه يشعر في موقعه الجديد بالطمأنينة والأمن وبالحب وبالعدل . ولكن هذا الطير المهاجر مع غيره من العقول المهاجرة سيعذبه الشوق والحنين إلى وطنه الأصلي ، إلى أمه الأولى ، مثل الطفل الذي وجد الحب والعطف والحنان لدى امرأة أخرى فارمى في أحضانها تاركا أمه ، ولكنه لن يلبث أن يعود إلى أمه الأصلية من جديد . هذا الإنسان الذي يعذبه شوقه إلى وطنه لن يلبث أن يعود إلى وطنه الأصلي عندما تتاح له الظروف ، وعندما تتحول الأم الظالمة إلى أم رحيمة عادلة . وإذا لم يتحول الإنسان في وطنه إلى عقل مهاجر فانه قد يفقد العقل ، سيتحول إلى إنسان سلبي يتسم باللامبالاة . . انه انسان يعمل ولكنه لاينتج . إذا كان الوطن يتسم بالقهر والظلم والطغيان ، فان هذه العدوي ستصيب المواطن أيضا ، سيتحول إلى انسان ظالم مستبد مستغل ، سيصبح انساناً أنانيا لايفكر إلا في نفسه على حساب الآخرين .

ولا غرابة فيما سبق أن عرضناه ، ذلك أنه ليس من الصعب على المتأمل للمجتمعات المعاصرة أن يرى مثل تلك الصور ، فهناك مجتمعات وأوطان يسود فيها الظلم والاستبداد ، وهذه غالبا ماتكون مجتمعات طاردة (لأبنائها) ، وهناك أيضا

أوطان ومجتمعات الحرية والعدالة، وهذه غالباً ما تكون مناطق جذب، لأنها تجذب العنصر البشري إليها وتعطيه أمومتها.

إن الأم الأنانية تخسر نفسها وتخسر أبناءها بهجرتهم لها وبعدهم عنها، لأنها أم ظالمة مستبدة تريد أن تفرض رأيها على الجميع، ولأنها كذلك فلن تجد من يقف بجانبها سوى الطفل العاجز الذي لا يستطيع حتى لنفسه شيئاً. أما الأم الطيبة المحبة لنفسها ولأبنائها فإن حبها سينبت الحب . . . سيحبها أبنائها بنفس الدرجة وسيتفانون في الإخلاص لها وفي الدفاع عنها والحفاظ عليها، انهم لا يتخلون عنها أبداً . . . هذه الأم سيزداد خيرها وخير أبنائها. ترى هل يحارب الجندي في الميدان إلا إذا كان مقتنعا بقضية ومحبا لأم !! أما الانسان الذي يشعر بالظلم والاستبداد فلن يستطيع أن يقف بجانبها ولا أن يضحي من أجلها . . انه انسان مهزوم حتى قبل أن يدخل المعركة، مثله تماماً مثل الطفل الذي ولد ميتاً، لا يقيم لنفسه حياة، ولا يسعد الآخرين بحياته.

ولا يختلف حديثنا عن الوطن بهذه الصورة كثيراً، عما سبق أن فصلناه قبل ذلك عن المجتمع الديمقراطي والمجتمع الدكتاتوري. وما المجتمع الديمقراطي إلا كمجتمع الأم الطيبة التي ترعى أبناءها وتمنحهم الحرية، وما المجتمع الدكتاتوري إلا صورة من الأم الظالمة المستبدة مصاصة الدماء، والتي تفرض على أبنائها مالا يحبون ومالا يرغبون وتحملهم مالا يطيقون.

ويمكن أن نضيف هنا أيضاً أن الأم مثلها ليس مثل المجتمع أو الوطن فقط، انها مدرسة، تحب أبناءها فتعلمهم لغتها ولغة الحب التي يحب بها بعضهم بعضاً.

وكما عرفنا قبل ذلك فإن العائد الأصلي من الحب هو الحب ذاته، ولذلك فإن الأبناء سيتعلمون لغة الأم وسيبادلونها الحب. انهم يقدرون حب الأم ويقدرّون لغتها فيحافظون عليها ويرعونها. أما الأم الأنانية والدكتاتورية فلن تكون مدرسة، انها سجن كبير يتسع لكل الشعب . . سجن يحاول كل من فيه أن يهرب منه سواء من الأبواب المغلقة أو من فوق الأسوار، انهم لن يتعلموا الحب، ولن يتعلموا اللغة، بل

سيبحثون عن الحب في مكان آخر وسيحاولون تعلم لغة أخرى ، غالبا ماتكون لغة الوطن الذي سيهربون إليه ، انهم يصبحون أنانيين مثل أمهم ، فيحتقرونها ويحتقرون لغتها بعد أن فقدوا الثقة فيها وفي أنفسهم . انهم يشعرون بالغربة حتي وهم على أرض وطنهم ، لأن الوطن تحول إلى سجن كبير، ولأن الأم لم تعد تثق في هؤلاء الأبناء العاقين ، فانها ستطلب عون ومساعدة الآخرين ، من الذين فضلتهم على أبنائها ، ومنحتهم ثقتها التي لم تمنحها لأبنائها بحجة أن هؤلاء الأبناء العاقين ، غير قادرين على العطاء . ولكن ترى هل يستطيع انسان ما أن يعطي إذا لم يكن يملك ؟ ان هؤلاء الأبناء لم يأخذوا حتى يتمكنوا من العطاء ، أنهم يشعرون بالخواء حتى ولو كانوا يملكون كل أسباب القوة والقدرة على العطاء ، فقد كرهوا أنفسهم ولقد سبق أن قلنا أن الأساس في الحب هو أن يبدأ الإنسان بنفسه فيكون بإمكانه أن ينشر الحب في كل مكان .

بقيت نقطة هامة في مجال حديثنا عن حب الوطن وهي التي تهتم بلغة الوطن . ان احترام أي مجتمع أو وطن لنفسه ولأبنائه ، يتحدد باحترام هذا الوطن أو المجتمع للغته ، وبجبه لهذه اللغة وجبه لأبنائه . فإذا فقد الوطن جبه لنفسه ، فقد جبه للغته ولأبنائه ، وفقد الأبناء جبههم للغتهم ولوطنهم ، وطافوا يبحثون عن البديل ، في لغة أجنبية أخرى يتعلمونها ويعلمونها لأبنائهم ، فينشأون هم أيضا غرباء عن هذا الوطن . إن انكار اللغة هو انكار لشخصية الوطن والمواطن وعدم الاعتراف بهما ، وإذا انهارت لغة الوطن الأم ، انهارت شخصيته وقوميته وفقد أهم مقوماته ، فقد ثقته بنفسه وفقد ثقة الآخرين فيه .

الفصل التاسع

٦ - حب الله (الحب الإلهي)

لقد تبين لنا قبل ذلك أن الأساس الذي يقوم عليه سعينا نحو الحب ، انما يكمن في خبرة الانفصال والغربة ، وما ترتب عليها من نتائج ومتطلبات نحو محاولة التخلص من القلق والخوف والانفصال والغربة والعزلة ، وذلك عن طريق العودة إلى التوحد . ويتفق علماء النفس على أن الشكل الديني للحب يتمثل في حب الله . انه حب صادر عن انفصال وانعزال وغربة الانسان ، حب يهدف إلى تحقيق خبرة التوحد بهدف التخلص من الخبرة الأولى المؤلمة وهي خبرة الغربة والانفصال .

وفي الحقيقة فان نفس الأشكال والمظاهر التي نجدها في حب البشر، توجد أيضا في حب الله ، كما أنه توجد بين معظم أشكاله نفس الخلافات الموجودة في أشكال الحب البشري الأخرى .

إن المتأمل لجميع الأديان السماوية سيجد صفتي الإيمان والكفر ، « الإيمان يعني ايمان الإنسان بالله على أنه القيمة العليا ، وعلى أنه الخالق البارئ المصور، والكفر هو عكس الإيمان تماما » ولذلك فإن معنى الله في ذهن الإنسان ، يرتبط بما يعتقد هذا الإنسان عن القيمة العليا لئله موجد الكون . وتحليل معنى الإله يبدأ أساسا في رأينا بتحليل طبيعة الإنسان المؤمن الذي يعبد الله .

من الممكن -على حد معرفتنا- أن نعتبر أن تطور الإنسان ونموه ، ما هو إلا انفصال عن الطبيعة ، انفصال عن الأم ، انفصال عن روابط الدم ، وعن الطين الذي خلق منه هذا الإنسان . لقد بدأت قصة الإنسان بتمركزه على الطبيعة وربط ذاته بها ربطا بدائيا ، رغم أنه أجبر على الانفصال عنها في بداية الخلق . انه يصير على الارتباط القديم ، ولا يجد أمانه إلا في المحافظة على هذا الارتباط القديم بالطبيعة . لقد ظل يشعر دائما بأنه متوحد مع عالم الحيوان والنبات ، وظل يبحث عن وحدته مع تلك الكائنات ، ليظل في توحيد مع الطبيعة . ومازالت هناك الكثير من الأديان البدائية التي تشهد على ذلك ، وتوضح هذه المرحلة البدائية من حياة

الإنسان . فهناك الحيوانات المقدسة ، وهناك الحالات التي يرتدي فيها الإنسان قناعاً يمثل شكل حيوان معين ، في بعض الاحتفالات الدينية ، في بعض الديانات ، وهناك من يعبدون حيواناً ويعتقدون أنه الإله .

وفي مرحلة تالية من نمو الإنسان وتطوره ، في المرحلة التي بدأ الإنسان فيها يتعلم الحرف ومهارة الصناعة اليدوية ، ولم يعد عالمة في حياته على ماتجوده به الطبيعية من ثمار يلتقطها ومن حيوانات يقوم بصيدها ، بدأ يعتمد على ماينتجه لنفسه بنفسه . في هذه المرحلة بدأ الإنسان يصنع إله بيديه (بداية صناعة الصنم) . لقد حول الإنسان طاقته وقواه ومهارته إلى أصنام تصنعها يده ، ثم بدأ يعبد هذه الأصنام . ان عبادة الأصنام هنا ماهي إلا عبادة الإنسان لذاته ، عبادته لنفسه بطريقة غير مباشرة . هذه المرحلة في حياة الإنسان تدل على الاغتراب ، اغتراب الإنسان عما يصنع . . اغترابه عن نفسه ، عندما لا يستطيع هذا الإنسان أن يميز بين الإله الخالق وبين الصنم الذي صنعه هو بيديه ثم خر له ساجداً ، إن هذه العبادة هي عبادة للإنسان ولقوة الإنسان ولما يملكه هذا الإنسان ، وهذا ما نراه في مجتمع اليوم وأقصد المجتمع الصناعي المعاصر ، حيث بدأ الإنسان يعبد الآلة ويقدها متمثلة في صورة الآلات الحديثة المعقدة مثل «الكمبيوتر» .

وفي مرحلة لاحقة بدأ الإنسان يضيفي على آلهته صفة الوجود الإنساني . وانه ليبدو أن الإنسان لم يكن ليصل إلى هذه المرحلة ، إلا بعد أن اكتشف نفسه وعرف أنه أرقى الكائنات في هذا العالم . في هذه المرحلة التي تميزت باضفاء الصفات الانسانية على الإله ، نجد نوعاً من النمو الذي ينطلق في اتجاهين : الاتجاه الأول هو اضافة صفات الذكورة على الإله واعتباره ذكراً في جنسه ، أو اضافة صفات الأنوثة الانسانية على الإله واعتباره أنثى .

الاتجاه الثاني يعتمد على درجة التضج التي وصل إليها الإنسان ، وعلى وجود الطريقة التي يوجد بها هذا الإنسان إلهه وجهه وعبادته لهذا الإله .

سنبدأ الحديث هنا عن الديانات التي كانت فيها الأم هي المحور ، وما يقابلها من ديانات كان الأب فيها هو محور التركيز والاهتمام .

يوضح لنا علم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) ، أن هناك مجتمعات تقوم فيها

الأسرة على الارتباط بالأم ، وتسمى هذه المجتمعات بالمجتمعات «الأمومية» ، وهناك مجتمعات أخرى تقوم على أساس الارتباط بالأب ، وتسمى هذه المجتمعات بالمجتمعات «الأبوية» .

في المجتمعات «الأمومية» -نسبة إلى الأم- تعتبر الأم هي أرقى المخلوقات ، انها الربة أو الإلهة ، انها هي السلطة في البيت وفي الأسرة وفي المجتمع .

وإذا أردنا فهم الدين الذي يقوم على إضفاء صفات الأنوثة على الإله وجعله أنثى ، لسنا في حاجة إلا لأن نتذكر ما قلناه عن حب الأم . ان حب الأم هو حب بلا مقابل ، انه يحمي الجميع ويرعى الجميع ، ولأنه حب بلا مقابل فإنه لا يمكن التحكم فيه كما لا يمكن شراءه أو التحايل عليه . أن وجود الأم كإله يعطي الإنسان الذي يتمتع بحبها الشعور والإحساس بالبركة ، كما أن افتقادها يعطي الإنسان الشعور بالضيق والخسارة وعدم الثقة . وبما أن الأم تحب أطفالها لا لشيء إلا لأنهم أطفالها ، وليس لأنهم أطفال يتمتعون بصفات تؤهلهم للحصول على حب الأم ، فإن حب الأم عادل لا يقوم إلا على المساواة بين الأبناء ، وعلى ذلك فان جميع الناس سواسية لأنهم جميعاً أبناء أم واحدة . . لأنهم أبناء الطبيعية ، وإنهم جميعاً خلقوا من الطين .

بالنسبة للمجتمع الأبوي فانه مرحلة لدينا عنها معلومات دقيقة ، كما أنها مرحلة لسنا في حاجة إلى الحديث عن كل تفاصيلها . ففي هذه المرحلة من تطور الجنس البشري اضطرت الأم إلى النزول عن عرشها وعن مكانتها الرفيعة الراقية ، واحتل الأب مكانها ، وأصبح هو الذي يحتل أرقى مكان في المجتمع ، سواء في الناحية الدينية أو الناحية الاجتماعية . والأساس في حب الأب هو أنه يخضع لشروط ومتطلبات . . انه حب يضع مبادئ وقواعد ، والذي يفوز بحب الأب هو الابن الذي يطيع وينفذ التعليمات ويحافظ على القواعد والقوانين . وأحب الأبناء إلى الأب هو الابن الأكثر شبهاً بأبيه ، وهو الابن الأكثر طاعة ، والذي يبدو للأب على أنه أنسب الأبناء وأفضلهم في أن يكون خليفة الأب ووارثه بعد موته (يلاحظ أن نمو وتطور المجتمع الأبوي قد تم في خط مواز لتطور ونمو فكرة الملكية الخاصة والفردية) . هذا ويلاحظ أن المجتمع الأبوي هو مجتمع هرمي التكوين ، فالمساواة

التي كانت سائدة في مجتمع الأم (المجتمع الأمومي) بين الأبناء وبين الأخوة قد بدأت تنحرف، وبدأ نوع من عدم المساواة، وظهر الاجتهاد الفردي والمنافسة، وكل يريد أن يكون الأفضل والأحسن. وسواء أجلنا النظر في الحضارة الهندية، أو الحضارة المصرية القديمة، أو الحضارة الاغريقية، أو في الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية، سنجد أنفسنا نجول بأبصارنا في مجتمعات أبوية يتصف الله فيها بصفات ذكرية، انها مجتمعات تعترف بوحداية الإله الواحد القهار. وحيث أن حب الأم مازال ينبض في قلب الإنسان رغم اختفاء المجتمع الأمومي، فليس من الغريب أن نجد أن صورة الأم المحبة لأبنائها لم تختف بعد في ظل المجتمع الأبوي الجديد، فما زال اليهود يعتقدون في ظهور المعجزة مرة أخرى، والمعجزة هي رمز لحب الأم. كما يرمز للأم عند المسيحيين الكاثوليك بالكنيسة الأم وكذلك بالعدراء مريم. كما نجد فكرة حب الأم متمثلة أيضا لدى البروتستانت بطريقة غير مباشرة في تعاليمهم التي تقول «إن الله لن يحب انساناً أكثر من انسان آخر بسبب مايفعله هذا الإنسان، وعلى المؤمنين بالله أن يكونوا صغاراً ضعفاء عاجزين وفي حاجة إلى مساعدته دائماً. . . ان أعمال البشر لن تكون ذات تأثير على الله، ولن تقوم بدور الوساطة للحصول على حب الله كما يعتقد الكاثوليك، ويلاحظ أن هذا النوع من الحب هو حب الأم التي تحب بلا مقابل وبلا تفرقة. وفي الإسلام نجد الله الرحمن الرحيم، والغفور الرحيم، وسعت رحمته كل شيء -رحمة الأم وحنانها- وفي نفس الوقت نجده شديد العقاب، أي أنه يجزي كل انسان على عمله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]

ان الهدف من توضيح الفرق بين العناصر الأمومية والعناصر الأبوية في الدين، هو توضيح ان نمط الله يرتبط ارتباطاً نسبياً بدرجة ترجيح وزن الشخصية الأمومية أو الشخصية الأبوية، وهذا ينعكس بدوره على الدين. أن المظهر الأبوي للدين يجعل الانسان يحب الله وكأنه الأب، فتؤمن بأنه عادل وبأنه شديد العقاب، وأنه يكافئ المحسن ويعاقب المسيء، وأن الله يختار أصفياه وأوليائه وينعم عليهم، فقد اختار الله سيدنا ابراهيم خليلاً، واختار بني اسرائيل واصطفاهم واختار موسى

كليما، ثم اختار أمة الإسلام وجعلها خير أمة أخرجت للناس، واختار محمد عليه الصلاة والسلام نبياً وحياً.

أما المظهر الأمومي للدين فيجعل الانسان يحب الله بكل معاني حب الأمومة، اننا نشق في هذا الحب سواء كنا فقراء ضعفاء أو كنا أغنياء أقوياء. أن الأم تحب أبناءها دائماً ولن تفضل أحدا منهم على الآخر، وانها تهب لمساعدة من يحتاج إلى مساعدة من أبنائها، وتهب للحماية وانقاذ من يحتاج منها إلى الحماية والانقاذ، انها دائماً تعفو وتصفح، وتغفر وتسامح.

ان حبنا لله وحب الله لنا لايفصلان عن بعضهما. عندما يكون الله في صورة الأب فإنه يحبنا كما لو كنا أبناءه ونحن نحبه كما لو كان أبانا. وإذا كان الله في صورة الأم فإن حبنا له وحبنا له سيكون تماماً مثل حبنا لأمننا وحب أمننا لنا. أما الفروق الأخرى فهي فروق ترتبط بدرجة النضج التي وصل إليها الإنسان في ادراكه لمفهوم الإله وفي درجة حبه لله.

بعد أن تحول الانسان من مجتمع تحتل فيه الأم مكانة القمة، إلى مجتمع يحتل فيه الأب مكانة القمة، أصبح بإمكاننا أن نلاحظ ونتبع نمو الحب الهادف إلى النضج في تطور ونمو المجتمع الديني الأبوي.

في طفولة البشرية اعتقد الانسان أن الله ظالم جبار، ينظر إلى الإنسان - ذلك المخلوق الضعيف- على أنه جزء من ممتلكاته، ويتحكم فيه ويصنع به كل مايريد. واعتقد بني البشر أن هذه المرحلة هي مرحلة خروج آدم أبو البشر من الجنة مطروداً بعد عصيانه لأوامر الله. وفي هذه المرحلة أيضاً اتخذ الله قراره بابتادة الكفر على وجه الأرض فأمر نوحاً بصنع سفينته وجاء الطوفان فأغرق كل الكافرين، ولم ينج من الغرق إلا نوحاً ومن آمن معه. وفي هذه المرحلة أيضاً طلب الله من إبراهيم أن يذبح ولده الحبيب الوحيد «اسماعيل»، وذلك ليختبر الله حب إبراهيم له عن طريق اظهار مدى طاعته في تنفيذ أوامره.

وفي مرحلة لاحقة من تطور البشرية، ساد الاعتقاد بأن الله قطع على نفسه عهداً مع نوح بالآبائيد البشر مرة أخرى، وقد التزم بهذا العهد، ليس فقط لأنه

ارتبط بالعهد، ولكن لأنه ارتبط بمعياره الخاص وهو صفة من صفات الألوهية، وهي صفة العدل، فالله عادل، ولأن الله عادل فإنه لم يجبر إبراهيم على ذبح إسماعيل وإنما اختبر امتثاله للأمر الإلهي فقط ثم فداه بذبح عظيم.

ثم تأتي مرحلة جديدة يتغير فيها اعتقاد الناس عن الله ووصفه بالظلم والجبروت إلى صورة أب حبيب. يصبح الإله أبا رحيمًا يرتبط بقواعد أساسية هو، الذي سنهها لنفسه، وهي تتجه إلى تحويل الإله من صورة الأب إلى رمز للعدالة والحقيقة والحب. «الله محبة»، والله عدالة (هو الحكم العدل). وخلال مراحل التطور هذه وصل الإنسان أخيراً إلى مرحلة أصبح فيها الله رمزاً، فلم يعد الله شخصاً كما كان سابقاً سواء أبا أو أما. لقد أصبح رمزاً للقوة الواحدة العليا والتي تقف خلف كل ظواهر الكون ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] لم يعد للإله في نظر الإنسان اسم محدد، فالأشياء والأشخاص والأماكن هي التي يمكن أن تحمل أسماءها، أما الله الذي يدرك الأبصار جميعاً ولا تدركه الأبصار، ولا يحده الزمان ولا المكان فليس له اسم من الأسماء المحدودة، فكيف يكون للإله اسماً إذا لم يكن شيئاً ولم يكن شخصاً.

والمثال الذي يوضح مرحلة التطور هذه، نجده في قصة موسى عليه السلام عندما أمره الله أن يدعو قومه إلى الإيمان بالله. لقد خشى موسى عدم تصديق بني إسرائيل له إلا إذا قدم لهم الأدلة المادية على نبوته وحدد لهم اسم الله. ولقد تحقق ماخشيه موسى من بني إسرائيل فقد قالوا له ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، وكان الذي طلب منه هذا الطلب هم صفوة علماء بني إسرائيل. وأخبر الله موسى عليه السلام أن يقول لقومه أنه رسول الحى القيوم، وهذا يعنى الأبدية واللاتهائية، وهذا يعنى أيضاً أن الله ليس بشرا له عمر محدود، وليس شيئاً مادياً لأن المواد أيضاً فانية، ولما لم يقتنعوا أخذتهم الصاعقة. الله ليس كمثله شيء ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤] هذا التصور لمفهوم الله يهدف إلى تحرير العقل البشري من التشبيه، أو من تصور الله على أنه الأب أو على أنه شخص ما.

ويرى بعض رجال الفكر الديني في الغرب -وأيضاً تصور جماعة الدروز- أنه

من الأفضل ألا يستخدم الصفات الايجابية في تحديد الله أو وصفه بها. انهم يرون أن وصف الله بالقوة في قولنا «القوى» أو «العزیز» أو «الحكيم» وصف يضع الله سبحانه وتعالى من جديد في تصورنا على أنه شخص يملك هذه الصفات، ويرون أنه من الأفضل أن نتحدث عن الله بيا ليس فيه من صفات، أى باستخدام الصفات السلبية، وبالتالي يكون بإمكاننا أن نخلع عن الله تصورنا له كبشر فنقول أنه «لانهائي» أو أنه ليس ظالماً وغيرها من الصفات مثل «لم يلدو ولم يولد، ولم يتخذ صاحبة ولا ولد»، وكلما ازدادت معرفة الإنسان بالصفات السلبية لله كلما عرف الله أكثر.

وإذا حاولنا أن نطبق فكرة المؤمنين بوحداية الله، فإننا سنصل إلى نتيجة واحدة وهي أن نصمت تماماً أمام الله، أن نصمت عن الله، وألا نتحدث عنه، لأننا لم نبلغ الدرجة التي تجعلنا نتحدث عنه، انه أصل الوجود، وهو المسئول عن وحدة الكون، الله هو الوجود وما عداه فهو العدم.. الله هو الأصل، انه هو الحقيقة الوحيدة في الكون، هو الحب وهو العدل.

تصل بنا هذه المناقشة إلى أساس يوضح لنا الفروق في حب الإله. أن إله إبراهيم يمكن أن يُحب ويمكن أن يُخشى تماماً كما يحدث نحو الأب.. حب للأب وخشية من عقابه، انه أحياناً يعفو ويصفح، وأحياناً يشور ويعاقب، وهذا يوضح لنا الجانب التحكيمي القادر لله، هو القادر على كل شيء، يفعل ما يشاء. وإذا كان الله هو الأب فان الانسان يقف أمامه مثل الطفل تماماً. والانسان هنا لم يتخلص بعد من الرغبة الدينية في المعرفة، معرفة كل الصفات الألهية، ومعرفة الحكمة الألهية، وهذا يعني أننا لم نصل إلى أعلى درجات الموضوعية للاعتراف بحدودنا الإنسانية، وبأننا لانعرف كل شيء، وبأننا عاجزون عن المعرفة. الإنسان هنا كالطفل الذي لا بد له من أب يساعده ويحنو عليه ولا يعاقبه، أب يحبه عندما يطيع ويمثل للأوامر، أب يشعر أن طفله يتملقه عندما يمدحه طفله، أب يغضب ويثور عندما يكون طفله غير مطيع.

انه من الواضح أن كل الناس قد مروا أثناء نموهم ونمو شخصيتهم بمرحلة الطفولة هذه، ويبدو أنهم لم يتخلصوا منها بعد، فهي توجد لديهم في الاعتقاد في

الله المتمثل في صورة الأب الذي يقف بجانب الطفل ويساعده ويشد أزره . ورغم الحقيقة الواضحة بأن هذا المفهوم البدائي أو الطفلي قد اختفى لدى الكثيرين ، وخصوصاً في الأديان الكبرى إلا أنه مازال هو الشكل السائد من أشكال العقيدة الدينية .

إن الإنسان المؤمن حقيقة يعبد الله ويؤمن به لا لشيء ، لا يطلب منه شيئاً ولا يرجوا لنفسه شيئاً ، انه يحب الله ليس كحب الطفل لأبيه أو لأمه . لقد بلغ الإنسان المحب لله والمؤمن به حداً بعيداً بالدرجة التي تجعله لا يعرف شيئاً عن الله ، انه فقط يعبده ويقدسه ويحبه . إن الله هو الرمز ، هو السر الذي يسعى إليه الإنسان ، هو الحب ، هو الحق ، وهو العدالة . انه يثق في قوانين الله وقوانين السماء ، انه يفكر تفكيراً سليماً ، انه يعيش في ظل عدالة الإله ، ولا يجد حياته أى معنى إلا إذا ارتبطت بالله ، فهو الذي يعطيه الفرصة ويوفقه ويمنحه القدرة . ان الله هو الحقيقة الوحيدة في الكون ، انه هو أصل هذا الكون يستدل به على الكون ولا يستدل بالكون عليه . وما يزال الانسان يحب الله حتى يصبح قريباً منه ، وفي حديث قدسي يقول الله عز وجل « . . . وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبيته ، فإذا أحبيته كنت سمعه الذي يسمع به ونظره الذي ينظر به ويده التي يبطش بها » .

الفصل العاشر

الله والمجتمع الغربي

اعتمد الغرب على أساليب الاستدلال المنطقي التي ورثها عن أرسطو للاستدلال على وجود الله . ولقد ظهرت أيضاً فلسفات جديدة تعتمد على المنطق المادي والفلسفة الجدلية عند «هيجل» و «ماركس» . . وتوضح هذه الفلسفات أن الصراع هو أساس الوجود . . يقول هيرقليطس «ان الاختلاف يحمل في ذاته عناصر الاتفاق» ، وانه في كل انسان منا يوجد الموت والحياة ، والقوة والضعف ، واليقظة والنوم ، وكذلك الشباب والهرم . . وترى هذه الفلسفات أن أعلى درجات المعرفة هي معرفة أن الإنسان جاهل لايعرف شيئاً ، وأن الإله الأعظم ليس له اسم ، وأن الحقيقة العليا لايمكن أن تحصرها الكلمات والأفكار . يقول لاوتسه Laotse أن المفهوم الذي يستطيع الانسان أن يدرك معناه ليس هو المفهوم أو المعنى الخالد ، وأن الإسم الذي يستطيع الإنسان أن يسميه ليس هو الإسم الخالد ، وبعبارة أخرى إن الإنسان يبحث عن الله ولكنه لايراه ، انه يصغى إليه ولايسمعه ، ان اسمه رقيق لايدركه الانسان .

يرى معارضوا فلسفة أرسطو أنه اذا كان الله هو الحقيقة الأزلية ، فإنه لن يكون بإمكان العقل البشري أن يعي هذه الحقيقة لأن العقل البشري عقل قاصر عن الإدراك ، ولايستطيع القاصر أن يدرك الكمال . . وعندما يصف الإنسان الله بأنه هو العليم الخبير -مثلاً- فإن هذا يدل على أعلى شكل من أشكال عدم المعرفة . إن الإنسان لايستطيع أن يعرف على الاطلاق ما هو الله ، ولكنه يعرف ما دون الله وما سواه ، والعقل الإنساني مع ذلك يصر على البحث ويصر على المعرفة . ويعتقد مايستراكرت Meister E. أن الله هو «نفي النفي» أو «انكار الإنكار» فكل المخلوقات تحمل في ذاتها انكاراً أو نفياً بأن يكون الواحد منها شيئاً آخر وعلى ذلك فإن الله هو الحقيقة الأزلية وهو الآخر اللانهائي .

يرى أصحاب المنطق المعارض أيضاً أن حقيقة الإنسان تكمن في قدرته على إدراك الأضداد ، وفي ادراكه للحقيقة الأزلية حتى ولو على مستوى غير المستوى

الفكري . ان الفكر يؤدي فقط إلى ايقاظ الوعي ، ولكنه لا يوصل بالضرورة إلى الإجابة التامة والنهائية . وسيظل عالم الفكر محبوساً في سجن المتناقضات ، والطريق الوحيد اذن لفهم العالم لا يكمن في الفكر ولكن في خبرة التوحد . . وهذا يؤدي إلى القول بأن حب الله ليس هو المعرفة الفكرية والعقلية لله ، وليس التفكير في حب الله ، ولكنه هو النشاط الايجابي الذي يجعل الانسان يعيش هذه الخبرة فعلاً . هذا النمط من الحب يؤدي إلى التركيز على رسم الطريق الصحيح في الحياة كلها ، فكل صغيرة وكبيرة في حياة الإنسان يقررها حب الله ، وبالتالي فهي ليست ناتجة عن المعرفة العقلية كنتيجة للتفكير .

والتأمل للفكر الغربي الحديث سيجد هذا النوع من التفكير لدى العديد من الفلاسفة وعلماء النفس والاقتصاد فنجدهم يرون ، أن الإيمان الصحيح هو نوع من ممارسة واقامة الحياة الصحيحة . وفي هذا الاطار توصل فرويد بتفكيره إلى اكتشاف العلاج بالتحليل النفسي عن طريق التأمل والتعمق الدائم في أعماق نفسه وفي أعماق خبراته الخاصة ، انه فكر أو منطق لا يعتمد على الفكر بقدر ما يعتمد على الخبرة والممارسة ، وهذا الاتجاه أدى إلى مجموعة من النتائج نعرض أهمها : أن كل انسان يدرك الحقيقة من خلال خبرته الخاصة ، وبالتالي فإن الحقيقة لا بد أن تكون نسبية ، وعلينا ألا نهاجم الآخرين الذين يصيغون أفكارهم بطريقة تختلف عن صياغتنا لأفكارنا . وقد أدى هذا المنهج أيضاً إلى القول بأن المهم هو إعادة تشكيل الإنسان وليس التركيز على تنمية القانون العلمي . أن مهمة الدين في الصين والهند ولدى المتصوفين ولدى المتهنئين ليست هي توصيل الناس إلى التفكير الصحيح ، ولكن توصيلهم إلى أن يجربوا بعمق خبرة الرياضة الروحية والسياسة النفسية في ملكوت الله وفي الكون ، هي التأمل الذهني المركز والعميق الذي يفصل الإنسان عن الوجود المادي ويصله بالله اتصالاً روحياً .

وإذا كان هذا المنهج التأملي القائم على معايشة الخبرة والممارسة ، هو منهج الفلاسفة ورجال الدين الغربيين ، إلا أن علماء الغرب ومفكره في الوقت الحاضر ، قد نبذوا هذا المنهج جانباً وأخذوا الاتجاه المناقض ، فهم يعتقدون أن العصور على الحقيقة الأزلية يكمن فقط في الفكر ، وأن التفكير العقلي هو المنهج وهو الطريق

الوحيد الذي يوصل إلى المعرفة ، بغض النظر عما إذا كان الإنسان قادراً على المعرفة أم لا . . قادراً على الوصول إلى الجوهر أم لا . ويرى رواد هذا المنهج القائل بأنه بإمكان الإنسان أن يخبر الحقيقة على المستوى الفكري بأن هذا المنهج والأسلوب لا يؤدي فقط إلى وضع قانون ، ولكنه يؤدي أساساً إلى العلم . . وفي التفكير العلمي لا يؤخذ في الاعتبار إلا الفكرة الصحيحة ومعياري الصحة هنا هو العقل ، وكذلك التطبيق العلمي في المجال العملي أي الانتقال إلى مجال التكنولوجيا .

ومن هنا يعتقد علماء الغرب بأن منهجهم وأسلوبهم الفكري قد أدى بهم إلى فقدان الصبر وإلى سرعة الانتاج والانجاز . . أدى بهم إلى الوصول إلى قوانين علمية جديدة . وأدى بهم إلى اكتشاف الطاقة النووية . وفي نفس الوقت يوجهون النقد إلى الفكر الديني المسيحي وإلى الفكر التصوفي الشرقي بأنه فكر يؤدي إلى الجهاد والصبر وإلى بذل الجهد النظري وليس الجهد التكنولوجي .

الفصل الحادي عشر

حب الله في المجتمع الإسلامي

تقرر العقيدة الإسلامية بأن الله ليس كمثله شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ومن البديهي أن لا يستطيع عقل الإنسان القاصر أن يعرف من ليس كمثله شيء. هذه المعرفة لله تبدو مستحيلة، ويتضح استحالتها في حق الكائنات جميعاً. يقول الإمام الجنيد: «لا يعرف الله تعالى إلا الله تعالى» أي أن المعرفة الحقيقية التامة لا تكون إلا لله تعالى. ويتفق في هذا الرأي الإمام الغزالي، وكذلك تنتهي معرفة العارفين بالله إلى عجزهم عن المعرفة. وإذا كانت المعرفة الحقيقية لله مستحيلة على البشر فإنه لا يبقى أمامنا إلا المعرفة النسبية وهي معرفة أسائه سبحانه وتعالى ومعرفة عجائب صنعه في الكون. لقد خلق الله الخلق ليعبده، والعبادة هي قمة المحبة والمحبة هي قمة المعرفة. والحب في الإسلام هو القانون الحاكم في الوجود، وعطاء الله هو سبب ميلاد الكون والإنسان، وقد خلقنا الله ليتفضل علينا بحبه، وليسمح لنا بحبه. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وهنا كما هو واضح يتوعد الله من يرتد عن دينه وهذا هو أفدح الذنوب، يتوعد بأرقى ما في الوجود من مشاعر الحب، لا يهدد بالنار والعذاب، وإنما يهدده بأن يستبدل به قوماً يحبهم ويحبونه. . إن القيمة الوحيدة التي تقف على النقيض من الشرك بالله وعدم الإيمان به هي قيمة حب الله.

إن قانون الحب الأعلى كما سبق أن وضعنا - هو العطاء. . وإذا كان الحب عطاء فإن الله وحده هو المعطى. . فهو يعطي عباده كل شيء، أما العبد فإنه لا يستطيع أن يعطي شيئاً، إذا أنفق الإنسان من ماله في سبيل الله فإنه لا يعطي الله شيئاً لأن المال مال الله، وإذا استشهد في سبيل الله فإن الجسد والروح ملك خالص لله، ولا يمكن أن يقال لمن يرد الأمانة إلى الله المالك الأصلي أنه يعطيه شيئاً. إذن فقانون العطاء لا يسري إلا على الله فقط، وبالتالي فإن الله وحده هو المحب، ومن الوهم أن يتصور الإنسان غير المؤمن أنه يحب الله، فالحقيقة أن الله هو الذي يحب الإنسان

ويقبل منه الشكر بدلا من العطاء، ويجعل الشكر سببا في زيادة العطاء ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٤٧]. انه لمن دواعي الرحمة بالإنسان أن يخفي الله سبحانه وتعالى حكمته عن البشر، لقد أعطاهم من الحكمة قدرًا يمكنهم من الخلافة في الأرض، وأعطى الأنبياء قدرا يمكنهم من الدعوة إليه، أما سر حكمته العظمى فقد أبقاه سرا لذاته، ومن الأفضل أن نسجد لله بدلا من السؤال عن ذاته. ورغم هذه الحقيقة فإن الإنسان لا يكف عن الأسئلة سواء عن حكمة الله أو عن ذات الله. إن الأصل في العقيدة الإسلامية هو المعرفة والسؤال حق للإنسان، حق للإنسان أن يسأل عن كل شيء وعن أي شيء وأن يفكر في كل شيء، وليس هناك أي منطقة محرمة إلا منطقة واحدة وهو التفكير في ذات الله، وذلك لسبب بسيط وهو أن ذات الله تعالى تتجاوز طاقة العقل البشري وقدرة الفكر الإنساني، فكيف يدرك العقل القاصر حقيقة الإله الأزلي الكامل. أن الدليل في الإسلام على وجود الله هو الله ذاته. يقول الإمام الغزالي بعد تجربة الشك التي خاضها كمنهج لمعرفة الله، شككت في كل شيء، ولم أهتم إلى شيء وإذا بإيمان قذف الله به في صدري فأمنت واسترحت من الشك. الطريق إذن لمعرفة الله هو الله. . هو الإيمان بالعقل مخلوق لا يدل إلا على مخلوق مثله. وليس معني هذا كما يدعى الغربيون أن دين الإسلام هو دين إيمان وصبر وتأمل فقط، فالعقيدة الإسلامية هي المسئول الأول عن قيام المنهج التجريبي في دنيا المادة، وهي المسئول الأول عن إطلاق عنان الفكر وحسه على النظر والتأمل والتفكير في الكون. أما ذات الله فهي ليست مادة تخضع لتأمل العقل وأسئلته. فالعقيدة الإسلامية باحترامها للعقل ومخاطبتها الدائمة للعقل، قد بينت للعقل أيضاً حدوده التي يتوقف عندها. ففي دنيا الغيب لا يلجأ المسلم إلى العقل وإنما عليه أن يؤمن بالغيب وأن يصدق ما أتى به الرسول.

ان السؤال عن ذات الله هو سؤال خاطيء منذ البداية لأنه يفترض خضوع الله لقوانين الحياة الإنسانية، وهي حياة تعرف بالمشاهدة والتجربة وينطبق عليها قانون الأشياء، ويتصور أصحاب هذا السؤال أن قانون الأشياء يمكن أن ينطبق على الله. . ولو تأملنا قليلا لوجدنا أن لكل كائن قانونه الخاص الذي لا ينطبق على

الكائنات الأخرى ، وهذا يعني أن القانون البشري لا ينطبق على ذات الله . إذا كان الإنسان يولد وينمو ويتزوج ويلد فإن الله سبحانه وتعالى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤] «لم يتخذ صاحبة ولا ولدا» إذن فلا سبيل إلى معرفة الله إلا الإتيان بالله .

لا تنكر العقيدة الإسلامية أن يستدل الإنسان بنفسه وبالكون على وجود الله وانما تدعو إليه ، وهذا يؤكد احترام هذه العقيدة للعقل . وتوجد مستويات للاستدلال على وجود الله ، فالنظرة التقليدية تبدأ من الكون والإنسان ، أى تستدل من وجود الكون على وجود الله ، أما النظرة الأعلى والأرقى فهي تتجاوز الوجود إلى الموجد وتجاوز الكون إلى الله ، أى أنه تستدل بوجود الله على وجود الكون ، وهكذا يفعل بعض المفكرون الاسلاميون ، فمنهم من يعتقد أن الفكرة التقليدية في الاستدلال على وجود الله خطأ ، ويعتقد أن الكون كان ظلمة أثار بظهور الحق فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهد الله فيه أو عنده فقد حجبت عنه شمس المعارف ، فكيف يتصور العقل أن يحجبه شيء وهو أساس وجود كل شيء ، كيف يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء . . " الهى كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ، أياكون لغيرك من الظهور مالميس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التي توصل إليك؟ شتان بين من يراه ويستدل به ومن لا يراه فيستدل عليه " . ان الكون نسبي له نهاية أما الله فهو أزلى مطلق ، ونحن ندرك الكون بحواسنا ، وقد نتخذنا الحواس ، ولذلك فإنها لاتوصلنا إلى الحقيقة . قمة العقيدة الإسلامية إذن تكمن في معرفة الله بالله أى الإتيان ﴿.. أفى الله شك فاطر السموات والأرض...﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ [آل عمران: ١٨]

القانون الأساسي في الإسلام هو قانون التوحيد ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] .

واخلاص التوحيد يعنى محبة الله ، يعنى محبة العدل وكرهية الظلم والله هو العدل والعدل . بالتوحيد يحب الانسان في الله ويكره في الله ، ان التوحيد حقيقة ، ولكنها يجب أن تجد مجال التطبيق في الحياة ، فالمعرفة النظرية والعقلية بحقائق الدين الإسلامي تفقد الحقائق معناها ، ولا تحقق الحكمة الالهية في خلافة الانسان لله في الأرض . ليس التوحيد فكرة عقلية مجردة ، وانما هو قانون يجب أن يظهر أثره في الحياة ، واهدار هذا القانون هو المستول عما يصيب المسلمين والمجتمع الاسلامي من مأس في حياتهم ، فحين اقتصر التوحيد على القول بغير عمل ، وعلى الشهادة بالأفواه بغير سلوك فعلى ، صار سهلاً على الناس أن يكرهوا العدل ويحبون الظلم ، وأن يسكتوا على الظالم ولا يناصرون المظلوم صاحب الحق ، أصبح من السهل عليهم أن يلجئوا إلى التواكل والكسل وعدم السير والسعى في الأرض ، وبذلك أنكسر أهم قانون من قوانين الحياة والخلافة في الأرض ، قانون اختيار الأفضل سواء في أسلوب العمل والانتاج أو في أسلوب الإدارة أو في شكل الحياة الانسانية الاجتماعية وكل العلاقات الانسانية

﴿... وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...﴾ [البقرة: ١٦٥] أى أن حب الله صفة من صفات المؤمنين وغاية من غايات وجودهم ، وما جزاء الحب إلا الحب «وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبيته فإذا أحبيته كنت سمعه الذي يسمع به ، وكنت نظره الذي يبصر به ، وكنت يده التي يبطش بها» أى أن طاعة العبد لله وحبه لله تجعله قريباً عند الله مخلصاً لله ، ذاكراً له ، يقول الله تعالى ﴿... وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى...﴾ [الأنفال: ١٧] العقيدة الإسلامية إذن تقوم على جانبي العقل والحب وهو قمة العبادة ، والعبادة قمة المعرفة فلا حب بلا معرفة ، والإنسان الذي لايعرف لا يستطيع أن يحب ، انما يقدر على الحب من يقدر على التفكير والفهم والملاحظة والرؤية والاحساس والعطاء ، وكلما ازدادت معرفة الإنسان كلما زادت قدرته على الحب . إن أهم قوانين الحب هو العطاء ، والعطاء في الحب ، يعطى الإنسان احساساً بالسعادة وكأنه يأخذ ، العطاء يحتاج إلى رقى الإنسان ، فلا يستطيع الإنسان أن يخرج من أنانيته إلا إذا ارتقى علمه ونضجت شخصيته ووجدانه .

ولا توجد عقيدة تربى أبناءها على الحب مثل عقيدة الإسلام . قد لا يتحدث الإسلام كثيراً عن الحب ، ولا يستخدم هذه الكلمة كثيراً ، لأنه يعرف حقيقة الحب ويأرسه في حياته اليومية . وإذا كان الحب هو الحل الوحيد لخروج الإنسان من عزلته والخلاص من غربته ، أى الخروج من سجن الذات والأنانية إلى الكون الرحيب ، فإن الحب جزء من أصول الإسلام وقواعده ، لأن الإسلام يصل المسلم بالله أولاً وأخيراً . فالمسلم المؤمن لا يكون وحيداً ولا غريباً ، لأنه يعرف أن الله معه . المسلمون يتصلون بالله مباشرة وبلا واسطة فالله معهم في كل وقت وفي كل مكان ، ﴿... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ...﴾ [الحديد: ٤] هذا الاتصال هو أول المعرفة النظرية بالعقيدة ، فشهادة الإنسان بالوحدانية لله سبحانه وتعالى تعنى خروجه من سجن العزلة والغربة إلى الاتصال بالكون وبخالق الكون . وإذا شهد الإنسان أن له رباً ، وإذا أيقن أنه ليس وحده في هذا الكون الفسيح ، تحرر من الغربة والخوف ، وتحررت طاقته ومواهبه ، وبالتالي يصبح الإنسان حراً .

شهادة الإنسان بوحدانية الله ، هي بداية الحب النظري والمعرفة النظرية ، والصلاة هي التطبيق العملي لهذه المعرفة وهذا الحب لأنها التقاء بالله واتصال به ، والزكاة عطاء وهى أحد قرانين الحب ، والصوم امتثال لأوامر الله حبا فيه ، والحج احياء لأحد شعائر حب الله ، تذكراً لحب إبراهيم لله وتقديم ولده الوحيد قربانا لله دليلاً على حبه . وهكذا يجد المتأمل للعقيدة الإسلامية انها عقيدة تقوم أساساً على الحب . . أرقى أنواع الحب . . حب الله . . الجهاد في الإسلام حب لله ، لأن الأرض هى أرض الله ، والإنسان هو خليفة الله في الأرض وهو المسئول عن الجهاد في سبيل الله دفاعاً عن الحق ورفعاً للظلم والشر .

إن الإسلام لا يعرف غلواً في شىء على حساب شىء آخر ، فهو يهوى للإنسان توازناً يمكنه من القدرة على العمل ، ولذلك فلا بد من التعامل بحذر مع ما ذهب اليه المتصوفون بل ولا بد من توجيه النقد الشديد إلى أولئك المتصوفين الذين لجئوا إلى الزهد وإلى الصوامع وبعدوا عن المجتمع ، لأنهم إذا كانوا قد وجدوا هدوءاً وراحة النفس - وهو أمر مشكوك فيه - فإنهم لم يقدموا أى شىء لاصلاح المجتمع . يعرف

الإسلام حب الله ولكنه لا يعرف الرهينة «لا رهبانية في الإسلام» يحترم الإسلام العقل ولكنه لا يجعل له السيادة على الروح ، يقرر الإسلام حقائق الوجدان ولكنه لا يسمح لها بشل نشاط العقل ، يعترف الإسلام بحاجات الإنسان الدنيوية ولكنه يطالبنا بالأنا ننسى الآخرة وأن نجعل الدنيا طريقاً إليها .

لقد كانت الشخصية الإسلامية في أعلى درجات نضجها وكما لها في عهد النبي ﷺ وكانت العقيدة الإسلامية في أوج تناسقها مع شخصية المسلم ، وبتطور المجتمع الإسلامي بدأ التوازن يختل ، فقد ظهر المتكلمون ورأوا أن الحياة عقلا فلسفيا جافا يتيه اعجابا بنفسه - مثلما يفعل المجتمع الغربي في الوقت الحاضر- ورأى المتصوفة أن الحياة ماهي إلا وهج من الحب الذي يخلو من العقل ، وكلاهما على باطل فلا يمكن أن تغلب العلانية على العقيدة الإسلامية الصحيحة ولا يمكن أن يكون الإسلام مجرد شطحات روحية وخيالية لدى نفر عزلوا أنفسهم عن المجتمع وعاشوا لانفسهم فقط . وهنا يحضرنا ما قاله الرسول ﷺ لأحد الأشخاص الذي كان يجلس دائماً بالمسجد ولا يعمل فلما سأله النبي ﷺ عن أمره قال : إنما اتفرغ للعبادة ، فسأله الرسول ﷺ ومن يعولك أو ينفق عليك ؟ قال الرجل : أخي يعمل وينفق علي ! فقال له الرسول ﷺ " إن أخاك أعبد منك " . ولم لا والقرآن الكريم يحثنا ويعلمنا السلوك الصحيح ففي سورة الجمعة يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١٠) [الجمعة : ٩ ، ١٠] وفي سورة الحج يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ (٢٨) [الحج : ٢٧ ، ٢٨] وهذه النداءات توضح لنا أن العبادة لا تمنع العمل بل الأكثر من ذلك أن في العبادة عملاً ، فما المنافع في الحج وهو عبادة إلا نوع من العمل والكسب ، وهذا ما يختلف تماماً عما يذهب إليه بعض المغالين والمتطرفين في العبادة والعقيدة .

إن ما يعتقده الغرب عن الإسلام وعن التجربة الروحية فقط والمتمثلة في خبرة الصوفية أن هو إلا وهم خاطيء، فما غلو الصوفية وشطحاتهم إلا تعبير فني أو أدبي عن مشاعر أديب أو فنان، ولا يمكن أن يحتسب التعبير الفني بأى شكل من أشكاله أو صوره على الإسلام، لأنها أساليب تعبير فني تعتمد على الخيال والعاطفة، ولا بأس على من يحب ويذوب حبا أن يعبر عن حبه في أي صورة فنية، مادام بعيداً عن المساس بأصول العقيدة، مع الاعتراف بأن هذا النوع من الإيثار إنما هو إيمان سلبي ومحسوب على تقدم المجتمع الذي يعيشون فيه أسما وهم منفصلون عنه فعلاً، فانهزال المتصوف في صومعته لا يصلح إلا نفسه - إن صح هذا القول - ولكنه لا يصلح المجتمع وما أخرجنا إلى صلاح النفس وإصلاح المجتمع.

وهكذا نجد أن حب الله في المجتمع الغربي ماهو إلا خبرة فكرية في العصر الحاضر، أما حب الله في المجتمعات الشرقية والمجتمع الإسلامي فهي خبرة عقلية ووجدانية تشمل جميع نواحي الحياة، أما خبرة المتصوفين والمترهبين فهي خبرة روحية خالصة، وهذا ما يرفضه الدين والعقل.

نعود من جديد إلى حين متوازيين وهامين هما حب الوالدين وحب الله. إن الطفل يرتبط بأمه في البداية على أنها هي أساس وجوده. إنه يشعر بعجزه وبحاجته إليها وإلى حبه. وفي مرحلة تالية يرتبط الطفل بوالده، فيصبح الأب هو محور الارتكاز، ويصبح أيضاً هو المثال والقدوة في تفكير الطفل وتصرفه. هدف الطفل في هذه المرحلة هو الحصول على رضا الأب ومدحه وتجنب غضبه وتجنب الوقوع تحت طائلة عقابه. وفي مرحلة البلوغ يكون الإنسان قد انفصل تماماً عن الأم، وكذلك يكون قد تحرر تماماً من الأب. إن الإنسان في هذه المرحلة يكون قد استدمج في داخله مبادئ الأب ومبادئ الأم، لقد أصبح هو سيد نفسه، هو أم نفسه وهو أب نفسه. وفي تطور الإنسانية كلها نرى هذه الصورة من تطور ونمو الطفل، فقد كان ارتباط البشر في البداية هو ارتباط الطفل العاجز بالأم ربة الطفل، ثم كان ارتباط بطاعة الأب رب الطفل حتى يصل إلى مرحلة البلوغ والاستقلال. وفي هذه المرحلة لا يمثل الله للإنسان صورة الأم أو صورة الأب، وإنما يصبح مجرد رمز يعيه

الإنسان من داخله، في هذه المرحلة يرى الإنسان أن الحب والعدالة تتمثلان في القرب من الله .

أن حب الله من هذا المنطلق الفكري لايفصل عن حب الوالدين . فعندما لا يستطيع انسان ما أن يتحرر من حب الأم والأرتباط بها ، وعندما لا يستطيع الاعتماد على نفسه ، وعندما لا يستطيع الإنسان أن يتحرر من الأب الذي يثيب ويعاقب ، أو يتحرر من أية سلطة أخرى ، فإنه لن يستطيع أن يحب الله حباً ناضجاً ، ذلك أن ايمانه وعقيدته سيكون على أساس مرحلة سابقة في حياة الإنسان حيث كان اله الإنسان فيما مضى أي في طفولته هو الأم التي تحميه والأب الذي يعاقبه أو ينعم عليه .

اننا في العصر الحاضر نجد أمامنا هذه المراحل جميعاً من طفولة البشرية وحتى نضجها الحالي . أن كلمة الله تعنى أصل الوجود كما أنها تعني الأزلية . ان كل انسان - كما قال فرويد- يحمل في عقله الباطن (اللاشعور) نموذجاً لكل المراحل التي مرت بها البشرية منذ بداية الخلق . . والسؤال هو: إلى أى مدى سيستطيع فرد ما أن يصل في نموه؟ ان ما يمكن قوله هنا هو أن حب فرد ما لله يرتبط بالدرجة التي وصل إليها هذا الفرد في نموه ونضجه وفي نمو حبه لوالديه ، وحبه لكل البشر . ان حبه لله وحبه للناس يكون في الغالب حباً لاشعورياً ، انه حب مستور، وقد ألفت له الأسباب العقلية من خلال التطور الفكري العقلي والبحث الدائم عن مفهوم الحب . ان حب الناس يتم من خلال الفكر والاختيار، أما حب الأسرة فإنه حب يتم مباشرة من خلال صورة المجتمع ومن خلال تكوين هذا المجتمع . عندما يكون البناء الاجتماعي للمجتمع قائم على أساس وجود السلطة المتحكمة ، سلطة التسويق والدعاية التجارية ، أو سلطة الإعلام ، فان حب الله وحبه للناس لن يكون حباً ناضجاً بمفهوم الأديان السماوية .

وما يمر به المجتمع الأوروبي الصناعي في الوقت الحاضر ورغم وجود أنظمة ديمقراطية في معظم الدول الأوروبية ، يشكل نمط الحب في المجتمع بطريقة أخرى

فقد بدأت غربة الإنسان تزداد في هذا المجتمع بعد أن أصبح الإنسان مجرد جزء من آلة الانتاج .

لقد صنعوا الصنم واغتربوا عنه وبدءوا يقدسونه ويعبدونه ويخضعون أنفسهم له . وما الصنم في المجتمع الصناعي إلا آلات الانتاج الضخمة المعقدة والتي خضع لها كل أفراد المجتمع .

الباب الثالث

الحب بين السواء والمرضى

الفصل الثاني عشر

الحب في المجتمع المعاصر

إذا كنا ننظر إلى الحب كقدرة من القدرات على أنه نتاج لنضج الإنسان ونمو شخصيته الخلاقية ، فإنه لا بد أن تكون هذه القدرة على الحب موجودة بالضرورة لدى كل انسان يعيش في مجتمع ، ويخضع لهذا المجتمع بما فيه من مؤثرات تترك بصماتها على شخصيته .

عندما نتحدث عن الحب في المجتمع المعاصر فإننا نتساءل عما إذا كان بناء هذا المجتمع وتركيبه الحضاري يطالب الإنسان بالحب ، ويساعده على الحب أم لا؟ إن طرح هذا السؤال يعني أن الاجابة عليه ستكون حتما بالنفى . . فلا يوجد انسان موضوعي أو حيادي ، يلاحظ المجتمع الصناعي الحديث ، ويلاحظ الحياة في هذا المجتمع بطريقة محايدة ، إلا ويتشكك في وجود الحب كظاهرة اجتماعية في هذا المجتمع ، سواء كان هذا الحب هو حب الآخرين أم حب الأم أو حتى الحب الجنسي . فقد حل محل هذا الحب نوع آخر من الحب المرضى غير السوي . وهذا الحب المرضى ما هو إلا دليل على أن الحب الطبيعي قد بدأ ينقرض تاركا خلفه حطاما أو أطلالا من الحب .

يقوم المجتمع الصناعي على مبدأ الحرية السياسية من ناحية ، وعلى مبدأ التسويق الاقتصادي وتسويق العلاقات الاجتماعية من ناحية أخرى . ان سوق الاستهلاك هي التي تحدد الشروط التي تخضع لها عملية المقايضة ، أما سوق العمل فهي التي تنظم بيع وشراء القوى العاملة . لقد أصبحت الأشياء التي يحتاج إليها الإنسان وكذلك طاقة الانسان ومهاراته من السلع التي تخضع لتسعيرة السوق ،

وهذه يمكن المقايضة عليها وفقاً لشروط السوق، بلا اغتصاب أو إجبار وبغير أساليب الحيل والخداع. وتخضع كل السلع في السوق لقانون العرض والطلب. وكذلك نجد أن الطاقة الإنسانية أو القوى العاملة البشرية، كما يطلق عليها عادة بها لديها من مهارات لا يمكن أن يكون لها أية قيمة إذا لم يكن السوق في حاجة إليها. يستطيع صاحب العمل أن يشتري القوى العاملة ويستعين بها في استثمار رأسماله في مشروع يدر عليه الربح. والذي يملك القدرة على العمل يتحتم عليه أن يبيع طاقته على العمل وفقاً للشروط التي تعرضها سوق العمالة إذا أراد ألا يتضور جوعاً. هذا البناء الاقتصادي للمجتمع يعكس نفسه مرة أخرى في تقييم وتنظيم القوى العاملة وفقاً لمهاراتها. يتحكم نظام العمل في قوى البشر، بدرجة تجعل الآلات الجامدة أكثر قيمة من الإنسان الحى العامل، وأكثر من قدرات الإنسان، وأكثر قيمة من كل ما هو حياة. وهنا تصبح قيمة الإنسان كامنة في مقدار ما يملكه هذا الإنسان (المال والقوة والمهارة والمعرفة) وليس في ماهية هذا الإنسان وكونه.

أن التكوين والبناء الاجتماعي لأى مجتمع رأسمالي، سواء كانت هذه الرأسمالية رأسمالية زراعية، أو تجارية أو صناعية تقليدية أو حديثة هو نفس التكوين. ان تطور الرأسمالية التقليدية إلى رأسمالية حديثة يعتمد على تغيير بعض العوامل، وهذه العوامل هي التي تجعل النظام الرأسمالي يؤثر في تكوين الإنسان وبنائه. وبإمكاننا أن نرى أحد نتائج تطور الرأسمالية متمثلة في الزيادة المستمرة في عملية التمرکز والتركيز الرأسمالي في أيدي عدد محدود من المستثمرين، فنرى أن المستثمرين الكبار يزدادون سعة وغنى وثروة، أما المستثمرون الصغار فإنهم لا يقدرون على مواصلة المنافسة فينكمشون، وقد ينسحبون من سوق المنافسة تماماً. ويلاحظ أن امتلاك رأس المال الذي يقوم المستثمرون الكبار باستثماره بدأ يأخذ في الانفصال التدريجي والمستمر عن إدارة هذا المال والإشراف عليه. فمئات الآلاف من حاملي الأسهم والسندات في الشركات هم أصحاب رؤوس الأموال، أما الذي يدير المال ويشرف عليه فهي إدارة بيروقراطية تحصل على مقابل مرتفع، لأن هذه الإدارة ليست ملكاً لصاحب المال أو المستثمر. وهذه البيروقراطية لا تهتم فقط

بتحقيق أكبر قدر من الأرباح ولكنها تهتم أيضا بتوسيع نفوذ أصحاب رؤوس الأموال والمستثمرين .

ان مشكلة الإنسان في المجتمع المعاصر يمكن صياغتها بالصورة التالية :
تحتاج نظم الانتاج الجديدة عنصراً بشرياً من نوع خاص ، تحتاج إلى إنسان مسالم يتعاون مع كل الأفراد الذين يعمل معهم في نظام العمل الجماعي . . إنسان يرغب في الزيادة المستمرة في الإستهلاك ، انسان ذى مزاج محدد . . انسان يسهل التأثر عليه ، ومن السهل التنبؤ بسلوكه . إن نظم العمالة والانتاج الجديدة تحتاج إلى انسان مستعد دائماً لتنفيذ التعليمات . . إنسان يؤدي واجبه بدقة . . انسان يطيع بغير داع إلى استخدام العنف ، انسان يترك زمامه لمن يتولى القيادة حتى ولو لم يكن قائداً ، وحتى ولو لم يكن أمامه هدف واضح . . الشيء الوحيد الذي يميز انسان المجتمع الحديث هو أنه يعمل دائماً ويجد ويجهد . ما هي النتيجة التي يمكن أن تترتب على ذلك ؟

لقد انفصل الإنسان الحديث مثله مثل غيره من أفراد المجتمع عن الطبيعة وأصبح غريباً ، أصبح الإنسان الحديث مجرد سلعة ، انسان يشعر أن مايملكه من صحة ومن قوة وقدرة على العمل ، ان هي إلا رأس المال الذي يملكه ، والذي يجب أن يدر عليه أكبر قدر من العائد وفق شروط السوق ، أي وفق قانون العرض والطلب . لقد أصبحت العلاقات الإنسانية في هذا المجتمع هي الأشياء الغريبة بحق ، رغم أن شعور الإنسان بالأمن مرتبط بعدم بعده عن القطيع الذي ينتمي إليه بقدر الإمكان ، وبأن يشعر كل انسان في داخله ومن خلال تصرفاته بأنه انسان متميز عن باقي أفراد القطيع . وبينما يحاول كل فرد من أفراد المجتمع أن يقترب من الآخرين بأكبر درجة ، إلا أن كل فرد يبقى وحده منعزلاً تماماً يعاني في أعماقه من الشعور بعدم الأمن ومن الشعور بالقلق وكذلك من الشعور بالذنب والخوف من أن يقضى حياته كلها غريباً وحيداً ، إذا لم يتمكن من تخطي عقبة العزلة والانفصال الإنساني . ولقد قدمت الحضارة الزراعية المصرية وغيرها من الحضارات

الزراعية الأخرى للإنسان أساليب التخلص من الاحساس بالعزلة والانفصال ، فكانت ظاهرة المخدرات وجلسات «الجوزة» « الشيشة » هي التي تجمع الناس وتفرقهم في نفس الوقت . . يجتمعون ولكن كلا منهم يهيم في دنيا وعالم آخر من أثر المخدر . وبدأت الحضارة الحديثة المستوردة تقدم للناس العديد من الاحتمالات والامكانات لتساعدهم على عدم الوعي بالعزلة والشعور بالوحدة ، فنجد أن الأزمات المختلفة كما نجد أن الروتين القاسى يؤدي بالإنسان إلى التخلي عن مطالبه الإنسانية وعن أشواقه الى التوحد الإنساني والخلاص من الغربة دون أن يشعر بذلك . ولأن الروتين وحده لا يكفي ، فإن الانسان قد بدأ يخفف من شكه اللاشعوري عن طريق الاستمتاع الروتيني وذلك بالإستهلاك السلبي للأصوات والصور التي تقدمها صناعة المتعة ، وكذلك عن طريق اشباع الذات بالشراء والاستهلاك . يصور هكسلي Huxley الإنسان المعاصر بصورة يتضح منها أن الإنسان قد تغذى جيداً وارتدى الثياب الفخمة ، وحصل على الإشباع الجنسي ، ولكنه بلا ذات وبلا جوهر، انه في علاقة سطحية مع غيره من البشر، انه يعاني من الدعاية والعرض والإغراء بعدم تأجيل المتعة التي يمكن أن تحصل عليها اليوم إلى الغد، أي أنه على كل انسان أن يستمتع اليوم ، وأن سعادة الإنسان في هذا اليوم تكمن في المتعة التي حصل عليها هذا الإنسان ، وكأنه كان على موعد مع الخيام في ربايعاته الشهيرة :

لانشغل البال بماضي الزمان
ولا بـآت العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذاته
فليس في ضبع الليالي الأمان

يكمن الاستمتاع في الوقت الحاضر في اشباع الرغبة في الإستهلاك وحب التملك ، سواء تملك السلع أو الصور أو الأكل أو المشروبات أو السجائر ، وكذلك تملك البشر و تملك الكتب والصحف والمجلات والأفلام وكذلك الأجهزة الحديثة . كل شئء يصبح سلعة استهلاكية ، والإنسان يستطيع أن يتلذذ كل

شئ . إن العالم كله يقف لسد حاجتنا ومنع جوعنا . . تفاحة ضخمة أو زجاجة ضخمة أو ثدى ضخم ، إننا مازلنا في مرحلة الرضاعة المليئة بالآمال والأحلام والمليئة أيضاً بخيبة الآمال . ان شخصيتنا قد أعدت في هذا الاتجاه ، أعدت للمقايسة . للأخذ ، للإستهلاك ، وكل ماهو روحى أو مادى قد أصبح موضوعاً للتبادل والإستهلاك .

الحب في مثل هذا المجتمع لن يكون حالة شاذة ، انه يخضع لما تخضع له حياة الإنسان كلها ، يخضع لشخصية المجتمع الحديث ، ولشخصية الإنسان المعاصر . . إن الأجهزة والأدوات لا تستطيع أن تحب ، ان الأدوات والآلات لايمكنها إلا أن تقايض بشخصيتها كلها ، وتتمنى أن تكون هي الرابحة في هذه الصفقة التي تعقدها . والتعبير الجوهري عن الحب في هذا المجتمع ، أو بصفة خاصة عن الزواج في مجتمع يقوم بناؤه على الأغتراب هو فكرة الفريق أو المؤسسة أو الشركة ، وفي عدد لاحصر له من المقالات عن الزواج السعيد ، كثر الحديث عن الزواج القائم على الحب والعاطفة ، والزواج القائم على العقل والفكر ، وتوضح الكثير من هذه المقالات أن الزوجين المثاليين هما الزوجان الذان تنقطع كل علاقتهما مع الآخرين ، والزوج المستقيم هو الذي لاينظر يمينا أو شمالاً . . «من البيت للشغل ومن الشغل للبيت» وتلك هى الشركة أو المؤسسة المغلقة على ذاتها . هذا التوصيف للأسرة السعيدة أو الزواج المثالي لا يختلف كثيراً عن التصور الذي يكونه الإنسان عن العامل أو الموظف المستقيم أى الموظف المسالم المطيع ، انه يجب عليه أن يكون انساناً حراً ، أن يكون عاملاً نشيطاً ، وأن يكون مطيعاً ، وفي نفس الوقت عليه أن يكون طموحاً ، وأن تكون مطالبه الاستهلاكية كثيرة . وبهذه الصورة يجب أن يكون الزوج - الوصف المثالي يقدمه لنا أحد مستشاري العلاقات الزوجية- يجب على الزوج أن يفهم زوجته وأن يكون عوناً لها ، لايد أن يبدى اعجابه بشوئها الجديد ، وكذلك اعجابه بالطعام اللذيذ الذي أعدته . ومن ناحية أخرى فإن على الزوجة أن تفهم زوجها ، عندما يعود إلى البيت من العمل متعباً عابساً أو مهموماً ، عليها أن تستمع إليه جيداً عندما يتحدث عن متاعبه في العمل ، وعليها ألا تضيق وتحزن إذا

نسى ذكرى ميلادها أو ذكرى زواجهما ، وإنما يجب أن تقدر موقفه وظروفه التي كانت سبباً في نسيانه . إن هذا كله لا يزيد عن العلاقة الجيدة بين تروس الآلة عندما تكون التروس في وضعها الصحيح بعد أن نالت حظها من الزيت . ورغم العلاقة الجيدة بين الترسين إلا أن كل ترس سيظل منفصلاً عن الآخر، ولن يصل الحال بهذين الترسين في الآلة الواحدة إلى تكوين علاقة ذات أواصر محبة وصدقة وطيدة، إن كل ترس في الآلة يكمل الآخر ويساعده على الدوران والحركة، فهما يتعاملان مع بعضهما بمتنهي اللطف وبمتنهي الأدب الجم، ويقوم كل منهما بعمل شيء من أجل أن يشعر الطرف الآخر بالراحة . إن هذا المعنى للحب وللزواج يركز على حماية الإنسان من الوحدة القاسية التي لا تطاق . في الحب وجد الإنسان أخيراً شاطئ الأمان أو سفينة النجاة، وهنا يغلق الإنسان الباب على نفسه ويوصده في وجه العالم، ويتصور أن هذه الأناية الثنائية هي الثقة وهي الحب .

إن التركيز على روح الجماعة التي يسود التسامح بين أفرادها إن هو إلا تطور ونمو جديد للسلوك المعتاد والطبيعي . ففي سنوات مابعد الحرب العالمية الأولى اتجه كل مفهوم للحب إلى أن يكون مفهوماً للإشباع الجنسي المتبادل، وكان الإشباع الجنسي هو الأساس الذي يقوم عليه الحب وهو الأساس الذي تبنى عليه العلاقة الزوجية الناجحة . واعتقد الإنسان بذلك أنه وجد الأسباب الكامنة وراء كل الزيجات الفاشلة ، وهي عدم القدرة على الإشباع الجنسي المتبادل بين الزوجين . واعتقد الإنسان أن الفشل في تحقيق الإشباع الجنسي المتبادل إن هو إلا نتيجة لنقص المعرفة بفن ممارسة السلوك الجنسي الصحيح، أي أنه خطأ فني جنسي عند أحد الزوجين أو عند الزوجين كلاهما . وللتغلب على هذه المشكلة أي لتصحيح هذا الخطأ، ومساعدة الأزواج الفاشلين في حياتهم الزوجية، والمحرومين من السعادة، والذين لم يستطيعوا أن يحب كلا منهما الآخر، ظهرت مئات الكتب التي تتحدث عن السلوك الجنسي الصحيح، وعن العلاقة الجنسية السليمة، وعن ليلة الزفاف، وكتب أخرى كثيرة مليئة بالنصائح عن العلاقات الجنسية، وقدمت كل هذه الكتب الوعود البراقة بأن الحب سيعرف طريقه إلى القلوب التعسة، والقلوب التي

تريد أن تفتتح على الحياة عندما ينجح الإنسان في الممارسة السليمة للجنس ، وأخيراً جاءت العقاقير سواء من مجال العطارة أو من مجال الطب ، وغيرها من الوسائل التي تساعد الإنسان على الممارسة الجنسية . والفكرة الأساسية التي تكمن خلف هذا الاتجاه هي الفكرة القائلة بأن الحب إن هو إلا وليد الجنس . واعتقد الإنسان أن قدرة الزوجين على إقامة الحياة الجنسية السليمة والقدرة على تحقيق الإشباع الجنسي المتبادل سيؤدي بهما إلى أن يحب كلا منهما الآخر « تأمل الاقبال الشديد والنهم على اقتناء وتعاطي الفياجرا وتسابق الدول على انتاجها ، وتأمل أيضاً ما يقال عن الفياجرا العربية « فياجرا العرب » وغيرها من الوصفات الشعبية في هذا المجال » .

إن الحب ليس هو وليد أو نتاج الإشباع الجنسي ، ولكن العكس هو الصحيح . فاللذة الجنسية أو المعرفة الصحيحة للممارسة الجنسية ما هي إلا نتيجة طبيعية للحب . وإذا أعمقنا النظر في حياتنا اليومية فإننا سنجد الدليل على صحة ما نقول ، أضف إلى ذلك أننا إذا عدنا إلى مادة التحليل النفسي وما توصل إليه فإننا سنجد الدليل قائماً أيضاً على صحة ما نقول فدراسة أكثر المشكلات الجنسية تكراراً - وهي برودة المرأة ، وما يقابلها من العجز الجنسي الجزئي أو الكلي لدى الرجل - توضح لنا أن أساس المشكلة ليس هو جهل الرجل أو المرأة أو جهلهما معا بالأسلوب الصحيح للممارسة الجنسية ، ولكنه يكمن في أنواع الكف النفسي أي العقد أو المشكلات النفسية التي تجعل الإنسان غير قادر على الحب بأي حال من الأحوال . والخوف من الجنس الآخر (الخوف من المرأة أو من الرجل) وكراهية الجنس الآخر هي التربة الخصبة التي تنبت فيها الصعوبات التي تعوق انساناً ما عن القدرة على أن يظهر نفسه على حقيقتها بغير قناع وبطريقة تلقائية طبيعية أمام الجنس الآخر ، ومن أن يقترب من الجنس الآخر مباشرة اقتراباً عضوياً يخلو من العقبات وتملؤه الثقة بالنفس وبالطرف الآخر . فإذا استطاع الإنسان العاجز جنسياً أن يتحرر من خوفه ومن كراهيته ، وتمكن بذلك من أن يحب فإن مشكلاته الجنسية ستنتهي ، فإذا لم يتمكن من ذلك ، فإن اتقانه لأساليب وفنون الاتصال الجنسي لن تساعده في شيء .

لقد بدأ التحليل النفسي بعملية استدلال خاطيء توصل منها إلى أن الاتقان الصحيح لفن الاتصال الجنسي يؤدي إلى الإشباع واللذة الجنسية وهذا يؤدي بدوره إلى الحب. ثم انتهى الحال بالتحليل النفسي إلى الاعتراف بأن الحب يعتبر مظهراً يصاحب الاشباع الجنسي لكل من الرجل والمرأة. فقد بدأ فرويد نظريته في التحليل النفسي باعتبار أن الحب ظاهرة جنسية، ولأن الحب بين الجنسين هو الذي يؤدي إلى أقوى أنواع الإشباع في الحياة، تصور فرويد أن كل مايؤدي إلى اللذة يجب أن يكون شبيهاً بالاشباع الجنسي، كما اعتقد بأن الاشباع والحصول على اللذة في الحياة بصفة عامة انها يجب البحث عنه في حيز العلاقات الجنسية بين الجنسين، ولذلك فإن الاتصال الجنسي يعتبر هو النقطة الأساسية في الحياة.

يعتبر فرويد أن خبرة حب الناس وحب الآخرين ماهي إلا نتيجة للربغة الجنسية وفي حالة حب الآخرين تحدث عملية نفسية تغير من مسار الغريزة الجنسية، وهذه العملية هي ماتسمى بعملية التسامي Sublimation.

لقد تصور علماء التحليل النفسي الأول أن الحب الذي يعوق عن تحقيق هدفه انما هو حب ذا معني كبير، وهذا المعني لم يزل يكمن في حيز اللاشعور الانساني، فإذا تأملنا الشعور الروحي الذي يشعر به الراهب أو المتصوف تجاه الله، وبحثنا عن جذور هذا الشعور فاننا سنجدتها متمركزة في توحد الإنسان مع انسان آخر، أو مع غيره بصفة عامة، وقد فسر فرويد هذه الظاهرة على أنها حالة من المرض النفسي، إذ أنها تمثل عودة إلى حالة من الترجسية النفسية وحب الذات.

المشكلة عند فرويد أنه تصور أن الحب ظاهرة انفعالية تخلو من العقل، ولم يفرق بين الحب الذي يمكن أن يكون انفعالا عاطفيا، وبين الحب الذي يعبر عن نمو ونضج الشخصية. هذا ما يتضح من اشارته إلى أن الحب المرضى - أي الحب القائم بين المعالج والمريض أثناء عملية العلاج بالتحليل النفسي والذي يصطلح على تسميته بالحب الناتج عن عملية الطرح النفسي - لا يختلف عن الحب العادي. الحب دائما مايتتهي إلى حالة من عدم السواء أو إلى حالة مرضية، فهو

مصحوب بعدم القدرة على رؤية الحقيقة، كما أنه عملية طرح نفسي نابع من موضوعات الحب الطفلية. أما الحب كظاهرة عقلية تتوج نضج الإنسان فلم يكن مجال بحث، لأنه لم يكن أصلاً موجوداً عنده.

من الخطأ أن نعطي لتأثير أفكار فرويد الأولي عن الحب والتي تصور فيها أن الحب ما هو إلا نتاج الجاذبية الجنسية - أكثر مما تستحق، حيث أن هناك ما يعارض هذا التصور. فمن ناحية خضعت أفكار فرويد لتأثير مفاهيم القرن التاسع عشر، ومن ناحية أخرى نجد أن هذه الأفكار انتشرت في وقت كانت أخطار وآثار الحرب العالمية الأولى مازالت تبعث الرعب في قلوب الناس. وكان أحد العوامل التي أثرت في أفكار فرويد والتي ساعدت على انتشار هذه الأفكار بالدرجة الأولى هو رد الفعل على القيم الاجتماعية الصارمة التي سادت القرن التاسع عشر. أما العامل الثاني الذي حدد ملامح نظرية فرويد فإنه يكمن في المفهوم الذي كان سائداً عن الإنسان في ذلك الوقت، فقد كان مفهوماً يعتمد على البناء الرأسمالي والتكوين الاجتماعي للمجتمع. وللتدليل على أن الرأسمالية هي المذهب الذي يناسب الحاجات والرغبات الطبيعية للإنسان، وجب على الإنسان أن يبرهن على أنه في كل وجوده يعتمد على المنافسة والعداء للآخرين، فبينما يحاول رجال الاقتصاد أن يبرهنوا على ذلك بأن الإنسان يبحث دائماً عن المكسب المادي في مجال التجارة والتبادل، يحاول داروين وأتباعه من علماء البيولوجيا أن يبرهنوا على قانون البقاء للأصلح والأقوى، ثم يأتي فرويد ويحاول الوصول إلى نفس النتيجة بافتراض أن الرجل لديه غريزة مطلقة تتمثل في الرغبة الجنسية في جميع النساء، وأن الشيء الوحيد الذي يحول دون تنفيذ هذه الرغبات الجنسية للرجل هو المجتمع، ومعنى هذا أن كل الرجال لا بد وأن يكونوا في حالة من الغيرة الدائمة من بعضهم، وأن المنافسة هي السبيل الوحيد حتى ولو اختفت الأسس الاجتماعية والاقتصادية.

ومن ناحية أخرى تأثرت أفكار فرويد بالفكر المادي الذي ساد القرن التاسع عشر، فقد اعتقد فرويد أن أسس كل الظواهر النفسية تكمن في دراسة الظواهر

الجنسية، وهكذا اتجه فرويد إلى تفسير كل من الحب والكراهية والطموح والغيرة على أنها نتائج للغريزة الجنسية وأشكالها المختلفة.

ان فرويد لم ينتبه في بداية صياغة نظريته عن الجنس إلى أن الإنسان يمارس حياته من خلال نمط البناء الاجتماعي الذي يسود مجتمع هذا الإنسان، بينما ذهب ماركس في تفسيره للتاريخ تفسيراً مادياً إلى أن مفتاح فهم الإنسان يكمن في ممارسة الإنسان للحياة وليس في الجسد ولا في الغريزة أو الحاجات. في رأي فرويد نجد التصور بأن الاشباع الكامل الذي يتم بغير صعوبات ولا عقبات لكل غرائز الإنسان ورغباته يحقق للإنسان اللذة والصحة النفسية. ولكن الحقائق الاكلينيكية توضح بجلاء أن الرجال والنساء الذين قضوا حياتهم في الإشباع الجنسي الكامل بلا عقبات، لم يكونوا أناساً سعداء، فهم غالباً ما يعانون من الصراعات النفسية العصابية ومن الأعراض المرضية. ان الاشباع الكامل لكل الغرائز والرغبات لا يحقق السعادة للإنسان، ولا يضمن كذلك حتى الحد الأدنى للصحة النفسية، ورغم ذلك فقد انتشرت أفكار فرويد بمفهومها الخاطئ في أعقاب الحرب العالمية الأولى وذلك بسبب حدوث بعض التغير في الفكر الاقتصادي والذي يتضح فيما يلي :-

أ - الاهتمام بالتركيز على الدعوة إلى الإستهلاك بدلاً من الدعوة إلى الادخار.

ب - التحول من الاعتماد على النفس في اتخاذ القرارات كأسلوب للنجاح الاقتصادي إلى استخدام معدلات الاستهلاك المدروسة كأساس بعد أن أقيمت لذلك هيئات ومؤسسات خاصة.

ج - أن عدم تأجيل اشباع أى مطلب أو رغبة أصبح هو مبدأ الحياة ليس فقط في مجال الاشباعات المادية ولكن أيضاً في مجال اشباع الغريزة الجنسية.

وهنا تتجلى عظمة العقيدة الاسلامية التي يقرر فيها الرسول الكريم ﷺ "إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وإعمل لآخرتك كأنك تموت غداً".

ويقول القرآن الكريم ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤] وفي سورة القصص يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧] وهذه جميعها تشير إلى الاعتدال ما بين العمل والعبادة والكرهية والحب والدنيا والآخرة وحب الشهوات الدنيوية وثواب الآخرة فالله سبحانه وتعالى لا يحب المفسدين ولا يحب المسرفين المبذرين ولا يحب من ييخلون على انفسهم ولا على غيرهم وهكذا تقدم العقيدة الاسلامية الحلول الناجحة والناجعة لتحقيق حب معتدل في مجتمع معاصر يقوم على الايمان الصادق بالله .

الفصل الثالث عشر أمراض الحب

عندما ننظر إلى الحب على أنه اشباع جنسي مشترك ، وكذلك على أنه عمل مشترك ، وعلى أنه شاطئ الأمان وسفينة النجاة من العزلة القاتلة ومن الوحدة والغربة ، فإن هذا يعكس لنا صوراً عديدة من صور الحب المنحرف أو الحب المريض في المجتمع الحديث . فالمجتمع الحديث هو الذي يحدد شروط وأشكال الأمراض التي تصيب الحب . والأمراض التي تصيب الحب لها أشكال متعددة ، ومنها ما قد ينتهي بالإنسان إلى المعاناة النفسية والتي يذهب أخصائيو العلاج النفسي والأطباء النفسيون في تشخيصها على أنها نوع من المرض النفسي العصبي .

وسنعرض فيما يلي بعضاً من نماذج الحب المرضي :

يقوم الحب المرضي في حقيقته على أساس أن يكون أحد الزوجين أو كلاهما قد حدث عنده تثبيت أثناء نموه المبكر على الأم أو على الأب . وفي هذه الحالة فإن مشاعر المرأة أو الرجل وآماله ومخاوفه والتي كانت مرتبطة في الماضي بالألم أو بالأب قد حدث لها ما يسمى في التحليل النفسي بعملية النقل أو الطرح ، أي نقل المشاعر النفسية القديمة وطرحها على موضوع الحب الحالي . والأشخاص الذين ينطبق عليهم هذا الوصف ، هم أشخاص لم يستطيعوا حتى الآن أن يخرجوا من مرحلة الطفولة النفسية ، انهم أشخاص لم يتم فطامهم النفسي بعد ، ولذلك فهم يبحثون عن ذلك الارتباط الطفلي بالوالدين حتى وهم كبار . وفي مثل هذه الحالات يكون الإنسان هنا ليس أكثر من طفل لم يتخط سن الثامنة أو الخامسة أو الثانية عشرة على الأكثر ، . وذلك على الرغم من أن نموه من الناحية العقلية ومن الناحية الجسمية يتفق مع عمره الزمني الحقيقي .

وهنا يؤدي عدم النضج العاطفي والانفعالي في مثل هذه الحالات إلى احداث اضطرابات في العلاقات الاجتماعية ، وفي بعض الحالات يبدأ المرض بالصراع

النفسي والاضطرابات في العلاقات الحميمة فقط .

والأشخاص الذين يتركز حبهم وهم كبار على الأم أو على الأب يكون حبهم حبا عصابياً ، فهم أشخاص قد توقف نمو عواطفهم عند مرحلة الطفولة فظلوا مرتبطين بأمهاتهم ، وظلت مشاعرهم تتجه نحو الأم ، انهم رجال في مرحلة الرضاعة ولم يبلغوا سن الفطام ، فهم يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم مازالوا أطفالا ، وانهم في حاجة إلى حماية الأم وفي حاجة إلى حب الأم وحنوها ورعايتها واعجابها . انهم يريدون حب الأم غير المشروط ، ذلك الحب الذي ليس وراءه أية دوافع أخرى غير حاجة الأم لهم لأنهم أطفال ولأنهم عاجزين .

ومثل هؤلاء الناس يكونون غالبا طيبين القلب ، ظرفاء عندما يحاولون الفوز بحب امرأة ما ، وعندما يسعدهم الحظ يحتفظون بطيبتهم وبظرفهم وبجاذبيتهم . علاقة الواحد منهم بالمرأة - مثل علاقته بأي انسان آخر - تظل علاقة سطحية وليست واعية كما أنها متقلبة . ويهدف كل واحد من هؤلاء الناس إلى أن يكون هو موضوع الحب من الآخرين ولا يهتم هو نفسه بأن يحب الآخرين . وغالبا ما يجد الإنسان عند هؤلاء الناس قدراً كبيراً من الغرور والتعالي ، وأيضاً قدراً ما من الأفكار الجيدة . وعندما يجد الواحد منهم المرأة المناسبة فعلا يشعر بالأمان ، ويشعر بأنه في مكانة مرتفعة عن العالم ، وبالتالي يستطيع أن يعبر عن طبيسته وظرفه وجاذبيته للآخرين . وعندما لايسعدهم الحظ ، وتضيق المرأة بعد فترة من الزمن بأفكار وتخيلات الواحد منهم ، فهنا تكون بداية تكوين الصراعات والخلافات . فإذا لم تظهر المرأة اعجابها المستمر بالواحد منهم ، وعندما تطلب الاستقلال في حياتها الخاصة ، وعندما ترغب هي الأخرى في الحصول على الحب والحماية ، وعندما - وهذا يحدث نادراً - تكون امرأة غير مستعدة للتسامح معه في علاقاته الغرامية بنساء أخريات ، فانه يشعر في هذه الحالة بأنه قد أصيب في الصميم بخيبة الأمل . وكما هو معتاد لديه فإنه يحاول التخفيف من حدة هذا الشعور بالأسى والخيبة من خلال توهمه وتصوره بأن المرأة التي لاتبجبه إن هي إلا امرأة ظالمة أو امرأة لعبوب ، (في

حالة حب الأم يكون نقص أى شىء حتى ولو كان غير ذي قيمة يعتبر في نظره دليلاً على نقص حب الأم نحو طفلها الظريف). ومثل هؤلاء الرجال يخلطون عادة بين سلوكهم الرقيق الجذاب ورغبتهم في إسعاد الآخرين وبين الحب الحقيقي، ويتوصلون إلى النتيجة بأن الآخرين قد عاملوهم بطريقة لا إنسانية، طريقة ظالمة وغير عادلة. انهم يتخيلون أنفسهم نموذجاً أعلى للحبيب أو الزوج، ويتحسرون على المرأة أو الزوجة التي لا تشعر بالسعادة مع الواحد منهم.

وفي بعض الحالات النادرة يستطيع رجل ما أن يبقى مع هذه الأم دائماً في مركز الاهتمام دون أن يحدث أى اضطراب في علاقته بها. فإذا كانت أمه تحبه فعلاً بطريقة متزايدة (ربما كانت الأم أيضاً ظالمة ولكنها ليست مدمرة)، وعندما يجد زوجة من نفس نمط الأم، وعندما تمكنه مواهبه ومهاراته من أن يظهر رفته وجاذبيته، ويحصل على الإعجاب - هذا ما يحدث أحياناً لدى بعض السياسيين الناجحين - فإنه سيحصل على مكانة طيبة بالمفهوم الاجتماعي دون حاجة إلى ضرورة الوصول إلى درجة عالية من النضج النفسي. ولكن في حالة عدم توفر الشروط المناسبة - وهذا هو ما يحدث غالباً - فإن حبه الجنسي، ان لم تكن حياته الاجتماعية أيضاً سيصاب بالفشل الحقيقي ويتحول إلى صراعات، وغالباً ما تتحول الصراعات إلى قلق زائد وإلى اكتئاب وخصوصاً عندما يشعر هذا الإنسان بأنه وحيد غريب وبأن الآخرين قد نبذوه أو تخلوا عنه.

وفي صورة مرضية أخرى أشد حدة من الصور السابقة يكون الارتباط بالأم أكثر عمقاً وأشد انفعالية في هذا المستوى، وتكون الأعراض الرمزية للمريض ليست أعراضاً للتعبير عن العودة إلى أحضان الأم وإلى صدرها الدافئ الذي يمنح الحماية كما يمنح الغذاء، وإنما العودة إلى داخل الأم، العودة الكاملة إلى داخل الرحم بتدمير نفسه تدميراً كاملاً. وإذا كان جوهر الصحة النفسية هو الخروج من رحم الأم إلى الحياة والنمو فيها، فإن جوهر المرض النفسي الخطير هو الانسحاب من الحياة إلى مرحلة ما قبل الحياة. قد يكون ظهور هذا النوع من الارتباط طبيعياً في

علاقة الطفل بأمه التي تحتضنه بطريقة قاسية مدمرة تبتلع فيها الطفل ، وأحيانا قد ترغب مثل هذه الأم - سواء باسم الحب أو باسم الواجب - في الاحتفاظ بداخلها بالرجل المتمثل في طفلها الذي ينمو أمامها . فالطفل لا يتنفس إلا من خلالها وحدها ، وغير مسموح له بالحب اللهم إلا ببعض العلاقات الجنسية المؤقتة ، حيث تفسر الأم هذه العلاقات بأنها ستجعل ابنها ينظر إلى جميع النساء الأخريات باحتقار . انه شخص غير مسموح له لا بالحرية ولا بالاستقلال ، بل بأن يكون عاجزا عاجزا كاملاً ودائماً أو أن يكون مجرماً . هذا المظهر المدمر المبتلع من مظاهر الأم هو المظهر السلبي للآم ولحبها ، وهنا نرى أن الأم لا تستطيع فقط أن تمنح الحياة ، انها تستطيع أيضاً أن تسلب الحياة . . انها الشخص الذي يحبس وهي الشخص الذي يدمر ، انها تستطيع أن تصنع معجزات الحب وفي نفس الوقت لا يستطيع أى انسان مهما كان أن يصيب في الأعماق ولا أن يؤلم مثلما تصيب الأم وتوقع .

وهناك صور أخرى من أشكال المرض النفسي يظهر فيها الارتباط بالأب :-

وأول الأمثلة على ذلك الرجل الذي تكون أمه متبلدة العواطف والمشاعر والتي تكون محرومة من المرأة ، في حين يكون الأب زائد العطف والاهتمام بالطفل . أنه أب جيد ، ولكنه في نفس الوقت أب متقلب ، نجد أنه عندما يعجب بسلوك ابنه فانه يمتدحه ويغدق عليه النعم والهدايا ، وبمجرد أن يفعل الابن شيئاً يغضب الأب فأنه ينسحب بحبه بعيداً عن الابن ، أو يقوم بتأنيب الابن . وفي مقابل حنان الأب على ابنه ، فان على هذا الابن أن يرتبط ارتباط الرقيق بسيدة ، فالهدف الأساسي في حياته هو إسعاد الأب ، فإذا تمكن الابن من تحقيق هذا الهدف فإنه يشعر بأنه انسان محظوظ وسعيد ، وبأنه أكثر ثقة بالنفس ، وبأنه قد حصل على الاشباع الذي يريده . أما عندما يخطيء هذا الابن ، وعندما لا يتمكن من أن يقوم بفعل أى شيء يعجب أباه ويرضيه فإنه يشعر بالخواء النفسي ، وبأنه غير محبوب ، وبأنه غير مرغوب فيه . وفي فترة لاحقة من حياته سيحاول هذا الابن الذي أصبح رجلاً أن يجد

نموذجاً للأب ليربط نفسه به بطريقة مشابهة لارتباطه القديم بأبيه في صغره. إن حياته كلها ستصبح خاضعة لشروط النجاح في الحصول على رضا الأب، أو الفشل في تحقيق هذا الهدف. ومن وجهة النظر الاجتماعية سنجد أن مثل هؤلاء الأشخاص غالباً ما يكونون ناجحين، إنهم ذوي ضمائر، ويمكن الوثوق بهم، كما أنهم دائماً مجتهدون. إن كل واحد منهم يفهم جيداً نموذج الأب الذي اختاره. وفي علاقتهم بالنساء يظنون متراجعين وخوفين، فالنساء ليس هن عند هؤلاء الرجال معنى مركزي، ومن المعتاد أن يشعر هؤلاء الأشخاص نحو النساء بالاحتقار الخفي وهذا مانجده في صورة اهتمام الواحد منهم بالمرأة اهتماماً أبوياً كما لو كانت طفلة صغيرة. يستطيع هؤلاء الأشخاص في البداية أن يتركوا أثراً في النساء عن طريق سماتهم الذكورية أو سمات الرجولة فيهم، ثم تصاب المرأة بعد ذلك بالاحباط وخيبة الأمل عندما تكتشف هذه المرأة بأنها لا تأتي في نظر رجلها إلا في الدرجة الثانية من الإهتمام، وذلك لأن الأب يحتل المكان الأول في حياة زوجها. ولا يتغير هذا المعيار إلا إذا كانت المرأة هي الأخرى مرتبطة بالأب، ولذلك فإنها ستكون سعيدة مع رجلها الذي يقيم معها علاقة قريبة من علاقة الأب بطفله.

هناك نوع آخر من الحب المرضي أكثر تعقيداً مما سبق، وهو حب يكمن في نوع آخر تماماً من العلاقة بالوالدين، وهذا النوع يظهر فقط عندما لا يجب الوالدان كلا منهما الآخر، وإنما يريد أن يتحكم فيه وسيطر عليه، وهذا يؤدي إلى الشجار الدائم بينهما كما يؤدي إلى التعبير عن عدم رضائهما وعن عدم سعادتهما. وفي نفس الوقت نجد أنهما في علاقتهم بطفلهما - والتي تكون علاقة مضطربة - ليسوا أحراراً وليسوا طبيعيين. فالبنت التي لا تعرف معنى الصواب وتجره في علاقتها الحميمة مع أمها ومع الأب تصاب بالقلق والحيرة والانطواء، فهي لا تعرف إطلاقاً كيف يشعر الوالدان نحوها، وفي أي شيء يفكران. وفي هذا الجو النفسي يوجد دائماً عنصر عدم المعرفة وعدم الوضوح والفراغ. وتكون النتيجة هي أن تنزوي هذه البنت في عالمها الخاص وتحصر نفسها في أحلام اليقظة، وفي انغلاقها على ذاتها. ولا عجب أن يكون هذا النمط السلوكي في حياة البنت هو أيضاً نمط تصرفها في حياتها اللاحقة عندما تصل إلى مرحلة النضج وتقيم علاقتها مع خطيبها أو مع زوجها.

الانطواء ما هو إلا نتيجة للقلق المتزايد والشعور بعدم الأمن وعدم الاطمئنان، وقد تؤدي هذه المشاعر جميعاً إلى ميل الشخص إلى أن يصبح انساناً مازوخياً، وهذا هو الاحتمال الوحيد لامكانية المرور بخبرة أو معاشة مثيرة على درجة عالية من التركيز والاهتمام. ومثل هؤلاء النساء قد يكون من الأفضل لديهن أن يعاملهن أزواجهن بعنف وبقسوة، على أن يعاملوهن معاملة عادية متزنة وعاقلة، وذلك لأن المعاملة القاسية ستخلصهم على الأقل من التوتر والقلق والخوف. وليس غريباً أن تأتي مثل هؤلاء النساء بسلوك غير مقبول بطريقة لاشعورية وذلك حتى يدفعن أزواجهن إلى القسوة في معاملتهن، وبذلك يتمكن من التخلص من العذاب النفسي والمعاناة والشعور بالقلق والفراغ الداخلي.

وتوجد أحد أشكال الحب المرضى بصورة متكررة في خبرة الحب التي يطلق عليها «الحب الكبير» أو «الحب الأكبر» وهذا الشكل من الحب نجده في قصص الحب والغراميات كما نجده أيضاً في قصص أفلام الحب. وخبرة الحب المرضى في هذه الحالة تقوم أساساً على فكرة التآليه أو التقديس. فعندما لا يستطيع انسان ما أن يصل إلى درجة يشعر فيها بالتوحد مع مشاعره وأحاسيسه، فإنه يميل إلى تقديس الشخص الذي يحبه، وهنا نجد أن الشخص الذي يمارس هذا النوع من الحب شخص يشعر بالغربة عن نفسه وعن ذاته، شخص يشعر أن ملكاته وقدراته غريبة عنه، فهو شخص يرى أن وجوده كله مرهون بشخص محبوبته التي تعتبر بالنسبة له هي الحياة وهي مصدر النور ومصدر الحب ومنبع السعادة. في هذه الحالة يفقد الإنسان وعيه بطاقته وبامكانياته، كما أنه يفقد ذاته فيذوب في محبوبته بدلاً من أن يبحث عن نفسه. ولما كان من الطبيعي أن أى انسان لا يستطيع أن يحقق رغبات من قدسوه وعبدوه وأضفوا عليه هالة من الألوهية وركعوا في محرابه، على المدي الطويل إذا تمكن ذلك الإنسان من تحقيق بعض هذه الرغبات على الاطلاق - فإن النتيجة الحتمية لكل الاجلال والتقديس والتعبد في محراب الم محبوب ستكون نتيجة مخزنة. ففي يوم ما سيصاب ذلك المحب الولهان بالاحباط ويشعر بخيبة الأمل، ومع ذلك فإنه لا يكاد يفيق من هذه الصدمة حتى يتجه بكل طاقته

إلى البحث عن إله جديد أو قل عن صنم جديد، وذلك حتى يتمكن من التخلص من بقايا الصدمة السابقة الناتجة عن الفشل في الحب السابق. وأحياناً ما يدور هذا البحث عن إله أو عن صنم في حلقة مفرغة لانهائية قد تؤدي بالإنسان إلى تدمير ذاته. إن السمة المميزة لهذا النوع من الحب المقدس والذي يمكن أن نسميه أيضاً حب الصنم والسجود له، قد ينظر إليه من البعض على أنه هو الحب الحقيقي، وعلى أنه هو الحب الأكبر والحب المقدس، ولكن عندما يعبر ذلك الإنسان عن عواطفه الملتهبة وأشواقه الزائدة، وعندما يثير أغوار الحب في نفسه ويتبعها بامعان فإننا سنجد أن هذا الحب ينطوي على مدي جوع المحب وحرمانه وشعوره بالوحدة والعزلة. وهنا فإننا لسنا في حاجة أخرى إلى القول بأننا قد نصادف في حياتنا أشكالاً قريبة الشبه بهذا النوع من الحب، فليس من النادر أن نجد شخصين يحب كل منهما الآخر، ويقدر كل منهما الآخر، وبعض هذه الحالات - وخصوصاً الشاذة منها - تصل إلى حد الجنون وهو ما يطلق عليه جنون الحب.

هناك شكل آخر من الحب المرضى وهو ذلك النوع من الحب الذي يمكن أن نطلق عليه الحب الوهمي أو الحب الكاذب. وتكمن حقيقة هذا الحب في أنه حب لا يوجد إلا في خيال هذا الشخص المحب وفي أوهامه، وهو حب لا يرتبط أساساً بشخص محدد موجود فعلاً. وأكثر صور هذا النوع من الحب انتشاراً نجدها في بدائل الأشباع، فنجدها مثلاً في صورة مشاهدة أفلام الحب وكذلك في قراءة روايات الحب، وفي صورة التغمي بكلمات الحب وبأغانيه. وهنا نجد أن كل أنواع الشوق والحرمان من الحب، وكل أنواع الشعور بالوحدة والغربة تجد لها متنفساً في تلك الموضوعات البديلة. وفي حياتنا الواقعية قد نصادف زوجين لم يستطع كل منهما أن يعبر جدار العزلة والانفصال الذي يحول بينه وبين زوجته، نجد أن مثل هذين الزوجين لا يكون بوسع الواحد منهما إلا أن ييأس ويتأثر عندما يشاهد أحد أفلام الحب سواء على شاشة السينما أو التلفزيون، سواء كان ذلك الحب حباً سعيداً أو حباً فاشلاً. ونستطيع أن نلاحظ أيضاً أن الكثيرين من الأزواج الذين يترددون على مشاهدة أفلام الحب، يعتبرون أن هذه الأفلام هي الفرصة الوحيدة

التي تتيح لهم الشعور بالحب المشترك كمتفرجين على قصة حب يعيشها غيرهم على الشاشة الكبيرة أو الشاشة الصغيرة . وطالما أن حبهم هم ما هو إلا مجرد حلم من أحلام اليقظة فبامكانهم أن يشتركوا في أحداث الفيلم وكأنه حلم وبمجرد أن ينتهي الفيلم، وينتهي معه الحلم، وتصيبهم اليقظة فيعودوا إلى أرض الواقع بعد أن أفاقوا من عالم الأوهام، ويروا بالفعل حباً حقيقياً بين شخصين حقيقيين، فانهم يصابون بالخوف ويفقدون الثقة .

وأحد المظاهر الأخرى للحب الوهمي أو الحب الكاذب هو الهروب من حياة الحاضر والعيش على اجترار قصص الماضي وذاكراته . فنجد مثلاً زوجين تتحرك عواطفهما بعنف عندما يعودان إلى ذكرياتهما القديمة عن الحب الذي كان، بغض النظر عما إذا كانوا قد عاشوا الحب فعلاً في الماضي - الذي كان حاضراً فيما مضى - وبنفس الطريقة يهيمنون في المستقبل الملئ بالحب ، وذلك من خلال الأحلام والأوهام . كم من المخطوبين أو المتزوجين حديثاً يلمنون بالمستقبل السعيد، بينما هم في الوقت الحالي قد بدأ كل منهما يشعر بالملل تجاه الآخر، ولما يأت المستقبل بعد . ؟ هذا التفكير في المستقبل السعيد يتفق مع الاتجاه العام الذي أصبح يميز الإنسان الحديث، فالإنسان المعاصر لا يعيش حاضره، إنه يجتر ذكريات الماضي ويعيش عليها بعيداً عن الحاضر، كما أنه قد يعيش على أحلام المستقبل أيضاً بعيداً عن الحاضر، وما هذا الأسلوب إلا نوع من الخداع النفسي الذي يجعل الإنسان يتذكر طفولته، ويعيش في أحضان أمه طفلاً، أو أن يخلق بأوهامه في آفاق المستقبل البعيد البعيد . وسواء كان الحب من خلال المشاركة في خبرات وهمية وغير حقيقية للحب في حياة الآخرين التي يراها في روايات أفلام الحب وأغانيه، أم بهروبهم من حاضريهم إلى ذكريات الماضي أو إلى أحلام المستقبل، فإن هذه الصورة الغريبة من صور الحب ليست أكثر من صور تعاطى المخدرات، فالحب الوهمي هنا هو المخدر الذي يتعاطاه الناس ليهربوا من الواقع المؤلم الذي يشعرون فيه بالغرابة والعزلة والانفصال .

ويمكن أحد أشكال الحب المرضى العصائبي في ميكانزمات الاسقاط ، أي محاولة الهرب من المشكلات الخاصة ، والتركيز على أخطاء المحبوب وعلى نقاط ضعفه . ويظهر هذا الشكل في بعض الحالات التي يهرب أصحابها من ذواتهم حيث نجد أن سلوكهم يصطبغ بصفة دينية أو بصفة قومية . وفي الحقيقة فإن هؤلاء الناس لديهم درجة عالية من الحساسية حتى للأخطاء الصغيرة التي تصدر عن الآخرين ، في الوقت الذي يغضون فيه عيونهم عن أخطائهم ، ونقاط ضعفهم ، أو يتجاهلونهم وذلك بشغل أنفسهم بالقاء اللوم وتوجيه العتاب إلى الآخرين على ما صدر منهم ، وذلك بهدف تعليمهم وتوجيههم . فإذا حدث - كما هو غالبا - وكان لدى شخصين نفس اهتمامات البحث عن أخطاء الآخرين ، فإن علاقة الحب بينهما ستقوم على عملية نفسية هي عملية الاسقاط المتبادل . فإذا كان أحدهما ظالما أو غير قادر على اتخاذ قرار ، فإنه هو نفسه يقوم بالقاء اللوم والذنب على الطرف الآخر واتهامه بأنه ظالم وغير قادر على اتخاذ قرار ، ومن الطبيعي هنا أيضاً أن يقوم ذلك الإنسان باكمال دوره بعد التأنيب وذلك بمحاولة مساعدة صاحبه على أن يتخلص من هذه الصفات السيئة ، أو يحاول معاقبته على ظلمه وعدم قدرته والتي هي في الأصل صفاته هو .

ومن ناحية أخرى فإن الطرف الآخر يقوم بنفس الدور عندما تتاح له الفرصة . هكذا تتاح الفرصة لكلا الطرفين في أن يتجاهل مشكلاته الخاصة ويغض الطرف عنها ، وهكذا تضيق من كل منهما الفرصة في أن يقوم بأي خطوة تساعد على تنمية شخصيته .

ومن أشكال الحب المرضى الأخرى التي تعتمد على عملية الإسقاط ، ما يحدث من اسقاط الإنسان لمشاكله الخاصة على الأطفال ، وذلك من خلال رغبة الإنسان في أن يكون له طفل . وهنا نجد أن الرغبة في الحصول على طفل هي رغبة نابغة بالدرجة الأولى من مشكلة وجود ذلك الإنسان في حد ذاته ، ثم تتحول إلى رغبة في انجاب طفل . فعندما يشعر شخص ما بأنه من الصعب عليه أن يجعل حياته معنى

ما ، فإنه يحاول أن يجد هذا المعنى المفقود في حياة الطفل الذي يرغب في انجابه . وهذه المحاولة في حل المشكلة الذاتية ، ان هي إلا محاولة محكوم عليها بالفشل سواء بالنسبة للفرد ذاته أو بالنسبة للطفل ، وذلك لأن مشكلة وجود ذلك الشخص لايمكن حلها إلا بالنسبة لهذا الشخص فقط وبطريقة مباشرة وليس عن طريق استخدام نائب أو بديل يقوم بتقديم الحل لهذه المشكلة . هذا مع ضرورة مراعاة أن الصفات الشخصية التي يجب أن تتوفر لدى هذا الفرد حتى يكون بإمكانه توجيه الطفل وحل مشكلاته ، وذلك أثناء بحثه هو نفسه عن حل مشكلة وجوده غير متوفرة لديه .

وغالبا ما يكون الأطفال في هذه الحالة مجرد ميكانيزمات نفسية في نظر مثل هؤلاء الأفراد ، وخصوصا عندما تواجه الزوجين مشكلة الانفصال عن بعضها بالطلاق . وفي هذه الحالة نسمع كثيراً من مثل هذين الزوجين - خصوصاً عندما تفشل علاقتهما الزوجية ويقفان على أبواب الطلاق - انها لا يريدان الاقدام على خطوة الطلاق حتى لايجرما أطفالهما نعمة الحياة في جو الأسرة ، والذي يعتبرونه جوا ضروريا لنمو الأطفال نموا سليما . ولقد وضحت الأبحاث والدراسات الأساسية في هذا الميدان أن جو الأسرة المفعم بالمشكلات وعدم الثقة والأمن ، والملء بالتعاسة ، أن هو إلا أشد خطراً على الأطفال من مرور الأطفال أنفسهم بخبرة الانفصال الواضح بين الوالدين ، والذي يوضح للأطفال على الأقل أن على الإنسان أن يكون في وضع مناسب يمكنه من اتخاذ قرار حاسم في المواقف التي لا يستطيع أن يتحملها ، أو المواقف التي يشعر فيها أنه يتحمل ما لا يطيق .

أضف إلى كل ماسبق أن هناك حالات أخرى محيرة : فهناك توهم بأن الحب لابد أن يكون حبا بلا عقبات وبلا مشاكل وكأنه أحد الأحلام الجميلة . يؤدي هذا التوهم أو الاعتقاد إلى اعتقاد آخر يري أنه من الضروري تجنب كل الآلام وتجنب الأحزان بأي طريقة من الطرق حتى تظل الحياة وردية .

وهنا نجد أن الإنسان المعاصر يفترض أن الحب - وهذا ما تركيه أغاني الحب

وأفلام الحب الخيالية- يعني اختفاء جميع أنواع الخلافات والصراعات . ويحاول الإنسان أن يدلل على ذلك بطريقة جيدة وذلك بالقول بأن الخلافات الزوجية أو الخلافات التي تعترى الحب لا تؤدي إلا إلى تدمير الحب ، ولا تدر أي نفع على الإنسان ، ولذلك فمن الأجدي تجنب هذه الاختلافات . ولقد أثبتت الدراسات أن السبب الحقيقي وراء الصراعات النفسية التي يعاني منها الإنسان في حياته يكمن أساساً في الصراعات التي يعاني منها ذلك الإنسان أثناء محاولته تجنب الصراعات الحقيقية . ولقد وضحت الدراسات أن هناك فروقاً واختلافات بين خصوصيات الإنسان الدقيقة وبين الخصوصيات الجانية . والصراعات الحقيقية بين البشر هي تلك الصراعات التي لا يخفيها أي شيء ، أو الصراعات التي يريد الإنسان أن يسقطها على الآخرين كما سبق أن وضحنا ذلك ، وهذه الصراعات تعتبر في أعماق أعماقها ، الحقيقة الداخلية للإنسان في ارتباطها بالإنسان نفسه ، وهي الصراعات التي يعيشها هذا الإنسان نفسه . هذه الصراعات لا تعتبر صراعات مدمرة ، بل على العكس فانها تؤدي إلى الوضوح ، كما تؤدي إلى تنقية الإنسان نفسه ، وتجعل الزوجين أكثر ادراكاً وأكثر وعياً ، وأكثر قوة في علاقتهما ببعضهما .

وعند هذا الحد نعود فنوجز القول بأن الحب يكون فقط ممكناً إذا استطاع شخصان أن يخرجاً بذواتهما من الدائرة المغلقة حول نفس كل منهما وأن يرتبطا ببعضهما ، وعندما يستطيع كل منهما أن يمر بخبرة وجوده مع الآخر بعيداً عن مركز الجذب الذي يشد كلا منهما إلى ذاته فقط . وهذه الخبرة الأساسية هي الحقيقة الإنسانية ، وهنا فقط تكون الحياة ، وهنا تكمن أسس الحب . ومثل هذه الخبرة بالحب ماهي إلا دعوة للخروج من أنانية النفس ، أنها ليست دعوة إلى مكان هادئ جميل ، وإنما هي مجهود مشترك ونمو مشترك وعمل مشترك حتي يصبح الالتقاء بينهما التقاء مشتركاً ، ويصبح الخلاف أيضاً خلافاً مشتركاً ، ويكون فرحهما وسعادتهما مشتركة ، ويكون حزنهما مشتركاً ، كل هذه المشتركات توضح أن كلا منهما قد استطاع الخروج من دائرة الأنانية الذاتية بالفعل . وبهذا الخروج أو التحرر إذا صحت التسمية ، يكون بإمكانهما الاثنان أن يتحولا إلى شخص واحد ، وفي

هذه الحالة سيكون بإمكانها أن يعيش خبرة التوحد ويتغلبا على الشعور بالعزلة والغربة والانفصال. والدليل على وجود الحب في هذه الحالة هو الارتباط العميق والحيوية والنشاط التي تميز كلا من طرفي الحب، وهذا في حد ذاته هو الثمرة التي تدل على وجود الحب بالفعل.

وكما أن الآلات والماكينات لا تستطيع أن يحب كل منهما الآخر، فإنها لا تستطيع أيضاً أن تحب الله. إن انعدام حب الله في المجتمعات التي بعدت عن الدين أو في المجتمعات التي تستر فقط بستر الدين قد وصل إلى نفس الدرجة والمعيار الذي وصل إليه انعدام الحب البشري. وهذه الحقيقة تكمن في التناقض في تصور أننا كبشر كنا ومازلنا ذوى حضارة وتاريخ ديني. إن ما تمر به معظم المجتمعات في العصر الحالي ما هو إلا العودة إلى مفهوم عبادة الأصنام سواء أصنام البشر أو أصنام الأجهزة الحديثة والآلات المعقدة، كما أنه تحويل للحب من حب الله إلى علاقة على نسق شخصية ذلك الإنسان المغترب حتى عن ذاته. وليس من الصعب علينا أن نتعرف على أعراض ظاهرة العودة إلى الوثنية وعبادة الأصنام، فقد أصبح إنسان المجتمع الحديث خائفاً قلقاً وليس له مبادئ، وقد فقد ثقته في نفسه وفي غيره، ولم يعد له من هدف يبغي الوصول إليه أكثر من جمع المادة، وكأنه ارتد إلى مرحلة الطفولة يريد أن يجمع كل شيء، وفي نفس الوقت يريد أن يحصل على من يساعده ويساعده.

لقد كان الإنسان في الثقافات القديمة ينظر إلى الله باعتباره الأب الذي يمد له يد المساعدة، أو باعتباره الأم المستعدة دائماً لتقديم مساعدتها لأبنائها بلا مقابل. وفي نفس الوقت سنجد أن الإنسان في تلك الثقافات قد نظر إلى الله على أنه هو هدف حياته كلها، فمبادئ الله عنده هي مبادئ الحياة. أما اليوم وفي ظل الحضارة الصناعية المادية الحديثة فإن معظم تلك المبادئ قد اختفي، وإن كان بعضها موجوداً فإنه لم يعد محل احترام كبير من المجتمع. لقد أصبحت الحياة اليومية في الوقت الحاضر أكثر صعوبة، وأكثر قسوة، وأصبح الكثير من الناس يعانون

الانفصال عن الحياة الدينية . لقد أصبح هم الانسان المعاصر هو الاجتهاد في الحصول على تحقيق أكبر قدر من الراحة الانسانية ، وذلك عن طريق اقتناء الماديات والمخترعات الحديثة ، وكذلك الاهتمام بتحقيق أكبر قدر من النجاح في مجال سوق الشخصية . وأهم الأسس التي يقيم عليها مجتمع اليوم - المادي - جهوده وكفاحه هي أسس اللامبالاة وعدم الإكثار والأنانية والتي تسمى أحيانا بالفردية أو بالمصالح الشخصية . وإذا كان من الممكن مقارنة انسان الثقافة الدينية بطفل في سن الثامنة تقريبا ، طفل يحتاج إلى الأب المنقذ ، طفل قد بدأ في تعلم مبادئ وتعاليم الأب في حياته ، كما بدأ يستدمج هذه المبادئ في ذاته ، فإن انسان المجتمع الصناعي المعاصر يمكن تشبيهه بطفل في سن الثالثة فقط ، طفل ينادي أباه عندما يحتاج إليه ، طفل غالبا ما يشعر بالسعادة عندما يجد أمامه فرصة سانحة للعب واللهو .

ومن هذا المنطلق ، وخصوصا من وجهة نظر الارتباط الطفلي الذي يتصور الله كإنسان ، فإن البعد عن مبادئ الله وتطبيقها في الحياة ، انما يعنى أن البشر في العصر الحديث يتحولون إلى بدائيين عبدة للأصنام ، أكثر من كونه قريب الشبه بالشعوب ذات الثقافة الدينية حتي في العصور الوسطي . هذا ويلاحظ أن المجتمعات الصناعية قد بدأ يسودها في الوقت الحاضر تيار ديني جديد بهدف العودة إلى الكنيسة وإلى تطبيق مبادئ الله كما يفهمها رجال الكنيسة في المجتمع الغربي . وأكبر دليل على ذلك ما يلاقيه البابا في الوقت الحاضر من التفاف الجماهير الضخمة حوله في كل زيارة يقوم بها إلى إحدى الدول الغربية .

ثم ماذا ؟ لقد تحول الإنسان المعاصر في معظم المجتمعات إلى سلعة ، انه انسان يجد أن حياته وطاقته ماهى إلا نوع من الاستثمار ، فهو يود أن يحصل لنفسه على أكبر مقابل مادي وفقا لتصوره لنفسه ووفقا لوضعه في مجال سوق الشخصية . لقد اغترب هذا الانسان عن ذاته وعن غيره من أبناء المجتمع وكذلك عن الطبيعة التي يعيش في كنفها ، وعن الله الذي يعيش في ظلاله . إن هدف الإنسان المعاصر

هو عقد صفقات رابحة يقوم فيها بالمقايضة على مهاراته ومعارفه ، بل وعلى شخصيته كلها ، مع أفراد آخرين يودون هم أيضاً عقد صفقات رابحة . . أي أن كل إنسان يريد أن يكون هو الرابع الوحيد . ان هدف الإنسان هنا ومبدأه الأساسي هو الوصول إلى الدرجة التي يكون فيها قادرا على عقد صفقات تدر ربحاً أكثر وعلى أن يتمكنوا من اشباع رغباتهم في التملك وفي الإستهلاك .

ماذا يبقى بعد ذلك وتحت هذه الظروف من معنى لمفهوم الله ؟

إن المفهوم والمعني الديني القديم قد تغير بدرجة تجعل الإنسان يتوافق مع الثقافة المغترية للنجاح . ومحاولات تجديد الدين أو التدين في الوقت الحاضر تهدف إلى تحويل الاعتقاد في الله إلى أسلوب نفسى ، يهدف إلى تسليح الإنسان في عملية المنافسة وجعله أكثر صلاحية وصلابة .

لقد ارتبطت العقيدة الدينية أخيراً بالعلاج النفسي الذي يهدف إلى مساعدة الناس في حياتهم الجديدة التي تعتمد على عقد الصفقات . لم يعد الإنسان المادي (في السنوات الأخيرة) يدعو ربه لمساعدته وشد أزره وتعزيز شخصيته ، فقد بدأ يحل محل العقيدة الدينية لدى الكثيرين طرقاً وأساليباً مختلفة على هيئة كتب وارشادات في كيفية كسب الأصدقاء واجتذاب اهتمام الآخرين والتأثير عليهم ، وفي كيفية تحقيق الربح السريع . وقد استفاد رجال الكنيسة في دول الغرب من هذا الاتجاه العقلي ، فأدخلوا هذه الأفكار الجديدة إلى الكنيسة في ثوب ديني جديد . ومن الملاحظ أيضاً أن الكثير من الكتب الإسلامية الجديدة قد بدأت تتجه لتنبية الناس إلى مدي ارتباط الحياة بالدين ، حتى تغير مفهوم الكثير من الناس عن الدين ، وتبين لهم أن الدين لا يقتصر على مجرد التعبد والصلاة بين جدران المساجد . . أصبحنا نطالع في الكتب الدينية العديد من المسائل والأمور الحيوية الهامة سواء في مجال التجارة والاقتصاد والسياسة أو في غيرها من المجالات المختلفة . لقد بدأ الإنسان يدرك أن الصلاة والعبادة هي التي تقرب الإنسان من الله ، كما أنها تبعث في نفس الإنسان الثقة في الله وفي النفس ، وفي أن الله مع هذا

الإنسان فعلا ولن يتخلى عنه . وقد بدأ الكثيرون من المعالجين النفسيين ينصحون مرضاهم بالنصائح الدينية ، ويبينون لهم أن حب الله سيجعلهم أكثر ثقة ونجاحا . «اجعل الله تجاهك» تعنى هذه العبارة لدى الكثيرين أن الله هو الشريك في العمل وهو المساعد في تحقيق الهدف . ولكن هذا لايعني الاتحاد مع الله في الحب ولا في العدالة ولا في الحق . وكما هو في حالة حب الآخرين حيث نجد أن الانسان قد بدأ يستبدل هذا الحب بالسلوك المهدب مع الآخرين ، فان الله قد أصبح بالنسبة للإنسان الحديث هو المدير العام للمؤسسة العامة ، ومن الصعب الدخول إليه ، فالإنسان يعرف أنه موجود ، وأنه يدير المؤسسة -وان كان البعض قد بدأ يتجاهل ذلك- ولكن الإنسان لايراه ، ومع ذلك فإنه يعترف بقيادته ويؤدي ما عليه من واجبات .

الباب الرابع

سيكولوجية تعلم الحب

الفصل الرابع عشر

تعلم الحب

بعد أن ركزنا اهتمامنا حتى الآن على الجانب النظري في الحب، وعرضنا له عرضاً يكاد يكون وافياً، فإننا نقف الآن وجهاً لوجه أمام مشكلة من أصعب المشكلات ألا وهي مشكلة الجانب التطبيقي العملي في الحب. هل يستطيع الإنسان أن يتعلم شيئاً ما عن طريقة أو كيفية اتقان فن من الفنون أو حرفة من الحرف؟ وهل يستطيع الإنسان أن يتعلم طريقة أو كيفية ممارسة هذا الفن أو تلك الحرفة؟

قد تزداد هذه المشكلة صعوبة وحدة، ذلك لأن معظم الناس في وقتنا الحاضر - ومنهم بالطبع كثيرون ممن يقرأون الآن هذا الكتاب - كانوا يتوقعون أننا سنقدم لهم «وصفات» أو نماذج ليتعلموا منها ولينسجوا على منوالها، وهذا في حد ذاته يعني أنه كان لزاماً علينا أن نقدم عن طريق هذه الكتاب دروساً خصوصية في «مادة» الحب. انني أخشى على هؤلاء الذين بدءوا في قراءة الباب الأخير من هذا الكتاب من أن يصابوا بخيبة الأمل ويندموا على قراءتهم أو حتى على شرائهم لهذا الكتاب أصلاً.

الحب عبارة عن خبرة شخصية لا بد أن يمر بها الإنسان حتي يصبح لها معنى في حياته (تشير كل الحقائق إلى أنه ما من إنسان على هذه الأرض إلا وقد مر بهذه الخبرة ولو مرة واحدة في حياته، حتى ولو في أبسط شكل من أشكالها، سواء كان ذلك في طفولته المبكرة أو في سنوات عمره الأولى، أو في مرحلة نضجه). إن مهمة أية مناقشة للجانب التطبيقي في الحب، قد تكون هي الشرط الذي يجب أن يتوفر لنا حتى نتمكن من مناقشة الحب «كمادة» أو كفن أو كعلم مثل غيره من المواد

والعلوم والفنون، وحتى تتمكن أيضاً من مناقشة الخطوات الأولى في الحب. أن الخطوة الهامة والفاصلة في سبيل التوصل إلى الهدف لا بد أن تنبع من الإنسان المحب، أي لا بد وأن يبدأها كل إنسان بنفسه، ومع ذلك فأنني اعتقد أن مناقشة الخطوات الأولى عن طريقة وكيفية اتقان أي فن من الفنون أو علم من العلوم أو حرفة من الحرف، قد تكون عاملاً مساعداً على الأقل لكل راغب في التعلم.

١- النظام :

إن الممارسة العملية والتدريب العملي على أي فن أو علم أو حرفة، يتطلب من الإنسان التدريب على مجموعة من الأشياء العامة، بغض النظر عما إذا كانت هذه الأشياء تدخل مباشرة في المجال الذي يريد أي فرد ما أن يتعلمه، أي بغض النظر عما إذا كان هذا الشخص يهتم بدراسة التجارة أو الطب أو الهندسة أو تعلم الحب. ويتطلب التدريب والتعلم لأي مهنة من المهن أو حرفة من الحرف أو فن من الفنون أو علم من العلوم توفر درجة معينة من النظام. فلا يستطيع الإنسان أن يتوصل إلى أي شيء أو يحصل على أي شيء إذا لم يكن انساناً منظماً (النظام هنا شرط ضروري للممارسة والتعلم). وعندما يفعل الإنسان ما يفعل أو يقوم بأداء عمل معين وفقاً لحالته المزاجية، فإن ما يقوم به هذا الإنسان، قد يوصله إلى ممارسة هواية مسلية، ولكن هذا لن يؤدي به إلى أن يصبح ماهراً أو خبيراً في هذا المجال، بالدرجة التي تجعله يحقق نجاحاً وتفوقاً. المشكلة هنا ليست فقط مشكلة النظام في التدريب على فن معين أو على أداء عمل معين (بحيث يتحتم على الإنسان أن يحدد عدداً معيناً من الساعات يومياً يقوم خلالها بالتدريب على هذا الفن أو ذلك العمل)، ولكن المشكلة هي مشكلة النظام في الحياة كلها. قد يعتقد البعض أنه ليس أسهل على إنسان العصر الحديث من تعلم النظام، ألا ينتظم هذا الإنسان عدداً معيناً من الساعات في العمل الذي يقوم به يومياً؟ أو ينتظم عدداً من الساعات في المدرسة إذا كان تلميذاً أو مدرساً؟ وهو عندما يؤدي عمله - بغض النظر عن نوع هذا العمل - لا بد وأن يؤديه بطريقة منظمة؟ ولكن الحقيقة هي أن الإنسان المعاصر يبدو أقل تنظيماً بعد الانتهاء من العمل بدرجة واضحة - فعندما

لا يكون لدى الإنسان عمل نجد أن الكسل يلزمه ، كما تلازمه عدم الرغبة في عمل أى شىء . . انه يحتاج إلى حالة من الاسترخاء حتى يتمكن من استخدام كلمة مهذبة . ونجد أيضا أن هذه الرغبة في عدم العمل ماهي إلا رد فعل لروتين الحياة . فلأن الإنسان قد أجبر أو اضطر اضطراراً على أن يعطى من وقته عدداً معيناً من الساعات يومياً وعلى أن يعطى من صحته وقواه طوال هذه الساعات أثناء العمل ، وربما كانت أهداف العمل تختلف عما كان يتمناه هذا الإنسان ، كما أن العمل قد يتم بأسلوب يختلف تماماً عن الأسلوب الذي كان يود هذا الإنسان أن ينجزه به ، ولكن هذا الأسلوب ماهو إلا أسلوب قد سبق تحديده ليطمئنى مع النظام الكامل للعمل ، وبالتالي فإذا حاول ذلك الإنسان أن يتمرد أو يتذمر ، فإن عصيانه يعتبر تمرداً على النظام العام . ومن ناحية أخرى فإن دخول الإنسان في صراع ضد سلطة أى نظام قد أصبح غير موثوق فيه ، سواء كان السبب في ذلك هو الحالة الانفعالية لهذا الفرد أو الضغوط التي تقع عليه من السلطة المنظمة نفسها . ومع ذلك فإن الحياة بغير نظام ستكون حياة ممزقة كثيبة ، وليس لها هدف ، إنها ضياع .

٢- التركيز :

التركيز كشرط ضروري لتعلم واتقان أى فن أو علم من العلوم أو حرفة من الحرف ليس في حاجة إلى البحث عن دليل أو برهان ، فكل من حاول ذات يوم أن يتعلم فناً أو حرفة أو مهنة يعرف ذلك جيداً . ويعتبر التركيز في مجتمعنا أكثر ندرة من النظام أو التنظيم الذاتى . إن ثقافتنا المعاصرة تقود الإنسان إلى نوع من الحياة الممزقة الخالية من هدف واضح يركز عليه الإنسان فالإنسان في مجتمعنا يقوم بأداء الكثير من الأشياء دفعة واحدة ، انه يقرأ ويستمتع إلى الراديو وإلى الموسيقى ، ويسلئ نفسه ويأكل وهذا يدل على اضطراب الإنسان ومرضه .

لقد أصبح الإنسان في المجتمع الحديث انساناً مستهلكاً ، يجلس فاتحاً فاه مستعداً لابتلاع كل شىء (المشروبات والصور والعلم) . وهذا النقص في تركيز الإنسان على شىء محدد ، يظهر لنا بوضوح وجلاء في الصعوبات التي يواجهها كل منا عندما يخلو إلى نفسه . انه من الصعب فعلاً على الكثيرين أن يجلسوا في

هدوء وفي صمت بلا سيجارة وبلا كتاب وبلا مشروب، اذ تبدو عليهم علامات الضيق وعدم الراحة، إذا لم يفعلوا شيئاً سواء بالفم أو بالأيدي (فالتدخين مثلاً ماهر إلا عرض لنقص القدرة على التركيز، انه يشغل اليد والفم والعين والأنف).

٣- المثابرة :

عندما نتحدث عن المثابرة فإننا نعرف أن كل انسان يريد أن يتعلم فناً أو علماً أو مهنة يعرف أن الصبر والمثابرة ضرورية جداً، إذا ما أراد الإنسان أن يحقق الهدف من التعلم. عندما يريد الإنسان أن يصل إلى نتيجة سريعة، فإنه لا يتعلم أى فن إطلاقاً. ويعتبر الصبر والمثابرة على نفس درجة الصعوبة التي نجدها في النظام وفي التركيز، ذلك أن نظم الانتاج الحديثة، وخصوصاً الانتاج الصناعي تتطلب منا العكس تماماً، فهي تتطلب السرعة وليس الصبر أو الأناة أن كل الآلات الحديثة قد تم تصميمها لتدور بسرعة معينة، فالسيارات والطائرات مثلاً، توصلنا بسرعة إلى الأماكن التي نقصدها، وكلما زادت السرعة كلما كان ذلك من الأفضل. إن الآلة التي تنتج نفس الكمية في نصف الزمن الذي تحتاجه آلة أخرى لإنتاج نفس الكمية، إنما تنتج ضِعْف ما تنتجه الآلة القديمة البطيئة. ومن الطبيعي أن يكون لهذه السرعة أسسها الاقتصادية، ولكن الكثير من الجوانب الأخرى توضح أن قيمة الإنسان أصبحت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالاقتصاد، بل أن الاقتصاد هو الذي يحدد قيمة هذا الإنسان، ذلك أننا نجد أن مواصفات جودة الآلة هي نفسها مواصفات جودة الإنسان. ان الإنسان المعاصر يعتقد أنه سيفقد الوقت ويضيعه إذا لم ينته من أداء عمل معين بسرعة فائقة، ولكنه من ناحية أخرى لا يعرف ماذا سيصنع بالوقت الذي توفر نتيجة الانجاز السريع للعمل، غير أن يحاول قتل هذا الوقت.

٤- الدافعية :

تكمن أهم شروط التعلم لأي مهنة أو فن أو علم في شروط الدافعية، أى في مدى توفر الإهتمام الشخصي نحو تعلم هذه المهنة أو ذلك الفن أو العلم الذي يريد الإنسان أن يتعلمه. إذا لم يكن الفن أو العلم أو المهنة التي يريد الإنسان

تعلمها تمثل بالنسبة له أهمية كبرى، وإذا لم تستحوذ على كل اهتمامه، فإنه لن يستطيع التعلم، وفي أحسن الحالات قد يظل هذا الإنسان من هواة ذلك الفن أو العلم أو العمل، ولكنه لن يصبح انساناً خبيراً وإذا باع في هذا المضمار أو ذاك. ولهذا الشرط أهمية خاصة في ميدان الحب مثل غيره من ميادين العلوم والفنون والمهن التي يتعلمها الإنسان، غير أنه يبدو وكأن العلاقة بين هواة الحب وبين خبراء الحب تفسر في مصلحة هواة الحب، إذا ما قورنت بالعلاقة في مجالات العلوم والفنون الأخرى.

إذا أعدنا النظر في الشروط العامة المطلوبة لتعلم أى فن أو مهنة أو علم، فإننا نجد أن هناك نقطة هامة تجب الإشارة إليها:

إن الإنسان لا يبدأ مباشرة بتعلم المهنة أو العلم أو الفن الذي يريد تعلمه بطريقة مباشرة، ولكنه يبدأ بطريقة غير مباشرة دائماً فعليه أولاً أن يتعلم -غالباً- أشياء أخرى قد تبدو لأول وهلة وكأنه لا علاقة لها بما يريد الإنسان أن يتعلمه ويتقنه. ولنأخذ على سبيل المثال انساناً يريد أن يتعلم فن كتابة القصة. . نجد أن عليه أولاً أن يبدأ بالقراءة وليس بالكتابة. . عليه أن يعود إلى كتب الأدب ويقرأ كثيراً حتى ينمى في نفسه الموهبة، ثم عليه بعد ذلك أن يتعلم فن الكتابة وأصول كتابة القصة سواء القصة القصيرة أم الرواية. . ان هذا ينطبق أيضاً على من يريد أن يتعلم كتابة الشعر، وكذلك على من يريد أن يصبح فناناً في الرسم أن يعرف خصائص اللون والحجم والمساحة والبعد والاضاءة، ثم يبدأ بعد ذلك في تعلم الرسم. وحتى في حرفة النجارة نجد أن من يريد أن يصبح نجاراً لا يبدأ مباشرة بصناعة أى قطعة أثاث، وإنما سيبدأ بأشياء أخرى، فيبدأ بمعرفة الأخشاب ثم يبدأ في تعلم استخدام أدوات النجارة في قطع وتنظيف الأخشاب. . الخ. . والذي يريد أن يتعلم الموسيقى (عزف البيانو مثلاً) لن يبدأ بالبيانو مباشرة، وإنما سيبدأ بمعرفة الأصوات الموسيقية وبالسلم الموسيقى. . والذي يريد أن يتعلم الرماية يبدأ أولاً بتعلم ضبط التنفس. وإذا أراد الإنسان أن يصبح خبيراً (معلماً) في حرفة من الحرف أو فن من الفنون فلا بد أن يكرس حياته لهذا الفن أو تلك الحرفة. ان

أو تلك الحرفة . ان كيانه وشخصيته ستصبح وسيلة في تمرنه وفي تدريبيه على تعلم هذا الفن أو تلك المهنة ، ويجب عليه أن يظل على المستوى اللائق الذي يمكنه من تحقيق الهدف المنشود . وإذا طبقنا ماسبق في مجال الحب فإن هذا يعني أنه على كل انسان يرغب في تعلم الحب وفي أن يكون خبيراً في الحب أو فناناً في الحب أن يبدأ في كل مراحل حياته بالتدريب على النظام والتركيز والثابرة والصبر .

ولكن كيف يتمرن الإنسان على النظام؟

على الإنسان أن يصحوا صباحاً في ساعة محددة كل يوم ، وأن يؤدي عملاً معيناً مثل التمرينات الرياضية مثلاً ، أو الجرى أو القراءة ، أو التنزه ، وعليه ألا يترك نفسه فريسة لتأثير المغريات الوقتية على حساب قاعدة حياته المرسومة كالاستمرار مثلاً في قراءة قصة بوليسية ، أو مشاهدة فيلم في التلفزيون ، أو أن يأكل أكثر من اللازم طالما كان الأكل لذيق الطعم ، أو أن يتهادى في تضييع الوقت بلا حسيب ولا رقيب ان هذه هي أوضح وأبسط القواعد المعروفة انه من الضروري ألا يكون النظام الذي يتمرن الإنسان عليه مفروضاً عليه من الخارج ، ولكن يجب أن يكون تعبيراً عن الرغبة الحقيقية عند الإنسان ، حتى يشعر الإنسان بأن هذا النظام شيئاً حسناً ومقبولاً ، وحتى يتعود الإنسان تدريجياً على هذا النظام بالدرجة التي تجعله يشعر بأن شيئاً ما ينقصه لو أنه أدخل بالنظام الذي تعود عليه .

ثم يأتي عامل التركيز ، وهنا نبدأ بالقول بأن عنصر التركيز قد أصبح في عصرنا الحالي أمراً شاقاً . انه يبدو أن التركيز في المجتمع المعاصر قد أصبح يصطدم بالتصدع والتشقق وعدم الوضوح ، ولكن الانسان يجبر على غير رغبة منه ودون أن تتوفر لديه القدرة على أن يركز . فإذا أخذنا تلاميذ المدارس على سبيل المثال سنجد أن الآباء والمدرسين ينظرون اليهم على أنهم مجرد عقول فقط عليها أن تعي وتحفظ عن ظهر قلب ، وعليها أن تتنافس وتتصارع من أجل الحصول على أعلى الدرجات . . لقد بدأ الأطفال ينسون طفولتهم ، بل انهم لا يعيشونها على الإطلاق ، وبدأ الكبار يقفون لهم بالمرصاد ليتعلموا ويستذكروا ، ويحضرون لهم المدرسين

الخصوصين بعد المدرسة ليعاونوهم على مزيد من الحفظ الذي لا يتعدى الحفظ والتكرار إلى الفهم والتفكير، وكأننا أصبحنا نؤمن بأن هذه هي الفضيلة، ولابد أن يضحي الإنسان من أجل هذه الفضيلة، لا بد أن يمر بالآلام والأحزان ويعيش الحرمان، حتي تصبح له قيمة ما في يوم من الأيام. إن أهم خطوة لتعليم التركيز هي أن يتعلم الإنسان أن يقضى وقتاً مع نفسه فقط. . أن يخلو الإنسان إلى نفسه بلا كتاب يقرأ فيه، ولا صحيفة يتصفحها أو راديو يستمع إلى ما يذاع من خلاله وتبدو القدرة على التركيز بوضوح في قدرة الإنسان على أن يخلو بنفسه. . هذه القدرة على الوحدة والخلود إلى النفس هي أحد الشروط الهامة للقدرة على الحب. إن الإنسان المحب لله والمتصوف يستمتع في خلوته بحبه الإلهي. . يجد الوجود كله في شخص من يحب. . ويخلو الإنسان العاشق إلى نفسه فيجد حبيبته الغائب. . انه قادر على التركيز، ولذلك فهو قادر على الحب. أما إذا كان الإنسان يرتبط بانسان آخر لأنه يجد فيه العون والمساعدة، أو لأنه في حاجة إليه، لعدم قدرته هو نفسه على الاستقلال، فإن الشخص الآخر لا يعدو أن يكون هو الشخص المنقذ أو المساعد، وهنا لن تكون العلاقة بين هذين الشخصين علاقة حب، انها علاقة مصلحة وهذا ماتعكسه موجة أغاني (بحبك لا. . محتاج لك آه. .).

انه من الغريب فعلاً أن تكون قدرة الإنسان على أن يكون وحيداً حين يخلو إلى نفسه وينقطع عن الناس هي شرط قدرته على الحب، لأن الحب يعني التقاءه بالمحبيب فلا يشعر بالوحدة. ان كل من حاول أن يجرب خبرة العزلة والوحدة وجد أنها شاقة وصعبة، وسيجدها كذلك كل من يحاول ذلك، ففي تجربة الوحدة يشعر الإنسان بعدم الراحة وبالقلق، شيئاً فشيئاً يصبح انساناً عصيباً، أو ليس مفهوم السجن هو العزلة؟، والعزلة عذاب وعقاب؟ ويرر الإنسان عدم الميل إلى تمرين نفسه على الاعتزال وعلى الخلود إلى النفس بالحجج العقلية أو بالقول بأن هذا كله ليس له أى معنى، لأنه من الهراء أن يضيق الإنسان وقته في مثل هذه الأشياء التافهة.

سيؤكد الإنسان في وحدته من أن الأفكار ستتكاثر، وبأنه في عملية حساب

ومساءلة مع النفس ، وقد يلاحظ هذا الانسان فجأة أنه يخطط لما سيفعله بعد ذلك وبأنه يفكر في الصعوبات التي تواجهه في العمل ، أو يفكر فيما سيفعله هذه الليلة مثلاً . ان عدداً من التمرينات السهلة يمكن أن تساعد الإنسان كثيراً على تعلم فن التركيز ولتأخذ على سبيل المثال تمرين الجلوس مسترخياً بلا توتر ، وإغلاق العينين ، ومحاولة تركيز النظر على نقطة ، أو على مساحة بيضاء أمام العين ، وطرد كل الأفكار المزعجة وكذلك كل الصور الأخرى التي تشتت التركيز . وقد يحاول البعض التركيز على ملاحظة عملية تنفسهم بلا تفكير في هذه العملية ، ولكن يدرك الإنسان فقط عملية التنفس ويعيها في جسمه . . ثم يحاول الإنسان أن يشعر بنفسه وبذاته ، على أنها مركز قوته ، وعلى أنها هي التي تحدد له عالمه . وعلى الإنسان أن يمارس عملية التفكير والتركيز يومياً لفترة من الوقت في الصباح وفي المساء قبل النوم . وإلى جانب هذا التمرين ، على الإنسان أن يتعلم أيضاً التركيز في كل شيء يعمل ، أن يتعلم التركيز عندما يستمع لمحدثه أو يستمع إلى قراءة القرآن ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] أن يتعلم التركيز عندما يقرأ كتاباً ما ، أن يركز عندما يتحدث مع انسان آخر ، وأن يركز عندما يلقي بنظره على صورة معينة في أحد صالات العرض . وعندما يتقن الانسان فن التركيز ويكتسب هذه القدرة فلن يؤثر على الإنسان ماذا يقوم به من عمل ، ولن يغيره ماذا يفعل ، فالأشياء الهامة وكذلك الأشياء غير الهامة سيصبح لها بعداً جديداً في الواقع ، لأن الإنسان في حالة تركيزه سيكون أكثر انفتاحاً وإدراكاً .

وحتى يتعلم الانسان كيف يركز عليه أن يتجنب المناقشات الفارغة التي ليس لها موضوع ولا جوهر ، لأن مثل هذه المناقشات لن تكون مناقشات وإنما هي مضیعة للوقت . فإذا تحدث شخصان مع بعضهما عن نمو شجرة معينة ، أو عن طعم الخبز الذي أكلاه تواء ، أو عن الأحداث الوظيفية العامة ، فإن مثل هذه المناقشة قد تكون هامة ولكن على شرط أن تكون مرتبطة بخبرة حقيقية قد مر بها أحدهما أو كلاهما ، وألا يكون الحديث مجرد حديث نظري لمجرد الحديث وتسلية الوقت . ومن ناحية أخرى قد تجرى إحدى المناقشات في مجال السياسة أو في مجال

الدين ولكنها تكون مناقشات عديمة القيمة، إذا كانت تلك المناقشات تدور بأسلوب القوالب المحفوظة أو الشكليات الرتيبة والمملة وعندما يكون طرفي الحديث بعيدان كل البعد عما يتحدثان فيه أو عنه، وإنما يريدان حديثاً سطحياً لتبادل الكلمات المحفوظة والأفكار المنقولة، وهنا يجب أن نضيف إلى ماسبق، أنه ليس من المهم فقط أن نبتعد بأنفسنا عن كل المناقشات الفارغة، وإنما من المهم أيضاً أن نتجنب كل المجتمعات السيئة. اننى لا أعنى بهذا تجنب الإنسان أيضاً مجتمعات مثل هؤلاء الناس لأنها تترك أثراً فعالاً في تلويث الجو النفسي وإصابته بالاكئاب، وأعنى أيضاً المجتمعات الانسانية التي يطلق على أصحابها ميت الأحياء، فإن تجمعات هؤلاء الأحياء الموتى ومناقشاتهم توضح مدى الخواء النفسي والفراغ الذي عشن داخلهم، وأن أفكارهم وأحاديثهم ستكون بلا مضمون ولا محتوى، انهم يثرثرون ولايتناقشون. . أنهم لايفكرون ولايتأملون ولايعتبرون، ولكنهم يبصمون أفكارهم التي حُفرت منذ زمن بعيد.

ورغم كل ماسبق فانه ليس من الممكن دائماً، وليس من الضروري أيضاً أن يتجنب الانسان تجمعات مثل هؤلاء الناس، فإذا حدث واشترك الإنسان في مثل هذه التجمعات وكان رد فعله هو رد الفعل المتوقع منه في هذه الجماعة، أى أن مناقشاته لم تكن ترديداً بيغايوا لكلمات وأفكار الآخرين، وإنما كانت مناقشة إنسانية، أو رد فعل انساني بالدرجة الأولى وبطريقة مباشرة، فسيجد هذا الانسان أن سلوك مثل هذه الجماعة سيتغير فجأة، سيشكرون تلك المفاجأة أو المناسبة التي كانت سبباً في الصدمة التي أصيبوا بها والتي أثارت في أنفسهم الشوق إلى الخروج من دائرة الفروض المجردة التي ليس لها أى معنى أو قيمة، ودفعتهم إلى دنيا الواقع. ان التركيز في العلاقة مع الآخرين يعني بالدرجة الأولى القدرة على الاستماع. فالكثيرون من الناس يعتقدون أنهم يحسنون الاستماع إلى غيرهم، كما أنهم يدلون بنصائحهم التي تدل على أنهم لم يستمعوا أصلاً إلى كل ما قيل. . انهم لا يأخذون مايقوله محدثهم مأخذ الجد، الأكثر من هذا انهم لا يأخذون مايدلون به لمحدثهم من إجابات ونصائح مأخذ الجد. والنتيجة هي أنهم يصابون بالتعب من الحديث،

إنهم يعيشون في الوهم، ذلك الوهم بأنهم سيكونون أكثر تعباً وإرهاقاً إذا استمعوا جيداً وأنصتوا لكل ما يقال، والحقيقة أن العكس هو الصحيح. إن كل عمل يتم التمرين عليه من خلال تركيز الإنسان على هذا العمل، يجعل الإنسان يقظاً واعيّاً، (بغض النظر عما إذا كان الإنسان سيشعر فعلاً بعد ذلك بالتعب والإرهاق فهذا شيء صحي وطبيعي)، بينما نجد أن كل تدريب على عمل ما يتم دون تركيز الإنسان على العمل الذي يتدرب عليه، سيصيب الإنسان بالصداع والدوار، وسيصيبه ليلاً بالأرق والسهر.

يعني التركيز أن يعيش الإنسان تماماً في الحاضر، في المكان والزمان الذي يوجد فيه الإنسان فعلاً، ولا يفكر فيما سيأتي، وفيما سيجب على الإنسان أن يقوم به، في نفس الوقت الذي يقوم فيه بأداء عمل آخر. إنه من البديهي أن يقوم الإنسان الذي يحب بتمرين نفسه على التركيز. على الإنسان أن يتعلم أن يقترب ممن يحب، عليه أن يقترب بلا قناع، وأن يكون واضحاً صريحاً وعليه ألا يفر ممن يحب ليخفي نفسه، ويخفي ما يجول بصدرة عنه، كما يحدث عادة في وقتنا هذا. يقول المثل إن كل بداية صعبة حتى في تعلم التركيز، بدرجة تبدو وكأن الإنسان لا يستطيع التوصل إلى هذا الهدف. ومن اللوازم الضرورية للتركيز، الصبر والمثابرة. فإذا لم يعرف الإنسان أن لكل شيء أوان، ولكل وقت أذان، وأن كل شيء بميقات، وأراد الإنسان أن يستعجل الأمور في غير أوانها وأن يصل إلى النتائج في غير موعدها، فلن يستطيع الإنسان أن يصل إلى أي درجة من التركيز، سيكون انساناً قلقاً معذباً. إذا أراد الإنسان أن يتصور ما هو الصبر وما هي المثابرة فعليه فقط أن ينظر إلى الطفل في سنوات نموه الأولى، يحاول الانتقال من الحبو إلى المشي فتواجهه العقبات، يسقط المرة تلو المرة، وقد يصاب ويتألم ويبكى، ولكنه لا يكف عن المحاولة، وفي كل مرة يكتسب حركة جديدة تعضد مقصده، ويقوى عوده ويشد ساعده حتى يأتي اليوم الذي يستطيع فيه الطفل أن يمشى على قدميه دون مساعدة من أحد، وأن يجري دون خوف من السقوط. ماذا قد يستطيع الإنسان الناضج أن يحصل عليه وهو يحاول تحقيق أهدافه الهامة مستعيناً بالصبر والتركيز الذي نشاهده في مثال

يتطلب التركيز أيضاً القدرة على أن يكون الانسان يقظاً . ولكن ما معنى هذا؟ هل من المطلوب من الإنسان أن يقضى وقته كله يفكر في نفسه عن نفسه ، وأن يحلل نفسه ، أم ما هو المقصود بالضبط ؟ إذا تحدثنا عن يقظة الإنسان وملاحظته للآلة التي يعمل عليها ، فقد يكون من السهل تقريباً أن نوضح ماذا نعني بذلك . إذا أخذنا على سبيل المثال شخصاً يقود سيارته التي يملكها فسنجد أنه شخص متيقظ ومدرك لسيارته ، أو قل انه حساس لكل صوت يصدر عنها ، انه يفهم جيداً ، أنه يستطيع أن يلاحظ بدقة أن صوتاً ما غير طبيعي يصدر عنها ، أو يصدر عن موتور السيارة ، أو أن هناك أصواتاً خافتة غير معهودة ، أو أن قوة الموتور لم تعد هي التي عهد بها في سيارته قبل ذلك . وبنفس المنهاج يستطيع كل سائق سيارة أن يلاحظ التغيرات التي تحدث في الشارع أو يلاحظ السرعة التي تسير بها السيارات الأخرى ، وأن يلاحظ تغيير الاتجاهات التي تطرأ على مسار سير السيارات القادمة خلفه أو التي تسير أمامه . ومع ذلك فانه لا يفكر في هذه العوامل ، أنه في وضع يمكنه من أن يكونا متنبهاً ويقظاً لأي تغيير يحدث في رحلته ، وأي تغيير يحدث على طريق الرحلة ، والذي قد ركز انتباهه عليه ، والذي ركز عليه كل سائق سيارة من السيارات السابقة أو اللاحقة أو الموازية .

وإذا أردنا أن نرى مثلاً للدراك والملاحظة الواعية واليقظة من انسان نحو انسان آخر ، فإننا لن نجد أوضح من موقف الأم الواعى والمتيقظ نحو طفلها . . انها تلاحظ كل التطورات وتلاحظ النمو الذي يطرأ على جسمه . . أنها تلاحظ وتدرک حتى رغباته ومصاعبه حتى قبل أن يصدر عنه أى سلوك يفصح عن ذلك . انها تستيقظ من نومها عندما يبكى الطفل ، أو يصرخ في الوقت الذي لاتوقظها فيه أصوات أخرى قد تكون أكثر ضجيجاً وارتفاعاً من صوت طفلها . أن هذا يعني انها متيقظة تماماً ومهتمة بحياة طفلها . انها ليست أما قلقة ، وليست خائفة ، ولكنها في وضع من اليقظة المتوازنة المستعدة لالتقاط أى اشارة تصدر عن الطفل . وبنفس الطريقة يستطيع الإنسان أن يكون يقظاً وواعياً بنفسه تماماً . يشعر الانسان

في داخله مثلاً أنه متعب، أو أنه مكتئب، ولكن بدلاً من أن يستسلم الإنسان لمثل هذا الشعور، أو أن يستسلم للأفكار السوداوية التي تنشأ نتيجة الاكتئاب، يتساءل الإنسان بينه وبين نفسه عما حدث، ويتساءل عن سبب الاكتئاب. ويفعل الإنسان نفس الشيء عندما يحيره أمر من الأمور، أو عندما يصيبه الضيق، أو عندما يستسلم لأحلام اليقظة. . انه من الضروري في مثل هذه الحالات أن يبحث الإنسان عن الحقيقة الداخلية الكامنة، وألا يحاول إعطاءها صيغة عقلية مقبولة بأية طريقة من الطرق، فعند ذلك سيستمع الإنسان من داخله إلى صوت يناديه لماذا الضيق ولماذا القلق ولماذا الحيرة؟

توجد لدى الإنسان العادي درجة محددة من اليقظة والوعي لما يدور في جسمه، انه يلاحظ كل تغير حتى لو كان هذا التغير غير مصحوب بأية آلام محسوسة. ومن السهل على الإنسان أن يعي ويدرك وعيه بإحساسه وبجسمه، ذلك أنه توجد لدى الإنسان صورة محددة تماماً عن كل حالة يشعر فيها بالارتياح. ولكن تكمن الصعوبة عند الإنسان في ملاحظة العمليات النفسية وفي الوعي بها، ذلك لأن الكثيرين لم يعرفوا أى إنسان يمتاز باليقظة الكاملة لكل العمليات النفسية التي تدور في داخله. فبالنسبة للكثيرين يمكن أن ينطبق عليهم المعيار الذي تتم على أساسه العمليات النفسية التي توجد لدى الآباء ولدى الأقارب، . أو لدى غيرهم من المجموعات البشرية التي تعيش في المجتمع الذي يعيشون فيه. وطالما أنهم لا يختلفون عن هذا المعيار، فإنهم يشعرون بأنهم أسوياء، ولا يوجد لديهم درجة من الاهتمام لملاحظة أى سلوك يشذ عن هذا المعيار. ان هناك الكثيرين من الناس الذين لا يعرفون تماماً معنى أن يكون هناك إنساناً ناجحاً، أو إنساناً ممتلئاً بالاشراق والرغبة والتركيز، لم يشاهدوا حتى الآن إنساناً محبباً أو إنساناً واضحاً أو إنساناً متحضراً، أو إنساناً يمتاز بالقدرة على التركيز والانتباه. وحتى يستطيع الإنسان أن يعي كل ما يدور في نفسه، لابد أن يكون لدى نفس هذا الإنسان تصوراً ما عن الإنسان السليم الصحيح الممتلئ حياة ونشاطاً. ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يمر بهذا الحدث، إذا لم يكن هو نفسه سواء في طفولته أو في نضجه قد

حدث له أن رأى ذلك النوع من الانسان السليم؟ ولن نجد اجابة سهلة على هذا السؤال، ولكن السؤال في حد ذاته يهيب بنا أن ننظر نظرة ناقدة إلى أساليب التربية. ينسى الإنسان أثناء تعليمه أهم الجوانب التي تتصل بنمو شخصيته الإنسانية والتي تكون على درجة من الأهمية بحيث يمكنها أن تبلور لنا انساناً ناضجاً قادراً على الحب في الوقت الحاضر. في بعض المراحل والحقب التاريخية كان الانسان غالباً هو المخلوق الوحيد الذي يتميز بالنفس والروح والأخلاق، حتى جاءت نظرية داروين وهزت الإنسان بعنف وحاولت أن تظهر الإنسان على أنه ليس هو أهم المخلوقات على هذه الأرض. وبدأ الكثيرون يجرون وراء هذه النظرية لاهئين. لقد كان للعلم في المقام الأول واجباً يختلف عن كونه مصدراً للمعرفة والمعلومات، فقد كان واجبه هو أن ينقل بعض الاتجاهات والمواقف الخاصة للآخرين، أما في الوقت الحاضر وفي ظل المجتمعات الصناعية (الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية على السواء) نجد أن الأفراد الذين يحتلون أماكن هامة، والذين يعتبرون نماذج لغيرهم، من الممكن أن نعتبرهم أي شيء، إلا أن يكونوا ممن يحملون في داخلهم صفاتاً نفسية ذات قيمة أو معنى. فنجوم السينما وكبار المذيعين والصحفيين، والهيئات التجارية الهامة، واللجان الحكومية، هي النماذج التي يراها الناس. وتكمن المؤهلات الأساسية لمثل هؤلاء الناس في أنه قد أتاحت لهم الفرصة ليكونوا مشهورين ومعروفين ليس إلا. ورغم كل هذا فإن الوقت لا يبدو خالياً من الأمل، فإذا فكر الانسان أن فرداً ما مثل (دكتور احمد زويل) قد أصبح مشهوراً في مصر أو في الولايات المتحدة الأمريكية أو في أي مكان آخر، فإن هذا يعني أنه من الممكن أن يكون الانسان مشهوراً، إذا لم يتجاهل المربون في تربيتهم للأطفال والشباب كل الامكانيات والفرص المتاحة، ليجعلوا من الشخصيات المعاصرة ومن الشخصيات التاريخية، شخصيات مألوفة لدى هؤلاء الشباب، بل وجعلها شخصيات مرغوبة منهم، وعلى المربين بالاضافة إلى ذلك أن يقوموا بتوضيح مدى امكانية الانسان وقدرته على التأثير في تيار الحياة.

وإذا نظرنا إلى الأعمال الأدبية الضخمة وإلى الأعمال الفنية المبتكرة وإلى

الاختراعات العلمية الجديدة وفكرنا فيها بعمق ، فإنه سيلوح لنا أن الفرصة مازالت قائمة لنقل نظرة شمولية واضحة عن مدى الوعي بالحياة . فإذا لم نوفق في التوصل إلى اقامة حياة واضحة ناضجة ، فاننا سنواجه بالاحتمال القائم بأن ثقافتنا وتقاليدنا سيصيبها الخراب والدمار في يوم ما . أن التقاليد تعتمد ليس فقط على نقل الأفكار والمعارف ، وانما تعتمد أيضا على الاتجاهات الانسانية ، فإذا نسى الجيل القادم هذه الحقيقة ولم يعيشها ونجبرها ، فإن هذا يعني ضياع حضارة الإنسان التي كونها عبر آلاف السنين .

الفصل الخامس عشر

الحب المبدع بين الفلسفة والعلم

لقد تحدثنا حتى الآن عن كل ماهو ضروري للتدريب على مهنة من المهن أو على فن من الفنون أو علم من العلوم، وهنا نصل إلى العنوان الخارجي لموضوع الكتاب، أى الحب بين الفلسفة والعلم. أن الشرط الأساسي في جوهر الحب هو القدرة على الحب، والقدرة على تخطي النرجسية النفسية والأنانية. إن النرجسية النفسية ماهى إلا اتجاه يمر فيه الإنسان بالعمليات النفسية الداخلية، وخصوصاً المخاوف والقلق واللهفة بوصفها خبرات حقيقية، أما ظواهر البيئة المحيطة به فهى لا تمثل بالنسبة له أى دافع أو حقيقة، ولكنها تكتسب معنى فقط من مدى الفائدة التي ستعود عليه منها، ومدى خطورتها عليه. وإذا كانت الموضوعية ماهى إلا الوجه الآخر للنرجسية أو الذاتية، فإنها تعنى الرغبة في الانفتاح على العالم الخارجي المحيط. . . على الأشياء. . . وعلى الإنسان، . . وعلى رؤية الإنسان ورؤية الأشياء بطريقة موضوعية، أى رؤية كل شىء كما هو. والموضوعية بهذا المعنى ماهى إلا الواقعية التي تنتقل من القشور إلى النواة وإلى الجوهر الذي تبدو به الأشياء أو الظواهر. ولأن الموضوعية هى عكس النرجسية أو الذاتية فإنها لا تعتمد على انعدام العلاقات، وإنما تعتمد على العلاقات العميقة. وما المرض النفسى والفصام بكل أشكاله إلا أشكالاً متطرفة لعدم القدرة على الموضوعية بمعنى الانفتاح الموضوعي على الآخرين. أما بالنسبة للمرضى النفسيين فإن الحقيقة الوحيدة التي يعيها كل منهم لا تتعدى تلك الحقيقة التي تكمن في داخل كل منهم، وهذه تكمن فقط في قلقهم ومخاوفهم وفي دوافعهم. فالعالم الخارجي بالنسبة لهؤلاء المرضى، ما هو إلا رمز لعالمهم الداخلي، انه الارهاق الذي يعانون منه. وقد يمر جميع الأسوياء بهذه الخبرة المرضية ولكن في حالة الحلم فقط، ففي أحلامنا تصبح الوقائع الحقيقية رموزاً للعمليات النفسية الداخلية، اننا أثناء نومنا نتأكد من أن أحلامنا حقيقة بمفهوم واقع النائم الذي ننظر له بعد يقظتنا بعين الاعتبار.

إننا ننظر إلى الأحلام وإلى المرض النفسى على أنها حالات شاذة تنخفض فيها درجة الموضوعية . ومع ذلك فإن كلاً منا توجد لديه صورة غير موضوعية عن العالم، صورة تتكون من خلال ذاتية كل منا ونرجسيته . وإذا كان من الضروري أن أسوق أمثلة على ذلك ، فهذه ليست بالعملية الصعبة ذلك أن كلاً منا يستطيع أن يجد هذه الأمثلة بنفسه بمتتهى السهولة إذا تمكن من ملاحظة نفسه وملاحظة غيره من الناس ، أو إذا قرأ الجرائد والمجلات . اننا جميعاً كبشر نختلف في درجة الذاتية والنرجسية التي توجد لدى كل منا والتي تعتبر مسئولة عن تشويه الحقيقة والواقع . خذ على سبيل المثال تلك السيدة التي تتصل بعيادة الطبيب وتخبره بأنها تود أن تزوره في مواعيد العيادة بعد ظهر نفس اليوم الذي اتصلت به فيه ، ويرد الطبيب أو الممرضة بأن كل المواعيد لهذا اليوم محجوزة ، وبإمكان الطبيب أن يراها في مواعيد العيادة بعد ظهر اليوم التالي ، فترد السيدة عليه قائلة «لكن يادكتور أنا أسكن بالقرب من العيادة ، مجرد خمس دقائق فقط» هذا المثال يوضح لنا بجلاء أن السيدة لم تستطيع أن تفهم أن سكنها بالقرب من عيادة الطبيب لايعني بالنسبة للطبيب نفسه أى توفير للوقت ، انها لم تفكر إلا تفكيراً ذاتياً ، فلأنها ستوفر وقتاً لنفسها ، تعتقد أنها ستوفر أيضاً الوقت على الطبيب . . ومن هنا نرى أن الحقيقة الوحيدة بالنسبة لهذه السيدة هي ذاتها هي .

قد يكون التشويه الذي يصيب العلاقات الانسانية العادية تشويهاً بسيطاً وغير متطرف ، أو قد يكون أقل وضوحاً . فنجد مثلاً أن كثيراً من الآباء يهتمون بالدرجة الأولى بمعرفة ما إذا كان أطفالهم مطيعين بالفعل ، أم أن هؤلاء الأطفال يريدون فقط ادخال السرور على آبائهم ، وذلك بدلاً من أن يهتم هؤلاء الآباء بمعرفة الخبرات التي يحصل عليها أطفالهم ، وبمعرفة كيف يحصل الأطفال على تلك الخبرات بأنفسهم وبدون الرجوع إلى آبائهم . كم من الأزواج يعتقدون أن زوجاتهم ظالمات ، لأن نوع ارتباط هؤلاء الأزواج بأمهاتهم أثناء طفولتهم جعلهم يفسرون كل مطلب للمرأة (الزوجة) على أنه تقييد لحرياتهم . وكم من الزوجات يعتقدن أن أزواجهن ليسوا أكفاء ، وتنقصهم القدرة ، لا لشيء إلا لأن هؤلاء الأزواج لا يحققون

تصورات زوجاتهم الخيالية في أن يكون كلا منهم فارس الأحلام المنقذ الذي تحكى عنه الأساطير، والذي صنعه في أخيلتهن عندما كن صغاراً.

أن نقص الموضوعية أيضاً في التعامل مع القوميات والدول الأجنبية يعتبر أكثر خطورة على البشرية، فقد ينظر أبناء شعب معين إلى شعب آخر على أن قوميته قومية غير مرغوب فيها وعلى أنها عدو لدود، بينما يرى أبناء الشعب الآخر أن قوميتهم هذه هي من أحسن وأفضل القوميات. وهنا نجد أن القاء صفة العداوة والكراهية على قومية من القوميات، إنما يقاس بمعيار الآخرين، لدرجة أننا نجد أن الأعمال الجيدة التي يقوم بها العدو، لا ينظر إليها إلا على أنها أعمال رديئة وغير مقبولة، ويتم تفسيرها على أن الهدف الأصلي منها هو محاولة خداع العالم، وفي نفس الوقت نجد أن الأعمال العدائية واللاإنسانية التي تقوم بها هذه الدولة (القومية) نفسها يتم تفسيرها على أنها ذات أهداف إنسانية نبيلة، تهدف إلى خدمة العدالة. فإذا اختبر الإنسان العلاقة بين القوميات والعلاقة بين أفراد بني الإنسان، فسيوصل حتماً إلى نتيجة صحيحة مؤداها أن الموضوعية هي الشيء الشاذ، أما الشيء المعتاد والطبيعي فهو الذاتية والترجسية (وهذا في حد ذاته تشويه للقاعدة).

يكمن رصيد الإنسان في أن يفكر تفكيراً موضوعياً في العقل والحكمة، وفيما يكمن خلف العقل والحكمة من مشاعر الخضوع والامتثال للعقل. أن يكون الإنسان موضوعياً يعتمد على عقله وفكره، وتحكيم العقل لايتأتى إلا إذا تخلص الإنسان من وهمه بأنه هو العارف وهو المتحكم الذي يملك القدرة والقوة، ذلك الوهم الذي عاشه الإنسان وخبره في مراحل طفولته الأولى.

إذا عدنا بهذا كله إلى موضوع حديثنا عن ممارسة الحب أو عن الخبرة العملية في الحب فإن هذا يعني أن الحب يرتبط ببعض الأخطاء الترجسية الذاتية ارتباطاً نسبياً. ويتطلب الحب أيضاً تنمية القدرة على الخضوع للموضوعية والتفكير العقلي السليم، ومن أجل هذا الهدف يجب أن يكافح الإنسان طول حياته. ذلك أن الخضوع لقوانين العقل والموضوعية مثلها تماماً مثل الحب قد يحدث فيهما تغييراً في بعض مجالات الحياة. اننى مثلاً لا أستطيع أن أكون موضوعياً بأعلى درجة من

درجات الموضوعية بالنسبة لأسرتي، إذا لم أكن أستطيع أن أتعامل معها كأسرة أجنبية، والعكس صحيح، ذلك أن أسرتي لا تستطيع أن تكون موضوعية معي إلا إذا نظرت إلي على أنني شخص أجنبي عنها، ومع ذلك فأنني إذا أردت أن أتعلم الحب كفن أو كعلم فإنه يتحتم على أن أبذل ما في وسعي لأكون موضوعياً في جميع المواقف، وعلي أيضاً أن ألاحظ جميع المواقف جيداً وبدقة وأن أكون متيقظاً واعياً للمواقف التي لا أكون فيها موضوعياً. . لا بد أن أحاول الاعتراف بالفرق بين صورة الذاتية النرجسية المشوهة عن شخص معين وبين سلوك ذلك الشخص، وبين الواقع الفعلي للشخص وسلوكه، ولا بد أيضاً أن أعترف بوجود الاتهامات المهيمنة، وبالظروف القاهرة وبالمخاوف والقلق. أن الشرط الضروري والفصل لا تقان الحب يكمن في قدرة الإنسان على أن يكون موضوعياً يخضع ويمثل لحكم العقل. وهذه القدرة لا بد أن تنشر أجنحتها في جميع المجالات وعلى جميع الأشخاص الذين أقيم معهم علاقات. وإذا أراد الإنسان أن يحتفظ بموضوعيته مع الشخص الذي يحبه فقط، واعتقد أنه ليس بحاجة إلى هذه الموضوعية في علاقته مع الآخرين في هذا العالم الكبير، فإنه سيتأكد لهذا الإنسان، وبمنتهى السرعة أنه سيفشل في مجال الحب وفي مجال العلاقات الانسانية جميعاً. ان القدرة على الحب ترتبط برصيد الإنسان من النضج في علاقته بالعالم، وفي علاقته بنفسه، وبقدرة الانسان على تنمية قدراته الابداعية الخلاقة. ان عملية عدم التمرکز على الذات النرجسية، وعملية الميلاد وعملية النمو تتطلب توفر شرط ضروري آخر وهو شرط الاعتقاد، ذلك أن الحب عقيدة، وفي الحب الالهى نجد أن الحب هو قمة العبادة.

ما هو الاعتقاد؟ هل من الضروري ومن المهم أن يعتقد الإنسان في الله أو أن يؤمن به؟ وهل الاعتقاد على نقيض من العقل والتفكير العقلي؟ وهل من المحتمل أن يكون هناك نتائج علمية سيئة لا يمكن التدليل عليها؟

علينا في البداية أن نميز بين الاعتقاد العقلي والاعتقاد اللاعقلي. . اننا نفهم تحت ما يسمى بالاعتقاد اللاعقلي (العاطفي)، الاعتقاد في شخص ما أو الاعتقاد في فكرة ما اعتقاداً يعتمد أساساً على سلطة لا أساس لها من العقل. وعلى العكس

من ذلك نجد أن الاعتقاد العقلي الفكري يعتمد على البرهان القائم على التفكير أو على الخبرة الشعورية . ولا يعتبر الاعتقاد العقلي بالدرجة الأولى اعتقاداً في شيء ما، ولكنه هو الحقيقة والتأكد القائمين على خبرات حقيقية موثوق فيها . الاعتقاد هو العلاقة المميزة للشخصية بأكملها، وليس شيئاً مرتبطاً بمضمون فكرة محددة على أنها فكرة حقيقية .

وتمتد جذور الاعتقاد العقلي والفكري في مجالات الإبداع والتفكير والقدرة التغير وفي ايجابية الإنسان . وفي مجال التفكير العقلي - الذي يزعم البعض أنه بعيد عن الاعتقاد- نجد أن الاعتقاد الفكري العقلي يحتل أهمية خاصة ، اذ كيف يتوصل العالم على سبيل المثال إلى اكتشاف جديد؟ هل يبدأ العالم بأجراء تجربة تلو الأخرى ، ويصل إلى حقيقة تلو الأخرى دون أن يكون لديه تصور مسبق عما يريد الوصول إليه؟ انه من النادر أن يوجد اكتشاف له معنى حقيقي في أى مجال من المجالات العلمية لم يكن مسبقاً بجهد انساني طويل وبتصورات سابقة ، ذلك أن عملية التفكير الإبداعي تبدأ غالباً في كل مجال يبذل فيه الانسان جهداً بما يمكن أن نسميه الحدس العقلي ، وهذا يعتبر بدوره نتيجة للدراسات السابقة عن طريق التفكير الناقد وعن طريق الملاحظة العلمية الموضوعية .

ان قصة العلم مليئة بالأمثلة عن الاعتقاد في العقل والتعقل وفي الحدس العقلي . لقد آمن علماء الشرق والغرب ايماناً عميقاً بحكمة العقل ، وقد أدى هذا الإيمان العقلي إلى وقوع الكثيرين منهم تحت طائلة العذاب دفاعاً عن معتقداتهم . ومن هنا نجد أن الاعتقاد يعتبر عاملاً ضرورياً في كل خطوة من خطوات البحث العلمى ، ابتداء من المفهوم النظري أو الفروض ثم الملاحظة العلمية الواعية وإجراء التجارب وصياغة النظرية أو القانون العلمي . إن الإيمان بالملاحظة على أنها الطريق العقلي الهام نحو الوصول للهدف مثله تماماً مثل الاعتقاد في الفروض وفي النظرية ، تمتد جذوره في خبرة الإنسان الخاصة وفي تأكده من قوة طاقته الفكرية ، وفي مدى قدرته على الملاحظة وعلى الحكم .

وبينما نجد أن الاعتقاد اللاعقلي ماهو إلا ميل فقط نحو اعتبار شيء ما على

أنه حقيقة ، لا لشيء إلا لأن شخصيته ذات قوة وسلطان تسانده ، أو لأن الغالية العظمي من الناس يعتقدون ذلك ، فلإننا نجد أن الاعتقاد العقلي لا يأتي إلا عن طريق التأكد والاقتناع الحر الذي يعتمد على الإبداع الذاتي وعلى الملاحظة وعلى التفكير الناقد، حتى لو تناقض مع فكرة العامة أو الغالبية من الناس . ان تفكيرنا وأحكامنا ليست هي المجال الوحيد الذي يمر فيه الإنسان بخبرة التعبير عن الاعتقاد أو الإيمان الفكري العقلي . وفي ميدان العلاقات الإنسانية نجد أن الاعتقاد والثقة يعتبران صفة ضرورية للصدقة الحقيقية أو للحب .

إن الاعتقاد في شخص ما ، يعنى الاعتقاد في أمانته وفي ثباته على مبادئه وفي عدم تلونه ، وأن هذه الصفات هي جوهر شخصيته ، وهي كذلك جوهر حبه . اننى لا أعنى بهذا أن الانسان الذي أعتقد فيه وأثق فيه ، انما هو إنسان جامد لايتغير، وغير مسموح له بتغيير آرائه ، ولكنى أعنى أن دوافعه الأساسية تبقى هي نفسها دائماً بالدرجة التي تجعل احترامه للحياة على سبيل المثال وتقديره لمكانة الانسان ، جزءاً من ذاته ، وهذه الرؤية للحياة وللآخرين من بنى البشر لا تخضع للتغيرات العشوائية الطارئة .

وبنفس المعنى فاننا نؤمن بأنفسنا . . اننا وجود لذات ، ولجوهر ، لشخصيتنا ، وهذا الوجود لايتغير طول حياتنا بالرغم من تغير الظروف المحيطة بنا كبشر، والتي تؤدي بالضرورة إلى تغيير في المشاعر وإلى تغيير المواقف الإنسانية ، أو تغيير وجهات النظر . وهذا الجوهر هو ما يكمن خلف لفظة (أنا) أو الذات ، كما أننا نعلم على هذا الجوهر الأصيل في التأكد من هويتنا الخاصة . فإذا كنا لا نؤمن بأنفسنا ، فإن شعورنا بالذاتية وبالتميز سيدخل في مرحلة الخطر، ولن نستطيع أن نستقل بذواتنا عن الآخرين ، بل سنكون تابعين لغيرنا ، حيث يستطيع الآخرون التحكم في ذواتنا ، كما أن كل خبراتنا ستكون مرهونة بموافقة هؤلاء الآخرين عليها . والإنسان الذي يؤمن بنفسه هو فقط الإنسان الذي يمتلك القدرة في ذاته على أن يكون أميناً مع الآخرين ، وذلك لأنه وحده يستطيع أن يشعر بالطمأنينة وبأنه سيكون هكذا أيضاً في المستقبل ، ولن يتغير عما هو عليه اليوم ، وأنه في فترة لاحقة سيكون في

وضع يمكنه من أن يشعر وأن يتعامل مع الناس بالطريقة التي وعد بها دون خوف من أن يحنث في وعده. ان اعتقاد الانسان في ذاته وإيمانه بنفسه هو شرط ضروري لقدرة الإنسان على أن يعطى عهداً ووعداً، وإذا كان الانسان كما يقول نيتشه Nietzsche هو الكائن الذي يستطيع أن يعد، فان اعتقاد الانسان وإيمانه انما هو شرط ضروري للوجود الإنساني. إن ما يميز الحب هو أنه اعتقاد الإنسان وإيمانه بحب ذاته، وإيمانه بقدرة حبه على أن يثير حب الآخرين له، كما أنه اعتقاد في أمانة الحب وهو أحد المبادئ الأساسية التي يقوم عليها الحب.

ومن المظاهر الأخرى للاعتقاد في الآخرين، ذلك المظهر الذي يتجلى في اعتقادنا في الامكانيات والفرص المتاحة للآخرين. وأبسط أشكال هذا الاعتقاد نجده في اعتقاد الأم في إمكانية النمو المتاحة لطفلها الوليد، في أن يحيا ويعيش، وفي أن ينمو وفي أن يمشى ويتحرك وفي أن يتحدث. قد يتصور البعض أنه بالنسبة لمجال النمو الذي يتم بطريقة منتظمة خطوة تلو الخطوة، أن هذه العملية ليست في حاجة منا إلى الاعتقاد في النمو المتوقع، ولكنهم يتجاهلون من ناحية أخرى أنه ليس هناك وضوح كامل فيما إذا كان الطفل سينمو أم لا، وكذلك في مدى الاحتمالات المتاحة للطفل في أن يحب وفي أن يكون انساناً سعيداً، وفي قدرته على النمو الفعلي، وفي امكانياته المختلفة مثل المواهب الفنية أو المواهب الفكرية المتاحة. إن كل جوانب النمو هذه إن هي إلا النبات الذي ينمو ويؤتي ثماره إذا أتاحت له الشروط المناسبة للنمو، وفي نفس الوقت فإن عدم توفر هذه الشروط يؤدي إلى إفساد النمو وتضييع المعالم.

ومن أهم الشروط المطلوبة لتحقيق النمو السليم هو أن الإنسان الذي يلعب دوراً هاماً في حياة الطفل يعتقد أساساً في كل هذه الإمكانيات والاحتمالات. ووجود هذا الاعتقاد هو الذي يوضح لنا الفروق بين التربية (التنمية) وبين اطلاق المسميات والصفات (العفوية). فالتربية هي عملية تتفق تماماً مع واجب مساعدة الطفل على تحقيق الاستفادة من جميع الفرص والامكانيات المتاحة له. والعفوية هي على النقيض من التربية، ذلك أن عملية اطلاق الأسماء أو الصفات تقوم على

نقص الثقة والاعتقاد في امكانيات الطفل المتاحة وفي نموه الذاتي الذي يعتمد على الاقتناع بأنه بإمكان الطفل فقط أن يكون انساناً منظماً عندما يقوم الكبار بغرس مايرون أنه ضروري فيه . اننا لسنا بحاجة إلى الاعتقاد في الانسان الآلى لأنه انسان ليس فيه حياة . . إنه آله لا يستطيع أن يحقق ذاته .

يصل الاعتقاد في الآخرين إلى أعلى درجاته في الاعتقاد في الإنسان بصفة عامة . وهذا النوع من الاعتقاد يعبر عنه في المجتمع الغربي وفي الفكر المسيحي وفي الفكر اليهودي ، ويتضح هذا جلياً في لغة الفكر في المجتمعات الغربية فيما يسمى بالاتجاه الانساني ، وفي الأفكار السياسية والاجتماعية التي ظهرت خلال القرن الماضي ، كما نجده أيضاً في الفكر الإسلامي الذي ينادي بانسانية الإنسان منذ ظهور الإسلام .

وكما هو الاعتقاد في نمو الطفل ، يقوم الاعتقاد في الإنسان على أساس التصور القائل بأن الامكانيات المتاحة للإنسان ، إن هي إلا امكانيات تتيح للإنسان بالدرجة الأولى أن يحقق ذاته إذا ما توفرت له شروط معينة ومناسبة ، وهذه الشروط هي شروط المساواة والعدالة والحب التي يقوم عليها نظام المجتمع . ولم يصل الإنسان حتى الآن إلى اقامة هذا النظام ، ولذلك فانه من المطلوب أن يثبت الانسان أنه قادر على ذلك ، أى أنه قادر على تحقيق ما يعتقد . ولكن كما هو الحال في كل عقيدة عقلية وإيمان فكري فان هذا ليس مجرد رغبة عقلية أو مجرد أمنية . . انه أكثر من ذلك لأنه يعتمد على حقيقة النمو الذي وصل إليه الانسان الآن ، وكذلك على كل الامكانيات الكامنة في كل فرد منا وعلى الامكانيات الذاتية الشخصية لكل من العقل والحب .

وبينما تنمو العقيدة اللاعقلية (الانفعالية) تحت ظروف الضغط والتسلط بحيث يعتقد الإنسان أنه امتلك بذلك اليد العليا والقوة الغالبة والمعرفة الكاملة بكل شيء ، نجد أننا نؤمن بفكرة عقلية معينة لأنها ناتجة عن ملاحظتنا الخاصة وعن فكرنا الخاص . اننا نؤمن بالامكانيات المتاحة لنا وكذلك بالامكانيات المتاحة لغيرنا وبالامكانيات المتاحة للانسانية جمعاء ، بالدرجة التي تجعلنا نشعر ونخبر واقع وعينا ونضجنا . ان انتاجنا الفكري الخاص هو الأساس الذي يقوم عليه الإيمان العقلي . فعندما نؤمن بالحياة نؤمن أيضاً بإيجابية الانسان وقدرته على الإبداع

ويترتب على ذلك أن يكون الايمان بالسلطة والقوة، انما يعنى الايمان بالسيطرة وبالتحكم في الآخرين، وهذا يتناقض تماماً مع استخدام القوة، فالايان بالدول الكبرى الموجودة فعلاً لا لشيء إلا لأنها واقع موجود يتفق تماماً مع عدم الايمان وعدم الثقة في احتمال ظهور أى شيء جديد لم ير النور بعد. انه نوع من التنبؤ بالمستقبل الذي يعتمد على الوضع الثابت الذي لا يتغير في الوقت الحاضر. وهذا يوضح لنا أن هذه الأسس في منتهى الخطأ لأنها تتجاهل امكانات نمو الوعي واليقظة الانسانية. لا يوجد ايمان بالقوة وانما يوجد الخضوع لها أو الانحياز إلى من يملكها، كما توجد الرغبة عند من يملك القوة في أن يظل مالكا لها أبد الدهر وبينما يبدو أن القوة تبدو للكثيرين وكأنها هي أكثر الأشياء حقيقة، يبرهن التاريخ على أن القوة هي أكثر المكاسب الانسانية التي لا يمكن الوثوق بها والتي لا يبقى لها دوام. وانطلاقاً من القول السائد بعدم التناقض بين الايمان وامتلاك السلطة، نجد أن كل النظم السياسية والدينية التي تم التوصل إليها عن طريق الاعتقاد الفكري فقط، قد تحولت إلى نظم مرتشية وفقدت أخيراً قوتها الداخلية عندما اعتمدت فقط على السلطة والقوة وكذلك عندما ارتبطت بهذه السلطة والقوة.

أن يكون الإنسان مؤمناً أو ذا عقيدة يوجب عليه أن تكون لديه الشجاعة والقدرة والاستعداد للمغامرة والقدرة عليها، والقدرة على تحمل الألم وعلى تحمل الفشل. أما من يريد أن يقيم حياته على أساس الأمن الكامل والرعاية الذّان يعتمدان على أسس بدائية، فانه لا يمكن أن تكون لديه عقيدة أو ايمان. والانسان الذي تخلو حياته من الحد الأدنى من وسائل الأمان، يتحول إلى شخص سجين (سجين للخوف حتى ولو على أبسط المستويات). وتختلف هذه الشجاعة كثيراً عن الشجاعة التي يمكن أن نسميها بالشجاعة الكاذبة (ادعاء الشجاعة) فالشجاعة الكاذبة قد تدفع الإنسان لإن يضحي بحياته (يتنحّر) لا لشيء إلا لأنه غير قادر على الحب. أما استعداد الإنسان للتضحية بنفسه من أجل عقيدة أو من أجل من يحب فانه يعتبر شجاعة تختلف عن تلك الحالة التي يتنحّر فيها الإنسان أو يضحي بحياته لأنه لم يعد يجد لها أى معنى.

وهنا نتساءل عما إذا كان بإمكان الإنسان أن يتعلم الايمان ويتعلم الشجاعة ونجيب على التساؤل بأنه بالفعل بإمكان الإنسان أن يتعلم الايمان، وبإمكانه أن يتدرب في كل لحظة على الايمان. انه في حاجة فقط إلى أن يجيل بصره في كل ما حوله محاولاً إدراك سر الحياة، يفكر في كل المخلوقات، ولادة طفل... ونمو هذا الطفل... نبت نبات... ونهاؤه... وبتكرار هذا التأمل والتدبر سيصل الإنسان إلى عقيدة وإلى ايمان. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب النار ﴿

[آل عمران: ١٩٠، ١٩١]

وإذا أصبح الإنسان مؤمناً فإنه يبدأ في الشعور بالأمن والطمأنينة، وفي نفس الوقت يتحرر من الخوف. إن الإنسان بحاجة إلى العقيدة وإلى الايمان حتى يكون أباً ناجحاً أو أمّاً ناجحة، انه في حاجة إلى الاعتقاد وإلى الايمان حتى يستطيع أن ينام في هدوء وبلا خوف وبلا ضجر، انه في حاجة إلى الاعتقاد وإلى الايمان حتى يتمكن من البدء في عمل ما. وللحقيقة فإننا قد تعودنا على الاعتقاد وعلى الايمان. فالإنسان الذي ليس له عقيدة وليس لديه ايمان، انسان يعاني من القلق الزائد على نفسه وعلى طفله وعلى كل شيء، قلق يؤرق نومه ويشعره بالعجز، ثم قلق من العجز، أى الخوف من انعدام قدرته على أداء عمل ما واتقانه والابداع فيه، أو الخوف والقلق من أن يشك الآخرون في قدرته وفي شجاعته. وفي حالة القلق هذه لا يستطيع الإنسان أن يكون في وضع يسمح له بالتخطيط طويل المدى.

ان تمسك انسان ما برأيه وبحكمه الخاص (في حالة ما إذا كان هذا الرأي أو الحكم صحيحاً)، في مواجهة حكم أو رأى شائع لدى عامة الناس (ولكنه خاطئ) انها هو من قبيل الشجاعة. أما التمسك بحكم أو برأى خاطئ، رغم الحقائق التي توضح خطأ هذا الحكم، فإنما يدل على الجمود وعدم القدرة على الرؤية الصحيحة. أن صمود الإنسان في مواجهة عقبات ومصاعب الحياة التي تتحدها، والتي تؤدي إلى شعور ذلك الإنسان بالقوة، اذا تمكن من التغلب على

تلك العقبات ، يتطلب منه الشجاعة والإيمان . أن يكون الانسان مؤمناً وشجاعاً فهذه عملية يبدأ الانسان في تعلمها في فترة مبكرة من حياته . فالانسان يبدأ من الأشياء الصغيرة في الحياة اليومية . والخطوة الأولى في هذا الصدد تكمن في معرفة الإنسان أين ومتى يفقد الإنسان إيمانه وشجاعته؟ وأين ومتى يستطيع الإنسان أن يدرك ماذا يمكن أن يترتب على فقدان الإيمان وفقدان الشجاعة؟ وذلك عندما يبدأ الإنسان في الاعتماد على العقل فقط ، وفي معرفة أين ومتى يكون الإنسان مستسلماً متواكلاً في تعامله مع الآخرين؟ وما هو نوع التعقل الذي يأمن إليه الإنسان؟ والأهم من ذلك هو معرفة أن كل خداع للنفس يؤدي إلى إضعاف الشخص ، وأن الضعف المتزايد سيؤدي إلى خدعة جديدة للنفس ، وإلى عدم القدرة على مواجهة الحقيقة . وهكذا يزداد عمق هذا الاتجاه حتى يصل الإنسان إلى مرحلة من عدم الإيمان تقوده إلى حلقة مفرغة . وعندئذ سيعرف الإنسان أنه أثناء خوفه الواعي من ألا يكون محبوباً من الآخرين ، كان يخاف بطريقة لاشعورية من الحب . ان حب انسان لآخر يعني أن يعطى الإنسان نفسه للآخر دون أن يحصل على أى ضمان بحب ذلك الآخر له ، ولكنه يؤمن في قرارة نفسه بأن حبه هو للشخص المحبوب سيثير حب ذلك الشخص له ، ذلك أن الحب هو الصورة العملية التطبيقية للإيمان ، ومن كان إيمانه ضعيفاً ، لن يكون حبه على أية درجة من القوة .

إن الأساس الذي يقوم عليه التدريب أو تعلم الحب هو إيجابية المتعلم . ولقد قلنا قبل ذلك أن الفعالية والنشاط هنا ليس معناها القيام بعمل أى شيء ، ولكن معناها استخدام النشاط الداخلي والخلاق والطاقة الإنسانية الخاصة ، وما الحب الا نشاط ، فعندما أحب فأننى أكون انساناً نشيطاً وفعالاً بالنسبة للشخص الذي أحبه ، ولكن هذا لايعني أن أحصر كل طاقتى ونشاطى على هذا الشخص فقط ، وانما أتجه بنشاطى إلى الانفتاح على كل العالم . أما اذا كنت شخصاً عاجزاً عن الحب ، أى أننى أقوم فقط بأداء دور ، فإن هذا يعني أنني أفقد الوعي واليقظة المستمرة وينقصنى الانفتاح والوضوح وفي نفس الوقت تنقصنى الفعالية والإيجابية والنشاط ، وهنا يعتبر النوم هو الموقف الوحيد الذي يتناسب مع عدم الفعالية

والنشاط . ويجد المتأمل أن هناك الكثير من التناقضات لدى معظم الناس ، أولئك الذين يدعون اليقظة وهم أنصاف نيام ، انهم أيضا أنصاف أيقاظ عندما يرغبون في النوم . أما اليقظة التامة فانها تعنى ألا يصيبك الملل وألا يصيب الآخرين الملل منك . وعدم ملل الانسان وعدم ملل الآخرين منه هو الشرط الأساسى للحب . أن يكون الانسان يقظاً في تفكيره وفي مشاعره ، في سمعه وفي بصره ، انساناً مدركاً ومتفتحاً ، ذلك هو الشرط الضروري لتعلم الحب ولممارسة الحب . انه أيضا من الوهم أن يعتقد الإنسان أنه يستطيع أن يقيم حياته بحيث يكون مبدعاً في ميدان الحب وغير مبدع في المجالات الأخرى . ذلك أن جوهر الابتكار والإبداع لا يخضع لأى نوع من أنواع تقسيم العمل . وتتطلب القدرة على الحب وعيا ويقظة وحيوية فعالة ، وهذه يستطيع الإنسان أن يمتلكها فقط من خلال النشاط المبدع وفي مجالات الحياة المختلفة . وإذا لم يكن الإنسان مبدعاً في مجالات الحياة الأخرى ، فإنه لن يستطيع أن يبدع أيضاً في الحب .

كما سبق أنوضحنا نجد أن حب شخص معين (الشخص المحبوب) وكذلك حب الآخرين لا ينفصلان عن بعضهما . وهذا يعنى أن القدرة على الحب ليست قدرة مرتبطة فقط بالعوامل الفردية الخاصة ، ولكنها ترتبط أصلاً بالعلاقات الانسانية المتشابكة والتي توجد في مجتمع ما ، وهذا يعنى مرة أخرى أنها ترتبط بالبناء الاجتماعي الكامل والعام وبنمط الحياة العملية في أى مجتمع من المجتمعات .

لقد أصبح حب الآخرين في المجتمع الحديث شيئاً نادراً ، اذ كيف يمكن أن يكون الحال غير ذلك في مجتمع بدأت تسود فيه الأنانية والتنافس ؟ لقد أصبح ارتباطنا بغيرنا من الناس في المجتمع الذي نعيش فيه ارتباطاً نادراً تحكمه المادة ، وهذا ما يجعل الحب بين الناس حياً يقوم أساساً ويعتمد على أسلوب المجاملة . وتعنى المجاملة في أسلوب التبادل التجاري وفي سلوك تقديم الخدمات عدم الغش والخداع وعدم النصب والاحتيال ، وينطبق هذا نفسه في مجال تبادل المشاعر «سأعطيك بمثل ما تعطينى» ، فما ينطبق على البضائع ينطبق على الحب . وبامكاننا

أن نقول بأن نمو سلوك المجاملة الأخلاقية يعتبر التناج المميز للمجتمع الذي بدأت تطغى عليه المادية بصفة عامة.

تكمن الأسس التي تقوم عليها الحقيقة السابقة في جوهر بناء المجتمع المادي. ففي المجتمعات البسيطة التي لم تطغ عليها حياة المادة والصناعة، كان ما يحدد تبادل السلع هو الضرورة الملحة لتقاليد المجتمع، أو الارتباط الشخصي بانسان آخر عن طريق الحب أو الصداقة. أما المجتمعات العصرية المادية فإنها تقيم تبادل السلع على أساس حالة السوق (العرض والطلب) وهذا هو العامل الأساسي الذي يقوم عليه التبادل التجاري. وسواء كنا بصدد الحديث عن سوق البضائع أو عن سوق العمالة، أو سوق الخدمات، فإن كل تبادل أو مقايضة تتم على أساس مقايضة كل انسان بما يملك للحصول على ما يحتاج، وعليه أن يخضع لقانون السوق بلا نصب وبلا احتيال.

لقد أصبح من السهل أن يحدث خلط بين المجاملة الأخلاقية وبين المعيار الذي يقول «قد لا يعجبك ما يقدم إليك، ومع ذلك عليك أن ترضى بما يقدم لك». ويمكن تفسير أسلوب المجاملة كذلك بطريقة «كن مهذبا في تعاملك مع الآخرين» وفي الحقيقة فإن هذه العبارة توجد أصلا في الكتب الدينية، ففي الانجيل تقول العبارة «حب الآخرين» وفي القرآن «وجادلهم بالتتي هي أحسن». وفي الحقيقة فإن هناك اختلافا كبيرا بين خلق المجاملة المطلوب في الوقت الحاضر وبين عبارات الحث على حب الناس في الرسالات السماوية سواء اليهودية أو المسيحية أو الإسلامية. ويعنى الحث على حب الناس من الناحية الدينية، أن يشعر كل فرد في المجتمع بأنه مسئول عن الآخرين «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه كما يحب لنفسه» وأن يشعر كل انسان بأنه وحدة واحدة مع أبناء قومه. أما خلق المجاملة فانه على العكس من ذلك تماما، ألا تشعر بأنك منفصل عنهم. ان واجبك هو في نفس الوقت حق عليك للآخرين، وهو أن تخدمهم، وليس أن تحبهم. انها ليست صدفة أن يتشر الشرح الجديد للإنجيل والسدى يفسر حب الآخرين على أنه ماهو إلا خلق مجاملة

الآخرين . ان فهم الحب يجب أن يبدأ بمعرفة الفرق بين المجاملة والحب .

وفي هذه المرحلة يطرح نفسه علينا سؤال هام : إذا كانت كل المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع تقوم على أساس أن كل فرد في المجتمع يفكر فقط في ذاته وفيما سيعود عليه هو شخصياً ، إذا كانت هذه المؤسسات محكومة أساساً بمبدأ الذاتية والأنانية ، والذي لا يحد منه ما يسمى بخلق المجاملة ، فكيف يستطيع الإنسان أن يحيا في ظل هذه الظروف ، وكيف يستطيع أن يحب أو أن يتعلم الحب ؟ ألا يعنى هذا أن تتنازل عن الاهتمامات العالمية ، وأن نحصر حياتنا في نطاق محدد ؟

هناك من يتبنون وجهة النظر القائلة بأن الحب والحياة في مجتمعتنا المعاصر هما على النقيض تماماً من بعضهما بالدرجة التي تجعل الحديث اليوم عن الحب هو مشاركة في التضليل والخداع العام . انهم يعتقدون أن الشهداء والمجانين فقط هم الذين يقدرّون على الحب في هذا العالم ، ولذلك فإن الحديث عن الحب أو مناقشته ليس أكثر من نوع من الوعظ الذي ليس له معنى . اننا نحترم مثل هذا الموقف بالرغم من أنه غالباً ما يكون عملية تعقيل للسخرية من الذات ومن نقص القدرة على الحب . لقد انتهت الراديكالية إلى خلق بلا معنى وبلا قيمة .

انني أعرف تماماً أن الاجابة بوجود التناقض المطلق بين الحب وبين الحياة العادية لا يمكن أن يكون اجابة صحيحة إلا بالمفهوم التجريدي . ان المبدأ الذي يقوم عليه المجتمع المادي ومبدأ الحب هما في الحقيقة مبدآن متناقضان . ولكن المجتمع الحديث ينظر إلى هذين المبدأين على أنها ظاهرة معقدة . فالبائع الذي يبيع بضاعة ليس لها فائدة على سبيل المثال ، لن تصل به تجارته هذه إلى أى نجاح اقتصادي ، إذا لم يعتمد على الكذب والخداع والتضليل . في حين أننا نجد أن العامل اليدوى أو الكيميائي أو الفيزيقي على العكس من ذلك ، انهم يستطيعون أن يكونوا مهرة في مهنهم ، وأن يظلوا صادقين وليسوا في حاجة إلى تضليل أو خداع . وبنفس الصورة نجد أنه بإمكان كل الناس أن يحاولوا تعلم الحب ، دون ما داع إلى التخلي عن مهنهم التي يقومون بها . حتى لو اعترف الإنسان بأن مبدأ الحب

يتناقض مع مبدأ المادية في المجتمع، فإن على الإنسان أن يعترف بأن الاتجاه المادي يحمل في طياته تناقضاته، كما أنه يحمل في ثناياه بناء مهتزاً وليس مستقراً، وهذا يترك مجالاً للحرية الشخصية للإنسان، وعدم الزامه بأن يكون صورة طبق الأصل من الآخرين. انها حجة خطيرة تلك التي يرددها الفكر الراديكالي وكذلك الإنسان العادي بأن مشكلة وجوده تكمن في الزمان والمكان، وبالتالي فإن انحراف المجتمع الحالي سيكون مجرد عامل واحد من السهل تحديده.

اننى لا أريد بهذا أن أثير انطباعاتاً بأنه بامكاننا أن نتوقع بأن نظام مجتمعتنا الحالي يمكن أن يستمر إلى الأبد، ومع ذلك فبامكاننا أن نتوقع أن يتحقق حب الناس أو حب الآخرين في هذا المجتمع. لقد أصبح الإنسان القادر على الحب في المجتمع الحديث، انساناً شاذاً، فقد أصبح الحب في المجتمع الغربي المعاصر الذي ينسج الكثيرون في مجتمعتنا على منواله عبارة عن ظاهرة نادرة، ليس لأن الكثير من الأعمال التي يمارسها الإنسان حالياً لا تسمح له بالحب، ولكن لأنه يعيش في مجتمع هدفه الأسمى هو الانتاج والاستهلاك. والانسان الوحيد الذي يستطيع أن يحمى نفسه، هو الإنسان الذي لا يكون صورة مكررة من الآخرين. الإنسان الذي يرى أن الحب هو الاجابة الحقيقية والجادة على مشكلة الوجود الانساني، يجب عليه أن يصل إلى النتيجة التي تقول بأن البناء الاجتماعي في مجتمعتنا في حاجة إلى تغييرات عامة، إذا أردنا للحب أن يكون هو الظاهرة الاجتماعية السائدة، وليس مجرد ظاهرة فردية. ومن الممكن أن نجد في هذا الكتاب بعض الاشارات للاتجاه الذي يجب أن تتم هذه التغيرات في اطاره. وقد بدأ مجتمعتنا الآن في التحول إلى مجتمع بيروقراطي صناعي، وأصبح يخضع للإدارة المهنية، وقد أصبح الإنسان في هذا المجتمع خاضعاً للتأثير الجمعي (العقل الجمعي) الذي يهدف إلى زيادة الانتاج وزيادة الاستهلاك على أساس أنه هدف في ذاته، كما أن جميع الأنشطة في هذا المجتمع قد أصبحت أنشطة ذات طابع اقتصادي، وان تفاوتت في درجاتها، لقد أصبحت المادة هي الهدف. أصبح الانسان قريب الشبه بالآلة، يلبس جيداً ولكنه انسان ليس لديه اهتمامات حقيقية أو عميقة نحو تنمية مميزاته وصفاته وواجباته الانسانية

الخاصة . أما إذا كان الإنسان قادراً على الحب فإن هدفه الأساسي سيكون هو تحقيق ذاته وتنمية نفسه ، وسيكون بإمكانه أن يسخر كل الآلات لخدمته بدلاً من أن يكون هو المسخر لخدمة تلك الآلات . الإنسان القادر على الحب ، إنسان بإمكانه أن يشترك وأن يمر بخبرات الآخرين ، وبإمكانه أن يشترك في الأعمال التي يقومون بها ، وليس فقط المشاركة في الأرباح والمكاسب ، وعلى المجتمع أن يكون منظماً حتى لا تنفصل الطبيعة الإنسانية الاجتماعية المحبة عن الوجود الاجتماعي ، إذ من الضروري أن تتحد معه حتى لا يغترب الإنسان حتى عن طاقته الخاصة ، ويغترب عن ذاته لتضييع منه ذاته في خضم الأجهزة والآلات والمعدات الحديثة وفي الانتاج وفي الاستهلاك . ففي المجتمع الذي تتوافر فيه إمكانية تحقيق الذات الإنسانية كاملة لكل فرد ، تتحقق فيه أيضاً ذوات كل أفراد المجتمع ، وتكمن هذه الإمكانية أساساً في الحب . . حب المجتمع الذي تتوفر فيه هذه الإمكانيات .

خاتمة

إذا كان الحب بالفعل - كما حاولت أن أوضح ذلك - هو الإجابة الوحيدة المرضية والمقنعة على مشكلة الوجود الإنساني، فإن على كل مجتمع نأى عن الحب وعن تنميته بين أبنائه، أن يراجع نفسه وأن يصلح من موقفه بما يتفق مع الأسس الضرورية التي تقوم عليها الطبيعة الإنسانية. أننا عندما نتحدث عن الحب فإننا لسنا بحاجة إلى القيام بالقاء الخطب والمواظب التي تقوم على أبسط الأسس، ذلك أن الحديث عن الحب إنما هو حديث ينبعث عن الرغبة الإنسانية العميقة والحقيقية والتي توجد في نفس كل إنسان. وإذا كان هذا المطلب الإنساني في الحب قد اضطرب إلى الانسحاب والتراجع، فإن هذا لا يعني أن هذا المطلب لم يعد موجوداً ذلك أن تحليل جوهر الحب يوضح لنا أن الحب قد أصبح نادراً في الوقت الحاضر، ولكنه يعنى أيضاً توجيه النقد إلى الشروط الاجتماعية المسؤولة عن ذلك. ان الاعتقاد والايان بوجود الامكانية المتاحة للحب في أن يكون ظاهرة انسانية عامة وليس مجرد ظاهرة فردية خاصة، انها هو ايمان عقلي يقوم على نظرة عميقة في جوهر الإنسان.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]

صدق الله العظيم

المراجع العربية

- القرآن الكريم
أبو الأعلى المودودي
- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة
مبادئ الإسلام، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، الكويت ١٩٧٧ م.
- أبو الأعلى المودودي
نظام الحياة في الإسلام، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، الكويت ١٩٧٧ م.
- أبو الحسن الندوي
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، الكويت ١٩٧٨ م.
- أحمد الفوزان
أحمد بهجت
الله في العقيدة الإسلامية. المختار الإسلامي، القاهرة ١٩٧٩ م.
- أحمد بهجت
أحمد زكي صالح
أنبياء الله. دار الشروق، القاهرة ١٩٧٩ م.
- جون كلوفر مونسما
نظريات التعلم. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧١ م.
- حسين مخلوف
الله يتجلى في عصر العلم. ترجمة الدمرداش سرحان ومراجعة محمد جمال الدين الفندى، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة ١٩٧٩ م.
- رينهارد تاوش،
وأنا - ماري تاوش
منهاج قويم لتربية الشباب المسلم. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٧٣ م.
- الصححة النفسية لدى التلاميذ. ترجمة على سليمان، الكتاب السنوي في التربية وعلم النفس، ١٩٧٨ م.
- سيجموند فرويد
ثلاث مقالات في نظرية الجنسية. ترجمة سامي محمود على ومراجعة مصطفى زيور، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣ م.

تابع - المراجع العربية

- سيجموند فرويد تفسير الأحلام . ترجمة مصطفى صفوان ومراجعة مصطفى زيور دار المعارف ، القاهرة .
- سيجموند فرويد الموجز في التحليل النفسي . ترجمة سامي محمود علي ، وعبد السلام القفاش ، ومراجعة مصطفى زيور ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م .
- سيجموند فرويد محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي . ترجمة أحمد عزت راجح ومراجعة محمد فتحي ، مكتبة مصر القاهرة .
- عبد الكريم زيدان الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية . الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، الكويت ١٩٧٨ م .
- عبد المجيد الزنداني طريق الإيمان . المكتب الإسلامي .
- عل سليمان عقول المستقبل ، الصفحات الذهبية ، الرياض ١٤٢٠ هـ .
- علي سليمان مقدمة في البرامج التربوية للموهوبين والمتفوقين عقلياً ، الصفحات الذهبية ، الرياض ١٤٢٠ هـ .
- علي سليمان سيكلوجية النمو والنمو النفسي ، مكتبة عين شمس ، القاهرة ١٩٩٤ م .
- علي سليمان سيكلوجية التعلم والتعليم - مكتبة عين شمس - القاهرة ١٩٩٤ م .
- محمد أبو السعود خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي . الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، الكويت ١٩٧٨ م .
- محمد بن عبد الوهاب كتاب التوحيد الذي هو حق لله على العباد . الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، الكويت ١٩٧٨ م .
- محمد جمال رسالة العلم والإيمان . مطابع الأهرام التجارية القاهرة ١٩٧٤ م .
- الدين الفندى
- محمد حسين هيكل حياة محمد . دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ م .
- محمد عيد الشافعي المنهج الصوفي في الفقه الإسلامي . مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٥ م .

المراجع الأجنبية

- Arnold, w.* Angewandte Psychologie. Kohlhammer, Stuttgart 1970.
- Babel, I.* The Collected Stories, Criterion Book, New York 1955.
- Bonner, K.H.* Nichtautoritäre Erziehung. Goldmann Verlag, München.
- Cohen. H.* Religion der Vernunft. Frankfurt/Main 1929.
- Eckert, M.* Deutsche Predigten und Traktate, München 1955
- Eibel, I.* Eibesfeldt, I. Liebe und Haß. Riper Co. Verlag München 1970
- Ellis, A.* Die rational-emotive Therapie. Das Innere Selbstgespräch bei Seelischen Problemen und seine Veränderung, Pfeifer, München 1977.
- Ferenczi, S,* The Leaven of Love. Harper & Brothers 1954.
- Freud, A.* Das Ich und die Abwehrmechanismen. Kindler, München 1970.
- Freud, S.* Massenpsychologie und Ich-Analyse- Die Zukunft einer Illusion, Fischer, Frankfurt/Main 1974.
- Freud, S.* Drei Abhandlungen zur Sexualtheorie. Fischer Frankfurt/Main 1976.
- Freud, S.* Totem und Tabu, Fischer, Frankfurt/Main 1976.

تابع - المراجع الأجنبية

- Freud, S.** Vorlesungen zur Einfuhrung in die Psychoanalyse. Fischer, Frankfurt /Main 1977.
- Freud, S.** Abriß oder Psychoanalyse und das Unbehagen in der Kultur. Frankfurt/ Main 1935.
- Freud, S.** Gesammelte Werke Band X. London 1946
- Formm, E.** Der heutige Mensch und seine Zukunft, Frankfurt/Main 1960.
- Formm, E.** Die Kunst des Liebens. Ullstein Frankfurt/ Main 1979
- Formm, E.** Wege aus einer Kranken Gesellschaft. Ullstein, Frankfurt/Main 1981.
- Formm, E.** Die Furcht vor der Freiheit. Zurich 1945.
- Formm, E.** Psychoanalyse und Ethik, Zurich 1954.
- Hartmann, H.** Psychologische Diagnostik. Kohlhammer, Frankfurt/Main 1973.
- Hofstatter, P.R.** Einfuhrung in die Sozialpsychologie. M. Kroner, Stuttgart 1973.
- Hoyo, C. G.** Arbeitspsychologie. Kohlhammer Frankfurt/Main 1974
- Huber, G.** Psychiatrie. F.K. Schattauer Verlage, Stuttgart 1976.
- Luther, M.** Die Bible, die ganze Heilige Schrift des alten und Neuen Testaments, seine Deutsche Ubersetizung, Wurttembergische Bibelanstalt Stuttgart.

تابع - المراجع الأجنبية

- Muhle, G. & Schell, C.** Kreavitat und Schule. Piper, Munchen 1970
- Loatse** Taoteking. ed . F. Max Mueller, Oxfprd Universty, London 1927.
- Polli, E.** Psychotherapie der Neurosen. Kindler, Munchen 1976.
- Ploetz Verlage** Die arabische Welt, Ploetz, Freiburg 1978.
- Robert, M.** Die Revolution der Psychoanalyse. Fischer Frankfurt/Main 1972.
- Rogers, C.** Die nicht - direkte Beratung. Kindler, Munchen 1972
- Rogers, C.** Encounter Gruppen- Das Erlebnis der menschlichen Begegnung. Kindler, Munchen 1974.
- Rogers, C.** Die Klientenzentrierte Gesprachstherapie. Kindler, Munchen 1975.
- Rohracher, H.** Charakterkunde, M&S Wien 1965.
- Roth, E.** Personlichkeits Psychologie. Kohlhommer Frankfurt/ Main 1969.
- Schulz von Thun, F.** Miteinander reden. Psychologie der Zwischenkommunikation, Rowohlt Verlage, Hamburg 1981.
- Schick, E.** Seelsorge an der eignen Seele. Furche, Hamburg 1963.
- Shellteon, j.L.** Ackermann, j.M. Verhaltens-Anweisungen Hausaufgaben in Beratung und Psychotherapie. Pfeifer, Munchen 1978

تابع - المراجع الأجنبية

- Suleiman, A.* Die Wirkungen von Simultanem Video-Feedback in der Gesprächstherapie auf SC., Selbstkonzept, Körperbild, Körperzufriedenheit und Therapieerfolg. Uni. Hamburg 1979.
- Sullivan* The interpersonal Theory of psychiatry. New york 1953.
- Tausch, R. & Tausch, A.* Gesprächspsychotherapie. Hogrefe, Göttingen 1977.
- Tausch, R. & Tausch, A.* Erziehungspsychologie. Hogrefe, Göttingen 1979.
- Weil, S.* Schwerkraft und Gnade. München 1954.
- Wollschlager, G.* Kreativität und Gesellschaft. Fischer, Frankfurt/Main 1972.
- Zimmer, H. R.* Philosophies of India. Pantheon Books, New York 1951.



الناشر

مكتبة الصفحات الذهبية

الرياض - العليا شارع التخصصي

ت : ٤٦٥٦٦٣٦ - ٤٦٤٥٣٧٨

ص.ب ٨٢٣٦ الرياض ١١٤٨٢

